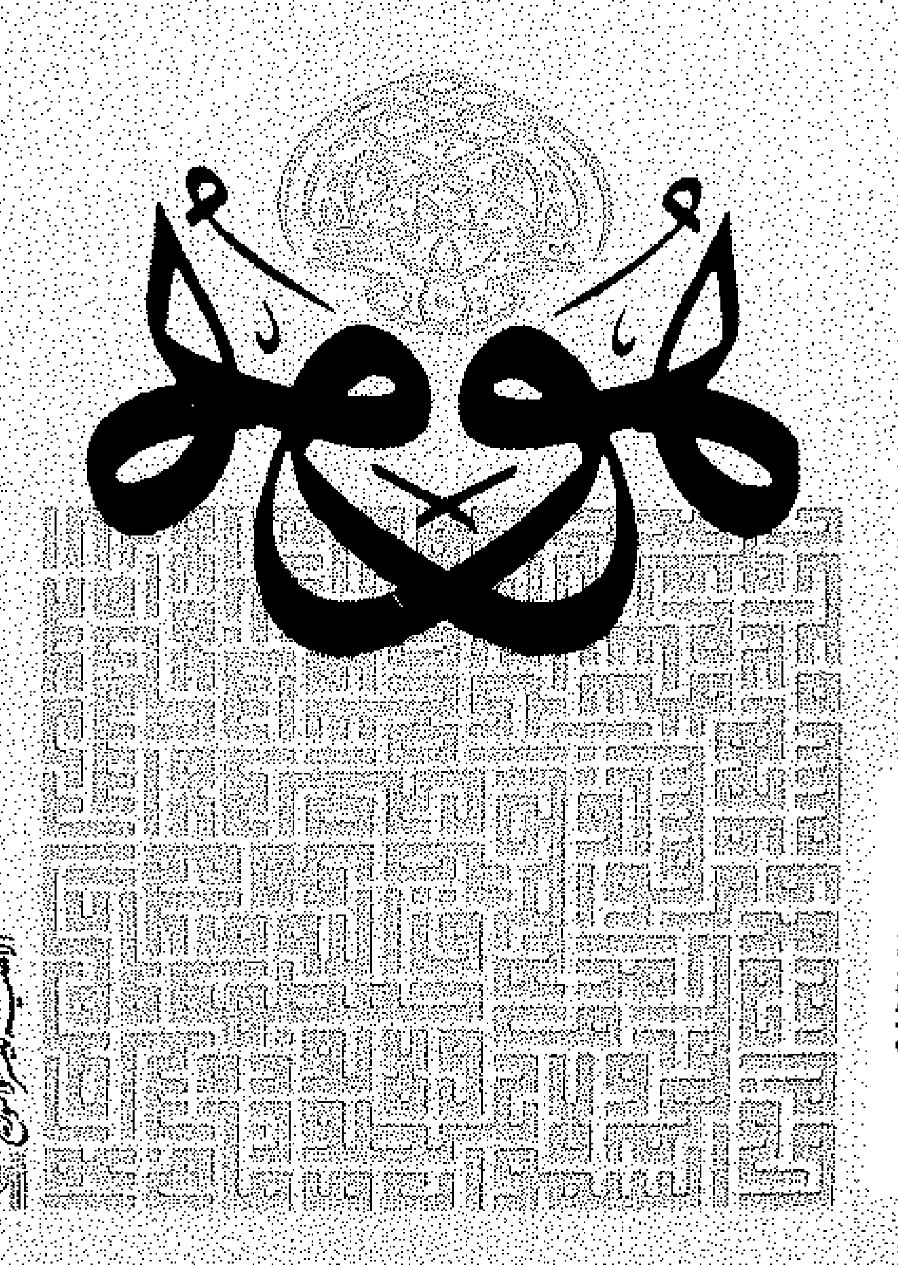
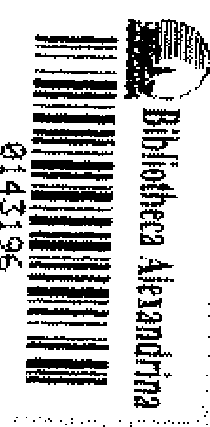
مختصر التاريخ الإسلامي

محمد عبدالله عودة
حكمت فريحات
إبراهيم يسين الخطيب





مختصر التاريخ الاسلامي

محمد عبد الله عودة   الدكتور حكمت عبد الكريم فريحات

ابراهيم ياسين الخطيب

رقم الايداع لدى دائرة المكتبات والوثائق الوطنية

(١٩٨٩/١٠/٦٨٠)

٩٠ع
محم محمد عبد الله عودة.
مختصر التاريخ الاسلامي/ محمد عبد الله عودة، حكمت عبد الكريم فريحات، ابراهيم ياسين الخطيب. ـ عمان: (د. ن)، ١٩٨٩.
١٨٥ ص.
ر. أ. ١٩٨٩/١٠/٦٨٠.
١ ـ التاريخ الاسلامي. أ ـ حكمت عبد الكريم فريحات، مؤلف مشارك. ب ـ ابراهيم ياسين الخطيب ، مؤلف مشارك. ج ـ العنوان.
(تمت الفهرسة بمعرفة دائرة المكتبات والوثائق الوطنية)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

يركز معظم القادة و الفلاسفة على اهمية عودة الشعوب الى تراثها و المحافظة عليه، والانطلاق منه للاطلاع على منجزات الحضارة الانسانية، والاخذ منها بما يناسب هذا التراث لبناء المستقبل الحضاري اللاحق وفقا لمبدأ عـدم الانغلاق التام، بحيث نغلق جميع الابواب والنوافذ فنختنق، والانفتاح التام بحيث نزيل جميع الابواب و السقف فنكون عرضة لمهب الرياح، بل يجب التفاعل مع بقية الامم و الشعوب مع المحافظة على الاصالة، ومن هذا المنطلق فقد وضعنا كتابنا «التاريخ الاسلامي» للقارئين مواطنين عاديين، وطلاب، ولا سيما دارسي الجامعات وكليات المجتمع في تخصص الشريعة الاسلامية والافتاء لزيادة ثقافتهم، والاطلاع عـلى تراثهم، ويهدف الكتاب الى تحقيق الاهداف التالية:

- تعريف الدارس بقضايا التاريخ الاسلامي وتنمية معلوماته التاريخية.
- توضيح خصائص التاريخ الاسلامي وميزاته.
- بلورة مفهوم الحضارة الاسلامية ومدى تفوقها عبر العصور.
- بلورة مفهوم الشورى والجهاد وتحرير الانسان والعـدل من خلال احـداث التاريخ.
- ابراز الدور العالمي الذي احتله المسلمون خلال التاريخ.
- رد الشبهات التي تثار حول الاحداث الكبرى في التاريخ الاسلامي.

وقد قسمنا الكتاب الى خمس وحدات، عالجت الوحدة الاولى تاريخ الخلفاء الراشدين، وخصصت الوحدة الثانية لتاريخ الدولة الاموية، في حين درسنا تاريخ الدولة العباسية في الوحدة الثالثة، وفي الوحدة الرابعة ركزنا على العصر المماليكي في مصر والشام، اما في الوحدة الخامسة فقد تحدثنا عن الدولة العثمانية، وانهينا الكتاب بالمراجع التي قد يفيد منها القاريء.

حرصنا على الامانة العلمية، فوثقنا المعلومات بالمراجع التي اخذنا منها، لما في ذلك من فائدة للقارىء اذا ما اراد الاستزادة والعودة الى المراجع .

وكلنا امل ان يحقق هذا الكتاب الاهداف التي توخيناها في تعميق الانتماء الى التراث .

والله ولي التوفيق

الفصل الأول

تاريخ الخلفاء الراشديـــن

- ★ ابو بكر الصديـــق
- ★ عمر بن الخطـــاب
- ★ عثمان بن عفان
- ★ علي بن ابي طالب
- ★ الحسن والحسين

الخلفاء الراشــــدون

استمر حكم الخلفاء الراشدين حوالي اربعين سنة في عام ١١ ـ ٤٠ هجرية، وكان حكم الخلفاء يرتكز على المساواة والاخاء الاسلامي ويستند الى الشورى، ويعتمد على الكتاب والسنة في استنباط الاحكام. والخلفاء الراشدون هم ابو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي.

١ ـ ابو بكر الصديق رضي الله عنه

هو عبد الله بن ابي قحافة عثمان بن عامر، عرف بالخصال الكريمة، وهو اول من اسلم من الرجال، واسلم على يديه كثير من الرجال كعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن ابي وقاص، وطلحه بن عبيد الله.

وكان ايمانه بالرسول شديداً، اذ كان رفيقه عندما هاجر الى المدينة، وقد نزل فيه قوله: «الا تنصروه فقد نصره الله، اذ اخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار»[١]. وسمي بالصديق لانه صدق رسول الله ﷺ بما اخبره الله.

ولما استقر الرسول في المدينة كان ابو بكر ساعده الايمن، وقد خصه الرسول ﷺ بمزايا لم يخص بها احداً سواه. وفي ذلك يقول ابن خلدون «كان يفاوض اصحابه ويشاورهم في مهماته العامة والخاصة، ويخص مع ذلك ابا بكر بخصوصيات اخرى». فكان العرب الذين عرفوا الدول واحوالها في عهد كسرى وقيصر والنجاشي ليسمون ابا بكر وزيره. وقال فيه الرسول ﷺ في آخر خطبة له «.... اني لا اعلم احداً كان افضل عندي في الصحبة يداً منه»[٢]. كان ابو بكر تاجراً، ومن سراة مكة في الجاهلية وانفق جميع ماله في نشر الاسلام.

استمرت خلافة ابي بكر من سنة ١١ ـ ١٣ هـ ـ ٦٣٢ ـ ٦٣٤م. وكانت مدتها سنتين وثلاثة اشهر.

خلافــة ابي بكــر :

لم يعلن الرسول ﷺ احداً لرئاسة المسلمين من بعده، حرصاً على تطبيق قوله سبحانه وتعالى «وامرهم شورى بينهم». وقد فكر بتولية ابي بكر[٣]، وقيل ان الرسول ﷺ فكر بالعهد الى ابي بكر وروت عائشة رضي الله عنها انه قال: «ادعوا الى عبدالرحمن بن ابي بكر اكتب كتابا لابي بكر لا يختلف عليه احد من بعدي، ثم قال لعائشة: دعيه معاذ

الله ان يختلف المؤمنون في ابي بكر» ويعتقد معظم المؤرخين ان مرض الرسول ﷺ حال دون اتمام نيته في تولية ابي بكر، والعهد اليه.

ولما توفي الرسول كان اول عمل مارسه المسلمون هو اختيار خليفة له، لأهمية رئاسة الدولة، حتى انهم قدموا ذلك على تجهيز الرسول ﷺ، اجتمع الانصار في سقيفة بني ساعده، واتفقوا على مبايعة سعد بن عبادة سيد الخزرج خليفة للمسلمين، لأنهم كانوا يرون انهم احق بالخلافة لسبقهم في الاسلام، ونصرتهم الرسول ﷺ وصحبه، وايوائهم لهم، وجهادهم في سبيل الله.

وعندما علم ابو بكر وعمر بالأمر توجها الى السقيفة واصطحبا معهما أبا عبيدة لدى لقائه في الطريق، وتبادل الحضور الرأي، فقال ابو بكر «ان الله جل تناؤه بعث محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق، فدعا الى الاسلام، فأخذ الله بنواصينا وقلوبنا الى ما دعا اليه، فكنا معشر المهاجرين اول الناس اسلاما، والناس لنا فيه تبع... والله ما زلتم تؤثرون اخوانكم من المهاجرين، وانتم احق الناس ان لا يكون هذا الامر واختلافه على ايديكم، وابعد ان تجدوا اخوانكم على خير ساقه الله تعالى اليهم...

ثم تحدث الخباب بن منذر الانصاري، فاقترح ان يكون امير من المهاجرين وامير من الانصار، واستمر النقاش الى ان قال ابو بكر «وانما ادعوكم الى ابي عبيدة أو عمر، وكلاهما رضيت لكم ولهذا الامر، وكلاهما له اهل» فنهض عمر بن الخطاب ورشح ابا بكر، وحاول ابراز اهمية اختيار ابي بكر، كما حاول ابو بكر ابراز دور المهاجرين، وحصر الامارة بهم، فلم يقبل الانصار ذلك واحتدم النقاش، وتأزم الموقف فيما بعد بين الانصار انفسهم، فاستغل ابو بكر ذلك وعرض مبايعة عمر بن الخطاب[٤]، حرصا على وحدة صف المسلمين، فرفض عمر، وقام بشير بن سعيد زعيم الاوس وبايع ابا بكر حتى لا يستاثر سعد بن عبادة بالخلافة، ثم بايعه عمر وابو عبيدة وتتابع المسلمون في مبايعة ابي بكر، وسميت هذه البيعة بالبيعة الخاصة، وفي اليوم التالي بايع المسلمون ابا بكر البيعة العامة في المسجد.

اسباب اختيار ابي بكر :

تشير الدلائل الى ان الرسول ﷺ كان يقدم الرسول في كثير من الامور، ويفضله على غيره للاسباب التالية:

١ ـ هاجر ابو بكر مع الرسول ﷺ ، واختبئا معا في الغار عندما كانت قريش تبحث

عنهما «قال تعالى» ثاني اثنين اذ هما في الغار، اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا.

٢ - استخلف الرسول ﷺ ابا بكر بالصلاة اثناء مرضه.

٣ - اغلاق ابواب المسجد الا باب ابي بكر، قال ﷺ، انظر هذه الابواب اللافظة في المسجد فسدوها، الا بيت ابي بكر، فاني لا اعلم احدا كان افضل في الصحبة عندي يدأ منه.

٤ - التضحيات الكثيرة التي قام بها ابو بكر، فقد خرج بماله لربه، فاشترى سبعة عبيد لتخليصهم من عذاب قريش، واعتقهم، كما قدم جميع ماله لتجهيز جيش العسره.

سياسة ابي بكـــر :

انتهج ابو بكر سياسة العدل والحق، والمساواة بين المسلمين، وقد بين سياسته في خطبته بعد مبايعته، فقال «ايها الناس، فاني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فان احسنت فاعينوني، وإن اسأت فقوموني.. والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه، والقوي ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، اطيعوني ما اطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم.

وعندما تولى الخلافة استشار الناس في تحديد راتب له بعد ان ترك التجارة لتدبير شؤون المسلمين، فقال له ابو عبيدة، افرض لك قوت رجل من المسلمين، واخيرا فرض المسلمون له خمسمائة درهم لقوته وكسوته وركوبة يركبها.

اعمال ابي بكر الصديـق :

١ - انفاذ جيش اسامة

كان النبي ﷺ قد اعد حملة بقيادة اسامة بن زيد للاخذ بثأر ابيه الذي قتل في معركة مؤته جنوب بلاد الشام، ولما توفي الرسول ﷺ رأى اسامة ان ينزل عن امرة الجيش تاركا للخليفة حرية الاختيار، وعندما تولى ابو بكر الخلافة سير جيش اسامة تنفيذا لأمر الرسول ﷺ، وقد اعترض بعض الصحابة ومن بينهم عمر بن الخطاب على تولية اسامة امارة الحملة لصغر سنه (١٨ سنة)، واضطراب الاحوال في الجزيرة العربية اثر ارتداد بعض القبائل عن الاسلام. ولكن ابا بكر قال في حزم «لا أرد قضاء

قضى به الرسول ﷺ، ولوظننت ان السباع تتخطفني لانفذت جيش اسامة كما أمر النبي».

ولما خرج الجيش، ودعه ابو بكر واوصاه بقوله «لا تخونوا ولا تغدروا، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا، وسوف تمرون باقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع، فدعوهم، وما فرغوا انفسهم له، وسوف تقدمون على قوم بآنية فيها الوان الطعام، فاذا أكلتم منها شيئا بعد شيء، فاذكروا اسم الله عليه، وتلقون اقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسيف خفقا، اندفعوا باسم الله».

نزل اسامة بالمسلمين في مؤته لارهاب الروم ومنعهم من التفكير في قتال المسلمين، والقضاء على كل مقاومة في منطقة مؤته، وبعد عشرين يوما عاد الى المدينة منتصرا، فبعث انتصاره البشر في نفوس المسلمين، والثقة بقدرة الجيش الاسلامي، فكانت هذه الحملة مقدمة للفتوحات الاسلامية في الشام[٥].

٢ ـ القضاء على المرتدين :

عظمت فجيعة المسلمين ومصيبتهم بوفاة الرسول ﷺ، وانفسح المجال امام المنافقين واعداء المسلمين اظهار نزعاتهم الانفصالية، اذ لم يصدق الناس خبر موت الرسول، وتسرب الشك الى نفوسهم، واستبعدوا ان يكون الشخص الذي أحدث هذه الثورة في التاريخ بشرا يجوز عليه الموت، فامتنع البعض عن دفع الزكاة، ولم يبق مخلصا للاسلام ومطيعا لابي بكر الا سكان المدينة ومكة والطائف، ويعلل المؤرخون اسباب ارتداد العرب عن الاسلام الى الاسباب التالية:

أ ـ وفاة الرسول ﷺ :

ربط المسلمون بين شخص محمد ﷺ وبين ما حققه العرب من مكاسب دينية واجتماعية وسياسية، فقد أرسى فكرة الامة، والدولة الاسلامية، والمساواة، والتكافل والتضامن، كما نظم المجتمع، واخضع القبائل العربية لسكان الدولة الاسلامية بموجب معاهدات عقدت مع الرسول، فلما توفي الرسول ﷺ لم يصدق الجمهور نبأ وفاته حتى عمر بن الخطاب، فاعتبرت القبائل والناس ان الرابطة مع الدولة الاسلامية انتهت بوفاة الرسول ﷺ.

ب - العصبية القبليـــة :

لم تنس القبائل عصبياتها القبلية التي جهد الرسول ﷺ على اذابتها وتشكيل امة اسلامية اكدتها نصوص صحيفة المدينة. وليس ادل على ذلك من ردة الاسود العنسي في اليمن في عهد الرسول ﷺ، وانضمام بني حنيفة الى مسيلمة الكذاب مع علمهم بكذبه، ومحاولة بعض القبائل استرجاع ملكها كبني ربيعة في البحرين، عندما ملكوا المنذر بن النعمان بن المنذر(٦) واعتبار القبائل الزكاة كجزية.

ج - حداثة الاسلام لدى بعض المسلمين :

لم يتمكن الاسلام من قلوب بعض المسلمين الذين اسلموا مقلدين، وبخاصة بعد غزوة تبوك، اذا أرسلت القبائل وفودها في السنة التاسعة للهجرة معلنة اسلامها.

د - عدم تعود العرب الخضوع للنظام :

صعب على بعض القبائل الخضوع للنظام الاسلامي الذي كبح شهوات العرب، وحرم عليهم الزنا، والخمر، والميسر، وقيد حرية الزواج والاخذ بالثأر.

حـركة المرتدين :

كانت حركة الردة حركة سياسية تقوم على العصبية القبلية، واتخذت قناعاً زائفاً من الدين، واستهدفت الاستقلال والانفصـال عن سلطات المدينـة، وطالب المرتـدون باعفائهم من الزكاة لانهم اعتبروها نوعاً من الأتاوة.

ادعى كثير من الاشخاص بالنبوة، فقد ادعى الاسود العنسي في اليمن النبوة ولكن حركته اخمدت قبل وفاة الرسول، وتنبأ طليحة بن خويلد الاسدي في حياة الرسول ﷺ واستفحل أمره، وتبعته عرب أسد وغطفان وطيء(٧)، وتنبأت سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية، وتزوجت من مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة في اليمامة.

وأرتد بنو ربيعة في البحرين، وملكوا عليهم المنذر بن النعمان بن المنذر، وأرتد الحطم بن ضبيعة من قبيلة بكر بن وائل، ونـزل الى القطيف، حتى انتشـرت حركـة المـرتدين معـظم الجزيـرة العربيـة، ولم يبق الا المدينـة ومكة الطائف مـواليا للدولة الاسلامية.

هزت حركة المرتدين الدولة الاسلامية، حتى أشار عمر بن الخطاب على الخليفة ابي بكر بعدم محاربة المرتدين ماداموا يدينون بوحدانية الله، عملا بقول الرسول ﷺ

«امرت أن اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله، فمن قالها فقد عظم مني ماله ونفسه الا بحقه وحسابه على الله»[8]

القضاء على الحركة :

وقف ابو بكر بحزم، وحارب المرتدين، وقال «الله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونها الى رسول الله لقاتلتهم على منعها»[9].

كلف ابو بكر «علي بن أبي طالب بالدفاع عن الطرق الجبلية الى المدينة، وتمكن من صد حملة غطفان وبني اسد على المدينة. ثم عقد ابو بكر الالوية لاحد عشر اميراً، وهم:

١ ـ خالد بن الوليد وكلفه بمحاربة طليحة بن خويلد في بزاخة، ومالك بن نويره بالبطاح.
٢ ـ عكرمة بن ابي جهل، وأمره بالسير نحو مسيلمة في اليمامة.
٣ ـ المهاجر بن ابي أمية: وكانت وجهته جنوب الاسود العنسي ثم كنده بحضرموت.
٤ ـ خالد بن سعيد بن العاص: سيره الى مشارف اشام.
٥ ـ حذيفة بن محصن الغلفاني: وعهد اليه بأهل دبا.
٦ ـ عمرو بن العاص: ووجهته قضاعة في شمال الحجاز.
٧ ـ عرفجة بن هرثمة: وعهد اليه بالسير الى مهره.
٨ ـ شرحبيل بن حسنة: وكلفه بمساعدة عكرمة لمقاتلة مسيلمة.
٩ ـ طريفة بن حاجز: وسيره الى بني سليم من هوازن.
١٠ـ سويد بن مقرن: واتجه الى تهامة اليمن.
١١ـ العلاء بن الحضرمي: وكلف بمحاربة المرتدين في البحرين.

نجحت بعوث ابي بكر في قمع حركة الردة، وكان خالد بن الوليد أكثر القادة نجاحاً، فقد قضى على جموع طلحة، واخضع غطفان وسليم واسد، كما هزم مالك بن نويرة، ثم ساعد شرحبيل وعكرمة في الحرب ضد مسيلمة، وعندما اشتبك خالد مع مسيلمة اشتد القتال بين الفريقين، وتبادلا النصر والهزيمة، الا أن المسلمين حصروا بني حنيفة بقيادة مسيلمة الى حديقة سميت حديقة الموت لكثرة من قتل بها، ويقال ان بني حنيفة خسروا ٢١ الف قتيل، في حين استشهد حوالي ١٢٠٠، وبمقتل مسيلمة ضعف المرتدون، وسرعان ما قضي عليهم، ونتج عن حروب الردة اعادة وحدة المسلمين الدينية والسياسية، وتفكير أبي بكر في جمع القرآن خشية ضياعه لكثرة من قتل من حفاظه.

نتائج حروب الردة :

أ ـ تدعمت خلافة ابي بكر، وعادت وحدة الامة الاسلامية.

ب ـ ظهرت نفوذ المسلمين من النزعات الجاهلية، والشرك، وسدت الطريق امام المتنبئين.

جـ ـ أعادت القوة والثقة الى نفوس المسلمين بصحة الرسالة المحمدية، وشعورهم بواجب نشر الدين الاسلامي.

د ـ مشاركة المسلمين في الجهاد ولا سيما المرتدين تفكيرا لهم عن ما اقترفوا من ذنب لارتدادهم عن الاسلام.

٣ ـ الفتوحات الاسلامية :

اختلف المؤرخون في تعليل الفتوحات الاسلامية، وتعليل دوافعها، ويرجح البعض اسبابها الى نشر الدين، في حين يعتبر المستشرقون دوافعها باسباب اقتصادية، وفيما يلي أهم دوافع الفتوحات الاسلامية.

أ ـ الجهاد ونشر الدين :

ارسل الله محمد ﷺ لنشر الاسلام، فارسل البعوث والكتب الى الملوك والامراء يدعوهم الى الايمان بالرسالة الاسلامية، ولذلك قامت معركة مؤتة عندما لم يستجب البيزنطيون لدعوة الاسلام، وتابع ابو بكر رسالة محمد في نشر الدين الاسلامي لقوله تعالى، «يا أيها النبي أنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً» سورة الاحزاب آية ٤٥.

وما أن انتهت حروب الردة حتى بعث أبو بكر بالكتائب الاسلامية لنشر الدين الاسلامي، ولكن المسلمين لم يندفعوا الى أراضي الدولتين البيزنطية والفارسية الا دفاعاً عن النفس، عندما علموا بالحشود على حدود الدولة الاسلامية، ولم يكن الجهاد هو السبيل الوحيد لنشر الاسلام، لقوله تعالى «لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي، فمن يكفر بالطاغوث، ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم» سورة البقرة آية ٢٥٦.

ب ـ بناء الجبهة الداخلية :

أهتم المسلمون بتقوية الوحدة الوطنية، وابعاد المسلمين عن المشاحنات الداخلية،

او التفكير في حروب الردة، وذلك بدعم وحدة الامة الاسلامية في مواجهة الاخطار الخارجية.

جـ - الاوضاع الاقتصادية :

يدعي المستشرقون ان الفتوحات الاسلامية كان هدفها الاستيلاء على خيرات البيزنطيين والفرس، وان الغنائم هي الهدف الاساسي لهذه الحروب، وان الفتوحات الاسلامية ما هي الا موجة سامية الى بلاد الهلال الخصيب، والواقع ان هذا القول لا صحة له، لان الاسلام هذب نفسية المسلمين، كما ان سكان العراق والشام كانوا من العرب الذين يحكمون من قبل دولتي الفرس وبيزنطة غير العربيتين.

د - تردي احوال دولتي فارس وبيزنطة :

اعترى الدولة الفارسية ضعف شامل، اذ تعددت الانقسامات الدينية، فكان اصحاب الدين الزرادشتي الرسمي في صراع من الذين يتبعون الديانات الاخرى، كمذهب المانوية، والديانة النصرانية بمذهبيها النسطوري واليعقوبي، والديانة اليهودية، والصابئة.

كما ان نظام الحكم الفارسي كان منعزلا، ويعتمد في حكمه على الظلم والاستبداد، والجواسيس، فسخط الناس وكرهوا حكامهم، وقد ادى ذلك الى اضطراب الدولة، وبخاصة لمحاربة العرب لها في معركة ذي قار سنة ٦١٠ هـ .

أما دولة بيزنطة فكانت في وضع سيء، فالنزاع الديني بلغ اشده حول طبيعة السيد المسيح، أهي الهية ام بشرية، ادى الى انعدام الوحدة الوطنية، وتمرد الجند، وضعف الحكام.

ومما ساعد في ضعف الدولتين الحروب التي خاضتها الدولتين فيما بينها ردحاً من الزمن.

فتـح العـراق :

استغلت القبائل العربية غرب نهر الفرات ضعف دولة الفرس، وتولى بوران بنت كسرى الملك، واخذت تغير على تخوم ارض فارس بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني. ولما شعر بازدياد قوة الفرس استنجد بالمسلمين، فارسل له ابو بكر جيشا بقيادة خالد بن الوليد وامره بطاعته.

استطاع المسلمون اخضاع جميع القبائل الواقعة غرب نهر الفرات، والاستيلاء على عدة حصون وقرى بالاضافة الى الحيرة، والانبار، وعين التمر، كما هزم المسلمون الفرس سنة ١٣هـ/ ٦٣٣م في معركة ذات السلاسل، وسميت بهذا الاسم لان الفرس ربطوا انفسهم بالسلاسل حتى لا يفروا من المعركة.

وفي سنة ٦٣٤م اتجه خالد بن الوليد الى بلاد الشام تاركا القيادة للمثنى.

فتح بلاد الشام :

كانت معركة مؤتة وغزوة تبوك مقدمة لفتح الشام، وفي سنة ١١ هـ /٦٣٢م وجه ابو بكر اربعة جيوش لفتح الشام قواتها ٢٥ ـ ٣٦ ألف جندي، ويقودها كل من:

- يزيد بن ابي سفيان ووجهته دمشق.
- عمرو بن العاص ووجهته فلسطين.
- ابي عبيدة عامر بن الجراح ووجهته حمص.
- شرحبيل بن حسنة ووجهته الاردن.

وقد اسندت القيادة العامة لابي عبيدة، اشتبك المسلمون مع البيزنطيين في وادي عربة سنة ١٣هـ/ ٦٣٤م في معركة داثن، فهزموا العدو، وتقدموا نحو فلسطين حيث انتصروا ثانية في اجنادين، فسقطت فلسطين عدا مدينتي قيسارية وبيت المقدس وفي تلك الاثناء وصل خالد بن الوليد، والتقى مع جيوش المسلمين في بصرى، فتسلم القيادة، وتمكن من هزيمة البيزنطيين والاستيلاء على بصرى.

٤ ـ جمع القرآن الكريم:

كان القرآن ينزل الرسول ﷺ فيحفظه في صدره، ويردده على لسانه، ويقرأه على المسلمين، وكان بعض المسلمين يكتب الايات في صحف وقراطيس، وكانت الآيات تكتب احيانا على جريد النخل والجلد وغيرها ريثما تتوفر الصحف والقراطيس فينقل اليها(١٠).

وكان النبي ﷺ اذا نزلت آية امر كتاب الوحي بكتابتها وحدد موضعها من سورتها، فكان النبي ﷺ يأمر كتاب الوحي بوضع الآيات والسور في مكانها الصحيح، واثر عن النبي انه كان يقرأ القرآن في صلاته نهاراً وليلا ويسمعه المسلمون وينقلون عنه.

وكان النبي ﷺ دائم المراجعة للقرآن الكريم، وكان يقرأه على جبريل عن ظهر قلب مرة كل عام في رمضان، وفي العام الذي انتقل الرسول ﷺ فيه الى الرفيق الاعلى، قرأ

القرآن مرتين على جبريل، وشهد زيد بن ثابت المرة الاخيرة. وهكذا كان القرآن كاملا ومرتباً في آياته وسوره قبل وفاة الرسول ﷺ .

وعندما تولى ابو بكر الخلافة، وارتدت بعض القبائل عن الاسلام، وامتنعت عن دفع الزكاة، ارسل ابو بكر القوات المسلحة لاعادتهم الى حظيرة الاسلام، فمات عدد كبير من حفاظ القرآن في معركة اليمامة، فاقترح عمر ابن الخطاب على الخليفة جمع القرآن.

كلف الخليفة ابو بكر زيد بن ثابت جمع القرآن لانه كان يحفظ القرآن، واحد كتبة الوحي، وعندما بدأ زيد بجمعه اتبع منهجاً قويماً في تدوين القرآن، وهو أن لا يقبل شيئاً من القرآن الا بشاهدين عدليين، واخذ يجمع القرآن، من الاشياء التي كتب عليها، ولا يدون شيئاً الا اذا تطابق مع حفظه وبشهادة عدلين، الا اواخر براءه، فانه لم يجدها مكتوبة الا عند ابي خزيمة الانصاري وحده، وقد اعتمد في اثبات الآيتين على أبي خزيمة، وعمر بن الخطاب وعليه نفسه.

فلما اتم زيد بن ثابت عمله، جمع الصحف التي كتب عليها القرآن، واودعها عند ابي بكر. فكان عمل ابي بكر بمثابة حفظ الوثائق الهامة بتعبير عصرنا. وقد اكد ذلك ابو عبدالله الحارث بن اسد المحاسبي في كتاب فهم السنن «كتابة القرآن ليست محدثة فانه ﷺ كان يأمر بكتابته، ولكنه مفرقاً في الرقاع، والاكتاف، والعسب، وانما امر ابو بكر بنسخها من مكان الى مكان، وكان ذلك بمنزله اوراق وجدت في بيت رسول الله ﷺ فيها القرآن منتشر، فجمعها جامع وربطها بخيط، حتى لا يضيع منها شيء[١١].

٢ ـ عمر بن الخطاب رضي الله عنه

١٣ / ٦٣٤ ـ ٢٣ / ٦٤٤

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى، وينتهي نسبه الى كعب بن لؤي، ويكنى أبا حفص، ويشترك مع الرسول ﷺ في الجد السابع، ولد بمكة قبل حرب الفجار الاعظم باربع سنين[١٢]، رعى الغنم في صغره، ثم احترف التجارة، نشأ نشأة عالية، فصيح اللسان، شديد البأس، عزيز الجانب، وكان في الجاهلية سفيراً لقريش مع القبائل الاخرى.

أسلم وهو في السادسة والعشرين من عمره، وكان لا يخفي اسلامه، مع انه كان من اشد المعارضين للاسلام، بل انه ضرب زوج اخته فاطمة عندما اسلمت وزوجها سعيد بن زيد.

اصبح عمر من اشد المناصرين للرسول ﷺ والاسلام، ولقبه الرسول بالفاروق، لان الله فرق بين الحق والباطل به، وقال عنه الرسول ﷺ لو كان بعدي نبي لكان عمر، وكان عمر بمثابة وزير لابي بكر، فساعده في حروب الردة، وفي جمع القرآن، وفي الفصل في القضايا.

بيعـة عمـر :

عندما احس ابـو بكر يـدنو اجله اراد أن يتم انتخاب خليفة حتى لا يختلف المسلمون في وقت هم احوج الناس الى الوحدة، اذ كانت جيوش المسلمين تحارب الدولتين الاعظم فارس وبيزنطة.

بدأ ابو بكر باجراء استشاراته لاختيار الخليفة، ودعا اليه اهل الحـل والعقد، وكبار الصحابة ليتحسس رغبة المسلمين، فاستدعى عبدالرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وسعيد بن زيد، واسيد بن الحضير، وحصر رغبة الناس في عمر وعلي، الا ان عمر يريد الامر فيرى في طريقه عقبة فيدور اليه، اما الثاني فيرى الاستقامة ولا يبالي بالعقبة تقوم بين يديه فهو بهذا الى الشدة اميل منه الى اللين(١٣).

وعندما انهى ابو بكر مشاوراته، دعا عثمان بن عفان واملى عليه «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد به ابو بكر ابن قحافة خليفة رسول الله ﷺ عند آخر عهده بالدنيا واول عهده بالآخرة، وفي الحال التي يؤمن فيها الكافر ويوقن الفاجر، اني استعملت عليكم عمر بن الخطاب، فان بر وعدل فذلك علمي به، ورأيي فيه، وان جار وبدل فلا علم لي بالغيب، والخير اردت. ولكل امرىء ما اكتسب، وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون» الشعراء ٢٢٧

اخبر ابو بكر الناس بانه اختار عمر خليفة من بعده، فقال الناس «سمعا وطاعة»

ولما ولي عمر الخلافة صعد المنبر، وقال: انما مثل العرب مثل جمل أنف (له حلقة يجرها لاخضاعه) اتبع قائده، فلينتظر قـائده حيث يقـوده، واما أنـا فورب الكعبـة لاحملنهم على الطريق»(١٤).

صفاتـه وعظمتـه :

اجمع المؤرخون على ان عمر بن الخطاب كان من أعظم الساسة، فقد اقام الدولة على اسس متينة، وشيد صرحها عاليا، وقد اتصف عمر بانـه كان شـديدا في الحق،

مجاهراً برايه، مدافعاً عن الاسلام، قاسياً على المشركين، وعندما توفي الرسول ﷺ شهر سيفه وهدد بقتل كل من قال ان محمداً قد مات.

كان عمر حريصا على كرامة المسلمين، يحميهم، وينصفهم من عدوان الولاة، فكان يفتح صدره لاية شكاية في احد عماله. وكان حريصا على اموال المسلمين ومصالحهم، فقد حبس ابا سفيان بن حرب حتى ردت زوجته هند قرضاً اخذته من بيت مال المسلمين، كما كان يدهن ابل الصدقة بالقار حفاظاً عليها.

وكان زاهداً، متواضعاً، متقشفاً رغم ما عرف به من شدة، وكان بسيطا في لباسه، وحدث ان اسر الهرمزان قائد الفرس، فجيء به الى المدينة، وسيق في ابهته الى عمر في المسجد، فتعجب عندما علم ان ذلك الرجل هو الخليفة. وقيل ان قيصراً ارسل رسولا لعمر، فلما دخل المدينة، سأل الناس عن ملكهم، فقالوا مالنا ملك، بل لنا امير، قد خرج الى ظاهر المدينة، فجد في طلبه، فوجده نائما على الارض في الشمس، وقد تصبب العرق من جبينه حتى بل الارض، فدهش رسول قيصر.

وكان عالما بالقرآن شديد التعلق به، ورعاً يسأل عن التصرفات ليدرك حكمتها، فقد سأل الرسول ﷺ عن سبب قبوله صلح الحديبية.

حكم عشر سنوات وستة اشهر وتوفي سنة ٢٣ هـ ، اذ بينما كان يؤم الناس في المسجد طعنه غلام فارسي اسمه فيروز ابو لؤلؤة مدعياً انه لم ينصفه من سيده المغيرة بن شعبة، والحقيقة ان ابا لؤلؤة تآمر على حياة عمر مع الهرمزان الفارسي، وكعب الاحبار اليهودي، وجفينة النصراني انتقاماً منه لانه رفع شأن الاسلام، وقضى على دولة الفرس.

واتفق الجميع على فضل عمر واحقيته بالخلافة، ومع ان البعض تخوف من قسوة عمر، الا أن ابا بكر بين ان عمر انما يقسو للينه، وانه لو تولى لكان موقفه اقرب الى اللين والرحمة.

اعمال عمر بن الخطاب :

يعتبر عمر بن الخطاب واضع اسس النظم الادارية في الدولة الاسلامية، فقد نظم الدولة، واسس ديواني الجند والخراج، كما قسم الدولة الى عدد من الولايات، وتابع سياسة نشر الاسلام والجهاد.

تتمة الفتوحات الاسلامية :

تابع المسلمون فتوحاتهم في مختلف الجبهات ولا سيما :

أ ـ جبهة الفرس: اعاد الفرس تنظيم قواتهم، واعدوا جيشا كبيرا لمواجهة المسلمين، ولما احس المثنى بتفوق قوات الفرس استنجد طلب المدد، ولما ولي عمر الخلافة ارسل نجدة الى العراق، وقد حدثت معارك عدة بين الطرفين ادت الى القضاء على الامبراطورية الفارسية، ومن هذه المعارك.

موقعة الجسر: وقعت سنة ١٣هـ/ ٦٣٤ بعد وصول المدد الاسلامي الى العراق بقيادة ابو عبيد بن عمر الثقفي، وقد حاول المسلمون الالتفاف حول جيش الفرس، ودخول الجسر لمواجهة الفرس، الا ان النصر كان حليف الفرس، واستشهد ابو عبيد، فتراجع المثنى الى الغرب.

معركة البويب: اعاد المثنى بن حارثة تنظيم المسلمين، والتقى والقائد الفارسي مهران على نهر الفرات فانتصر المسلمون انتصاراً باهراً، واخذوا بثأر هزيمتهم في الجسر.

معركة القادسية: سنة ١٥ هـ/٦٣٧م: عهد عمر بن الخطاب الى سعد ابن ابي وقاص باتمام فتح فارس، فوصل القادسية، وكان معه ثمانية الاف مقاتل في حين كان الفرس ثلاثين الفا، ارسل سعد رسوله الى قائد الفرس رستم يدعوه الى الاسلام او دفع الجزية او الاحتكام الى السيف. اغتر رستم بقوته قائلا «والشمس والقمر لا يرتفع الضحى غداً حتى نقتلكم اجمعين» فاجابه المغيرة بن شعبة «لا حول ولا قوة الا بالله وانصرف عنه».

استمرت المعركة ثلاثة ايام انتهت بهزيمة الفرس، ومقتل رستم وعدد كبير من جنوده، وفر عشرات الالاف من الجنود من الفرس.

معركة جلولاء: تبع سعد بن ابي وقاص الفرس الى جلولاء سنة ١٦هـ/٦٣٧م وأوقع بهم، واسر أحدى بنات كسرى، ودخل الاسلام عدد كبير من الفرس، وكتب سعد الى الخليفة عمر يبشره بالفتح، اتخذ سعد الكوفة مقراً للمسلمين وبنى فيها المسجد الجامع.

معركة المدائن: توغل سعد في بلاد العراق، فوصل الى عاصمة الفرس طيسفون، فحاصرها سنة ١٦هـ/٦٣٧م مدة شهرين، واستولى عليها اثر ذلك، واطلق عليها اسم «المدائن»، واتخذها قاعدة للاعمال الحربية.

معركة نهاوند: حاول كسرى الفرس يزدجرد جمع فلول قواته، فبلغت ستين الف، والتقى المسلمين في معركة نهاوند سنة ٢١هـ/٦٤٢، وكان القائد المسلم النعمان بن مقرن، فاستشهد قبل نهاية المعركة، فتولى القيادة حذيفة بن اليمان، وكتب الله النصر للمسلمين، وسميت المعركة فتح الفتوح، وفر يزدجرد الى الحدود الشرقية وقتل في خراسان سنة ٣١ في خلافة عثمان بن عفان.

ب ـ فتح بلاد الشام :

نجح خالد بن الوليد في الوصول الى بلاد الشام وتمكن من فتح بصرى، واتفق القادة المسلمون على ملاقاة العدو البيزنطي في معركة فاصلة في اليرموك.

جمع هرقل قوات قوامها مائة الف بقيادة ماهان الارمني، ودعمها جبلة بن الايهم ملك الغساسنة بستين الف، بينما كان الجيش الاسلامي حوالي ٢٤ الف مقاتلا، وتمركز في الواقوصة. رتب خالد بن الوليد الجيش، فوضع ابا عبيدة في القلب، وعمرو بن العاص على الميمنة، ويزيد بن ابي سفيان على الميسرة، ثم دارت المعركة، وانتهت بانتصار المسلمين، وهرب هرقل الى القسطنطينية، بعد أن ودع سوريا بقوله: «عليك يا سوريا السلام، ونعم البلد».

وبينما كان المسلمون يقاتلون في اليرموك توفي ابو بكر وتولى عمر الخلافة، فأمر بتعيين ابي عبيدة قائدا عاماً بدلا من خالد بن الوليد حتى لا يفتتن الناس بعبقرية خالد العسكرية، ويعتبرونه سبب الانتصارات المختلفة، فانضوى خالد في صفوف الجيش الاسلامي وقال «ما انا الذي أعصى امير المؤمنين».

بعد ذلك استولى قسم من الجيش الاسلامي بقيادة ابي عبيدة وخالد بن الوليد على حمص وحماة وقنسرين واللاذقية وحلب، بعد ان فتحت دمشق، والانتصار في فحل.

ثم انتصر المسلمون عند اجنادين، واخضعوا عسقلان ونابلس ويافا والرملة وغزة وبيروت، ثم اتجه عمرو بن العاص الى بيت المقدس، وحاصرها اربعة اشهر، واخيرا تم الاتفاق على تسليمها الى الخليفة عمر سنة ١٦هـ/٦٣٧م. وحضر عمر الى بيت المقدس وتسلمها، واعطى عهد الامان الى اهلها، وسلمت قيسارية بعد هرب قسطنطين بن هرقل لعمرو بن العاص.

وبذلك انتهى النفوذ البيزنطي في بلاد الشام، وعادت بلاد الشام الى الحظيرة العربية بعد ان روى المسلمون الارض بدماء ٢٥ الف شهيداً في الحرب.

طاعـون عمـواس :

تم فتح بلاد الشام سنة ١٧هـ ثم حدث في العام التالي ان انتشر وباء الطاعون بصورة مريعة في الشام، وعرف هذا الطاعون بطاعون عمواس نسبة الى قرية عمواس، قرب مدينة الرملة. وقد ادى هذا الوباء الى وفـاة ٢٥ الف مسلم[١٥]، وتوفي في هـذا الطاعون بعض كبار الصحابة منهم ابو عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، والفضل بن العباس بن عبدالمطلب، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن ابي سفيان.

وكان عمر بن الخطاب قد هم بدخول دمشق ولكنه عاد الى المدينة عند سماعه بالمرض، لقوله ﷺ «اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد، فلا تقدموا عليه، واذا وقع وانتم فيه فلا تخرجوا منه».

فتـــح الجزيـرة :

بعث ابو عبيدة القائد عياض بن غنم بخمسة الاف مقاتل لفتح الجزيرة، فتوجه الى منطقة الرها فصالحه اهلها سنة ١٨هـ ، ثم فتح نصيبين سنة ١٩هـ/ ٦٣٩م وسنجار وقرى الفرات، وآمد والرقة، وما لبث ان عاد الى حمص لينقل الى الرفيق الاعلى، فقام عمير بن سعد الانصاري باتمام مهمته، ففتح عين الوردة سنة ٢٠هـ/ ٦٤٠م، وفي السنة التالية فتح الموصل.

وهكذا اتصلت الاراضي التي فتحها المسلمون في بلاد الشام مع ما فتحه المسلمون في العراق، وقد فتح المسلمون هذه البلاد بسهولة لان معظم سكانها كانوا من الاراميين الذين كانوا مضطهدين من قبل الكنيسة، فرغبوا في التخلص من حكم الروم.

ج ـ فتح مصر وشمال افريقيا :

اتجه عمر بن الخطاب الى الجابية بعد تسلمه مدينة القدس، وهنـاك حاول عمرو بن العاص اقناع الخليفة في فتـح مصر، فتردد الخليفـة عمر لانتشـار القوات الاسلامية في الشام والجزيرة وفارس، الا انه اذن لعمرو بن العاص بفتح مصر بقوة قوامها اربعة الاف جندي.

استولى عمرو على العريش سنة ١٨هـ /٦٣٨م، ثم فتح الفرما بعد حصار شهرين سنة ١٩هـ/ ٦٤٠م، واستسلمت بعد ذلك بلبيس في الدلتا، وتقدم نحو بابليون، وطلب النجدة لتزايد قوة البيزنطيين، فارسل له الخليفة ٤٠٠٠ مقاتل بقيادة الزبير بن العوام، وكتب الى عمرو بن العاص «امددتك باربعة الاف، فيهم رجال الواحد منهم بالف رجل».

بلغ عدد الجيش الاسلامي عشرة الاف مقاتل في حين كان عدد البيزنطيين ٢٠ الف جندي بيزنطي بالاضافة الى حامية حصن بابليون التي يبلغ عددها خمسة الاف محارب.

واخيرا وقعت المعركة الفاصلة في عين شمس سنة ٢٤هـ/ ٦٤٠م حيث تمزق فيها جيش العدو، وهرب القائد البيزنطي ثيودورس الى الاسكندرية، واعتصم المقوقس في الحصن، ولما طال الحصار الاسلامي، اضطر المقوقس الى مفاوضة المسلمين، وكم كان غيظه عظيما حينما استقبل الوفد المسلم برئاسة عبد حبشي «هو عبادة بن الصامت» واضطر الى قبول دفع الجزية، غير ان هرقل رفض الصلح، فاستمر المسلمون في محاصرة الحصن، الى ان فتحوه بعد حصار سبعة اشهر سنة ٦٤١م.

فتـــح الاسكندريـــة :

اتجه المسلمون شطر الاسكندرية بعد فتح حصن نابليون فحاصروها، فارسل الامبراطور البيزنطي الى عامله المقوقس ليفاوض المسلمين، فعقد صلح الاسكندرسة عام ٢٠هـ/ ٦٤١م وجاء فيه : -

- يدفع الرومان جزية مقدارها ديناران عن كل رجل، وضريبة الخراج على الاراضي.
- تجلوا القوات البيزنطية من الاسكندرية خلال احد عشر شهرا.
- الا يتدخل المسلمون في امور المسلمين، والا يتعرضوا للكنائس، وبقاء اليهود بالاسكندرية.
- ان يوضع لدى المسلمين ١٥٠ جنديا بيزنطيا، و ٥٠ مدنيا الى ان يتم تنفيذ هذه المعاهدة.

وقد ساهم القبط في تخليص مصر من ظلم الرومان، فقدموا المؤن وعلف الحيوانات للمسلمين طيلة الحرب.

فتـح برقـة وافريقيـة :

بادر عمرو بن العاص بفتح برقة وطرابلس تامينا لحدود مصر الغربية من الخطر البيزنطي، ففتح برقة عام ٢٢هـ/ ٦٤٣م، ثم وجه جيشا بقيادة عقبة بن نافع الى الواحات، في حين اندفع عمرو بن العاص بقوة فتحت فزان، ثم سرت، ثم فتح طرابلس ثم واحه ودان سنة ٢٢هـ /٦٤٣م، وأخيرا عاد عمرو بن العاص بعد أن اقام قائده بن نافع على هذه البلاد (برقة)، يدعو الى الاسلام.

٢ - الادارة في عهد عمـــر :

بعد ان اتسعت الدولة الاسلامية بفتح الشام والعراق وفارس ومصر، كان لا بد للخليفة عمر بن الخطاب ان يقوم بتنظيم الدولة في مختلف الميادين، وهو اول من وضع النظام السياسي للدولة، ونظم اداراتها، وكانت سياسته ترمي الى تماسك بلاد العرب، وادخال القبائل العربية بعضها في بعض لتكون امة واحدة، وكانت سياسته ترمي الى عدم اختلاط العرب باهالي البلاد التي فتحوها حتى لا تضيع وحدتهم.

كما أن عمر بن الخطاب لم يسمح بالبقاء في الجزيرة العربية الا لمن يدين بالاسلام، ليجعل الجزيرة العربية وحدة متماسكة في اللغة والدين.

ولقد كان لتنظيمات الخليفة عمر اثر كبير في استقرار الدولة، وتطور نظمها على اسس سليمة، ومن هذه النظم:

أ - الدواويــــــن:

عندما كثرت واردات الدولة، استشار عمر رضي الله عنه في تدوين الديوان، فاشار عليه الوليد بن هشام بن المغيره، جئت من الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا، وجندوا جندا، فدون ديوانا، وجند جندا، فاخذ بقوله، ونظم الديوان، فبدأ بتسجيل بني هاشم في الديوان ثم الاقرب فالاقرب برسول ﷺ ، ثم انتهوا الى الانصار فبدأ برهط سعد بن معاذ، ثم الاقرب فالاقرب لسعد. وقد استخدم عمر الكتاب في الدواوين فرتبوا الناس طبقات مبتدئين بالعباس عم النبي ﷺ ثم بني هاشم.

وانشأ عمر ديوان الجند لكتابه اسماء الجند، وما يخص كل منهم من العطاء، وديوان الخراج لتدوين ما يرد الى بيت المال، وما يفرض لكل مسلم من العطاء.

ب - بيـت المــال :

انشأ عمر بيتا للمال قصد به حفظ الاموال الفائضة عن حاجة الجند، وتطور نظام بيت المال، وتعددت موارده، وكانت تعتمد على الزكاة، والخراج والجزية والعشور. وقد وضع الخليفة عمر نظام الضرائب فجعل على الذميين الجزية، وجعل على الارض ضريبة سماها الخراج، وابقى الارض بايدي اصحابها يفلحونها، وكانت تلك الضريبة كأجرة للارض.

واقر عمر رضي الله عنه النظم المالية الساسانية في العراق والنظم البيزنطية في الشام ومصر، وابقى عمر على نظام العملات المتداولة في البلاد المفتوحة بنقوشها البهلوية

واليونانية، لأن العرب كانوا يتعاملون بها في تجارتهم مع الفرس والبيزنطيين. ولكن عمر حرص على اضافة بعض النقوش مثل «الحمد لله، محمد رسـول الله، ووحد الدرهم فجعله ستة دوانق.

ج - التنظيمات العسكريـة:

قصر الخليفة عمر الجندية على العرب وحدهم دون اهل الذمة، فمنع المحاربين العرب من امتلاك الاراضي في المناطق المفتوحة خشية ان يفتر حماسهم الحربي، فاقامهم في معسكرات منعزلة عن العمران مستهدفا عدم اختلاطهم بالشعوب الجديدة.

وعمد الخليفة عمر الى تاسيس الامصار في الاراضي المفتوحة، فاقـام القواعد الحربية، فانشأ مدينة البصرة، وقد اختطها عتبة بن مروان سنة ١٤هـ، وسميت بهذا الاسم لكثرة حجارتها السود والحصى. كما أمر الخليفة عمر القائد سعد بن ابي وقاص بان يتخذ للمسلمين دار هجرة، وان لا يجعل بينه وبينهم بحرا، فاختط مدينة الكوفة سنة ١٧هـ، وسميت الكوفة لاختلاط الحصباء والرمل بها، أو من تكوف اي تكوم الرمـل. واسس عمرو بن العاص سنة ٢١ الفسطاط في مكان حصين بين جبل المقطم وحصن بابليون.

كما اهتم الخليفة بتحصين السواحل، واقامة الحرس على موانئها، وقام معاوية ببناء اسطول اسلامي ايام الخليفة عمر، ولكن الخليفة لم يأذن لمعاوية بغزو جزيـرة ارواد.

د - الامارة عـلى البلدان :

قسم الخليفة عمر البلاد الى اقسام ادارية كبيرة عندما اتسعت الدولة ليسهل حكمها، والاشراف على موارد ثروتها، فكانت الولايات التالية: ولاية الاهواز والبحرين، ولاية سجستان ومكران وكرمان، ولاية طبرستان، خراسان، وجعل بلاد فـارس ثلاث ولايات، وبلاد العراق الى الكوفة، والبصرة وقسم بلاد الشام الى ولايتي حمص، ودمشق، وجعل فلسطين ولاية قائمة بذاتها، اما افريقيا فقسمت الى ولايات مصر العليا ومصر السفلى، وغرب مصر وصحراء ليبيا.

وعين عمر على هذه الولايات ولاة يستمدون سلطتهم من الخليفة، وكان عمر يسأل الرعية عن احوال امرائهم، ويحاسبهم اذا اخطأوا، وكان الوالي يقوم بامامة النـاس، وقيادة الجند، ويشرف على جمع المال.

ويعتبر عمر اول من وضع نظام الحسبه، فكان يقوم باعمال المحتسب دون ان يسمى بهذا الاسم، كما ادخل نظام العسس في الليل لحفظ الامن، والقبض على المفسدين والجباة، كما فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية باسناد منصب القضاء الى رجال يختارون من افضل الناس، وكان القاضي مستقلا عن الوالي، يؤم الناس ويقيم العدل بينهم.

واستعمل الخليفة عمر التاريخ الهجري في الدولة، كما اجلى اهل الكتاب عن بلاد العرب وذلك كي يجعل بلاد العرب وهي مهد الاسلام، خالصة للمسلمين.

٣ ـ عثمان بن عفان رضي الله عنه :

عثمان بن عفان بن ابي العاص بن اميه، لقب بذي النورين لأنه تزوج رقية بنت رسول الله ﷺ ثم تزوج اختها ام كلثوم بعد وفاة الأولى، كان احد المبشرين بالجنة، تولى الخلافة وهو في السبعين من عمره وكان شديد الايمان بصدق الرسالة المحمدية، كان طيب القلب، خالص العقيدة سخيا، بذل معظم ماله في خدمة الاسلام حكم من ٢٣هـ/ ٦٤٤م ـ ٣٥هـ/ ٦٥٦م.

خـــلافة عثمـــان :

خشي المسلمون سوء العاقبة ان فارق عمر بن الخطاب رضي الله عنه الحياة دون ان يعهد بالخلافة لاحد، فالح الناس عليه ان يعهد لاحد الناس.

اختار الخليفة عمر ستة من كبار الصحابة رضوان الله عليهم، وهم علي بن ابي طالب، وعثمان بن ابي عفان، عبد الرحمن بن عوف، سعد بن ابي وقاص، الزبير بن العوامل، طلحه بن عبيد الله، ودعاهم اليه الا طلحه فقد كان غائبا، ثم خاطبهم قائلا[١٧] «اني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس، وقادتهم، ولا يكون هذا الامر الا فيكم، وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض، اني لا اخاف الناس عليكم ان استقمتم، ولكني اخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس، فانهضوا الى حجرة عائشة فتشاوروا، واختاروا رجلا منكم.. فاذا مت فتشاوروا ثلاثة ايام، ويصلي صهيب بالناس، ولا يأتين اليوم الرابع الا وعليكم امير منكم، ويحضر عبد الله بن عمر مشيرا ولا شيء له من الامر». وقال للمقداد بن الاسود «اذا وضعتموني في حفرتي، فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلا منهم، وقم على رؤوسهم، فان اجتمع خمسة ورضوا رجلا وابى واحد فاشدخ رأسه بالسيف، وان اتفق اربعة منهم وابى اثنان فاضرب رأسيهما، فان رضي ثلاثة رجلا منهم

فقط فحكموا عبد الله بن عمر، فان لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن ابن عون واقتل الباقين.

اجتمع الرهط بعد وفاة عمر بن الخطاب، وطال الجدال، فاخرج عبد الرحمن بن عوف نفسه من حق تولي الخلافة، واستشار الناس، فوجدهم يجمعون على اثنين علي بن ابي طالب، وعثمان ابن عفان، وكان الاكثرية راغبين بعثمان لما يعرفون من لينه ورحمته[١٨].

دعا عبد الرحمن بن عوف الناس الى المسجد لاختيار الخليفة، ثم قال لعلي «عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده، فأجاب علي «ارجو ان افعل واعمل بمبلغ علمي وطاقتي»، ثم ابلغ عبدالرحمن عثمان ما قاله لعلي، فقال عثمان «نعم»، فاعلن عبد الرحمن مبايعته لعثمان، وبايعه الناس بما فيهم علي بن ابي طالب، وهكذا فقد استشار عبد الرحمن ورشح، ثم اقر اهل الحل والعقد والمسلمون بالبيعة العامة من اختاره للخلافة.

الشبهة الواردة حول ذلك وردها :

يدعي بعض المؤرخين ان عليا احتج على عبد الرحمن ابن عوف، واتهمه بالتحيز لعثمان، ويفسرون ذلك التحيز التنازع القديم الذي كان قائما في الجاهلية بين بني امية وبني هاشم، واتهم علي عبد الرحمن بن عوف بانه ما حابى عثمان الا لكي يخلفه من بعده، ثم اعلن احتجاجه بقول: «حبوته حبو دهر، ليس هذا اول يوم تظاهرتم فيه علينا، والله ما وليت عثمان الا ليرد الامر اليك، والله كل يوم وهو في شان».

واعلن بعض الصحابة سخطهم على اقصاء علي من الخلافة[١٩]، منهم المقداد بن الاسود.

والواقع ان التنافس قد ظهر بين عثمان وعلي لأن الخلافة انحصرت فيهما تقريبا، وكاد الامر يتم لعلي، لولا انه لم يتمشى مع عبد الرحمن بن عوف بان يسير على ما سنه ابو بكر وعمر، واراد ان يعمل بمبلغ علمه، فصرفت عنه الى عثمان الذي رضي عن طيب خاطر أن يتبع سنة من كان قبله.

ومن الواضح ان القوم ايدوا عثمان لعدة اسباب منها :

- سابقته في الاسلام بتهجيزة جيش العُسره، وشراء بئر رومية للمسلمين.
- اصهاره النبي ﷺ مرتين في ابنتيه رقية ثم ام كلثوم.

- هجرته مع المهاجرين الاولين الى الحبشه.
- الخوف من احتمال بقاء الخلافة وراثية في بني هاشم، وهو امر تجنبه كل من ابي بكر وعمر.
- كبر سنه.

ولا شك ان مبادرة علي كرم الله وجهه بمبايعة عثمان، اذ ان عليا كان اول من بايع عثمان بالخلافة من اهل الشورى، وتستبعد ما تناقلته روايات المستشرقين التي حاولت ابراز احتجاج علي على انتخاب عثمان(٢٠).

ومن المؤكد أن عبد الرحمن بن عوف لم يحبو عثمان ذلك انه أحد المبشرين بالجنة، ولا يعقل ان يخطيء، ولكن كثيرا من المستشرقين يحاولون الدس في التاريخ الاسلامي، وتشويهه، لذلك يجب علينا كشف الدس والتزوير الذي يقوم به الغربيون لتاريخنا.

اعمـــال عثمـان :

١ - الفتـــح الاســـلامي

استمرت الفتوحات الاسلامية في مختلف الجبهات :

أ - الجبهة الشرقية: قضى عبدالله بن عامر والي البصره على المقاومة الفارسية، واحتل مدينة أصطخر سنة ٦٥٠م، ثم فتح المسلمون ساحل بلوخستان، ومكران، كما فتحوا بلخ وهراة، وكابل، وغزنه، فوصلوا الى نهر جيحون شمالاً، وحدود الهند شرقاً. وفي سنة ٦٥٢م اغتال احد الفرس الامبراطور يزدجرد في مدينة مرو، فانتهت بمقتله الدولة الفارسية.

ب - الجبهة الشمالية: فتح المسلمون ارمينيا واذربيجان وجورجيا، وكان حبيب بن مسلم الفهري يقود قسماً من الجيش، في حين يقود القسم الآخر زوجته.

جـ - الجبهة الغربية: تمكن عبدالله بن ابي السرح من احتلال سبيطلة بالقرب من قرطاجنة سنة ٢٧هـ/ ٦٤٨م، وفرض الجزية على اهلها، وبذلك وصلت حدود الدولة الاسلامية الى تونس.

د - الجبهة الجنوبية: فتح المسلمون جنوب مصر، ثم عقدوا صلحاً مع ملك بلاد النوبة، نصت على ان تصدر مصر اليها الحبوب والعدس(٢١).

هـ - الجبهة البحرية: بنى المسلمون اسطولاً حربياً قوياً، فقد قام والي الشام معاوية

ببناء اسطول الشام، في حين انشأ عبدالله بن ابي السرح اسطول مصر، لصد غارات الاسطول البيزنطي على مصر والشام.

تمكن الاسطول الاسلامي من فتح جزيرة قبرص ٢٨هـ/ ٦٤٩م وجزيرة ارواد، وفي سنة ٣٤هـ/ سنة ٦٥٥م تمكن الاسطول الاسلامي من هزيمة الاسطول البيزنطي في معركة ذات الصواري، قرب الاسكندرية، وانتـزع المسلمون السيادة البحرية من البيزنطيين، وكانت سفن البيزنطيين تقارب ٥٠٠ سفينة مع ان السفن الاسلامية لم تزد على ٢٠٠ سفينة. وكان يقودها عبدالله بن ابي السرح، وكان قائد البيزنطيين قسطنطين الثاني ابن هرقل.

٢ ـ نسـخ القـران الـكريم

جمع القرآن الكريم في عهد الخليفة ابي بكر، وحفظت الرقاع لديه، ثم حفظت عند الخليفة عمر، ولما مات حفظت عند ابنته حفصة بنت عمر، وفي عهد الخليفة عثمان لاحظ حذيفة بن اليمان اختلاف المسلمين في قراءة القران، فاشار على الخليفة عثمان بتدوين مصحف يقرأه المسلمين.

قرر عثمان رضي الله نسخ المصحف تلافياً لاختلاف الناس في قراءة القرآن، وقد شجعه على ذلك الاسباب التالية[٢٢]:

- تفرق الصحابة في الامصار اثناء الفتوحات الاسلامية، فكان اهل كل بلد يأخذون بقراءة من اشتهر بالصحابة، فاخذ اهل الشام بقراءة ابن ابي كعب، واهل الكوفة بقراءة عبدالله بن مسعود، وهكذا.....
- اقتراح حذيفة بن اليمان بتدوين مصحف لقراءة المسلمين لاختلاف قراءاتهم.
- اختلاف المعلمين القراء في تدريس التلاميذ، فكان كل منهم يقريء على الحرف الذي يريد.
- لم يلزم ابو بكر احداً بنسخ القرآن الذي جمعه، فاحتفظ بعض الصحابة بمصاحفهم الخاصة بهم، ومن اشهر هذه المصاحف، مصحف ابن ابي كعب، ومصحف عبدالله بن مسعود، ومصحف ابي موسى الاشعري، ومصحف المقداد بن عمرو، ووجود هذه المصاحف ربما يؤدي الى الاختلاف، لأن كل منهم رتب مصحفه كما يريد.

كلف الخليفة عثمان رضي الله عنه زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدا الرحمن بن الحارث ان ينسخوا المصحف «الامام» وهي النسخة التي

احتفظ بها عثمان عنده، وامرهم ان ينسخوا عدة نسخ من المصحف الامام، فبلغت خمس نسخ، ارسل نسخة الى مكة، والى الشام نسخة، والى الكوفة نسخة ثالثة، والى البصرة نسخة، وابقى نسخة في المدينة، واحتفظ هو بالمصحف الامام، وانفذ الى الاقطار الاسلامية حُفاظاً يثق بهم لتدريس الناس القرآن، وتوحيد قراءاتهم.

امر عثمان بحرق كل الآثار التي فيها القرآن، فالتزم الناس بامره، واستحسنوه. اما مصحف حفصة فقد اعيد اليها، وبقي عندها الى ان توفيت فاخذ مروان بن الحكم المصحف واحرقه. وبقيت المصاحف العثمانية متداولة، ينسخ منها الناس، ويتداولونها.

كانت كتابة القرآن غير منقوطة الحروف، ولا مشكولة، فلما اتسعت بلاد المسلمين بالفتوح، وكثر الاعاجم، وبدأ اللحن يظهر في قراءة بعضهم، سرعان ما اوجد العلماء الشكل والحركات والتنقيط التي تبعد اسباب اللحن والتحريف عن القرآن.

الفتنة التي ادت الى قتل عثمان :

تغيرت احوال الدولة الاسلامية، فقد اتسعت املاكها، وكثرت اموالها، وزادت مطامع رجالها، مما مهد الى قيام فتنة داخلية ادت الى استشهاد عثمان رضي الله عنه، ويمكن ارجاع هذه الفتنة الى الاسباب التالية :

أ ـ سياسة التساهل واللين :

حرص عمر بن الخطاب ان يلتزم العرب الخشونة والزهد والتقشف خشية ان تجرفهم حياة الترف التي كانت في المدن المفتوحة، ومنع الصحابة من امتلاك الضياع خارج الحجاز، ولكن عثمان رضي الله عنه سمح لهم بالخروج الى البلدان المجاورة، فامتلكوا الضياع، وظهرت طبقة اصحاب الثروات، وانشأوا طبقة ارستقراطية دينية تمتاز بالسبق الى الاسلام، وصحبه الرسول ﷺ، انيقة في ماكلها وملبسها، وشيدوا القصور السامقة، في حين كان هناك طبقة فقيرة معدمة من المحاربين استقرت في الامصار.

ب ـ اختيار الولاة :

استاء الناس لعزل العمال القدامى الذين كانوا يتولون الامصار ايام عمر بن الخطاب، وتولية آخرين اساءوا السيرة وتجاوزوا الحدود، فعزل الخليفة عثمان أبا موسى الاشعري عن ولاية البصرة وعيّن خاله عبدالله بن عامر، وعزل سعد بن ابي وقاص عن الكوفة وعين مكانه الوليد بن عقبه، وعزل عمرو بن العاص عن مصر وولى بدله اخاه في

الرضاعة عبدالله بن ابي السرح. وآوى الحكم بن العاص طريد الرسول ﷺ وابنه مروان، وعين مروان أمين سره، وسلمه خاتم الخليفة.

وكان الوليد بن عقبة من اهل النار كما ذكر الرسول، وكان يصلي وهو ثمل، فلما علم عثمان بذلك عزله وعين بعده سعيد بن العاص فاساء السير.

جـ ـ حركة ابن سبأ ضد عثمان :

كان عبدالله بن سبأ يهودياً، تظاهر باعتناق الاسلام، وأخذ ينفث سموم الفتنة، ظهر اولاً في البصرة، ودعا الى ان عليا احق الناس بالخلافة، وان عثمان اغتصب الخلافة واختلق الحديث «خلق الله الف نبي والف وصي، فكان محمد ﷺ آخر الانبياء، وعلي آخر الاوصياء» فنفاه والي البصرة الى الشام، فاستمر في دعوته، ثم اتجه الى مصر، ودعا الى خلع عثمان ورد الحق الى صاحبه علي كرم الله وجهه، فاستمال كثيراً من الناس، منهم ابو ذر الغفار الذي اخذ ينادي بالعطف على الفقراء، واعطائهم نصيباً من اموال الاغنياء، وقد انضم محمد بن ابي حذيفة، ومحمد بن ابي بكر الى حركة ابن سبأ، فادى ذلك الى اذكاء نيران السخط على سياسة عثمان وعماله.

د ـ تصرفات عثمان الشخصية :

اتهم بعض المؤرخين الخليفة عثمان رضي الله عنه بأنه لم يقتد بابي بكر وعمر في سياستهما التقشفية، فشد اسنانه بالذهب[٢٣] وكان يأكل الين الطعام، وامر بستمائة الف درهم لعبد الله بن خالد بن أسيد عندما تزوج ابنته، وكتب لابن عمه مروان بن الحكم وزوج ابنته بخُمس غنائم افريقيا التي غنمها المسلمون في سبيطلة، كما اتهم عثمان بانه كان يحابي اقاربه، ويتحاطف معهم، وانه امر بضرب عمار بن ياسر عندما انتقد سياسته، كما اساء الى عبدالله بن مسعود وضابي بن الحارث البرجمي.

لقد أدّت الأسباب السابقة الى ازدياد روح عداء المسلمين له، وبخاصة لغضب كثير من الصحابة على سياسته، واشتطاط الولاة في جباية الاموال واغداقها على اقاربه، واسراف ولاته في سفك الدماء على حد قول بعض المؤرخين[٢٤].

وفي سنة ٣٥هـ خرجت جماعات من الثوار عليه من مصر والكوفة والبصرة الى المدينة لتطالبه بالاصلاح، وعزل عبدالله بن سعد ووضع محمد بن ابي بكر على مصر، وعاد وفد مصر بعد موافقة الخليفة على ذلك، وفي الطريق لحقهم غلام يحمل رسالة الى عبدالله بن سعد فيه «اذا اتاك محمد بن ابي بكر وفلان وفلان فاقتلهم، وابطل كتابهم،

واقر على عملك حتى يأتيك رايي». عاد المصريون الى المدينة، وعرضوا الرسالة على عثمان رضي الله عنه، فانكرها، فطلبوا منه خلع نفسه لضعفه.

احاط الثوار ببيت الخليفة، فاستنجد بولاته، فخرج حشد كبير من اهل البصرة بقيادة مجاشع بن مسعود لنجدة الخليفة، وفرقة شامية بقيادة حبيب بن مسلمة، وفرقة من مصر بقيادة معاوية بن حديج، ولكن النجدة لم تصل في الوقت المناسب.

استدعى الخليفة علياً، وطلب حمايته من جمهور الامصار فرد عليه علي بانه سبق ان اعطاهم عثمان عهداً ثم نكث به، ومع ذلك خرج علي الى الناس وطلب منهم امهال عثمان ثلاثة ايام حتى يحقق مطالبهم، فكف الناس عنه، ولما انتهى الاجل تضايق الناس، لعدم انجاز مطالبهم.

هاجم الناس بيت الخليفة، ولم ينجح المدافعون عن عثمان بحمايته، فاقتحم الثوار بيت عثمان، وقتلوه وهو يقرأ القرآن، وقطعت أصابع زوجته نائلة وهي تدافع عنه، كما أصيب الحسن بن علي بسهم وهو يدافع عن الخليفة، وخضب الدم وجهه.

ولما بلغ الخبر علياً وطلحة والزبير وسعداً وكبار الصحابة دخلوا عليه يبكون، وغشي على علي، ولما أفاق عنّف ولديه لتفريطهما في الدفاع عن عثمان، وقيل لطم الحسن، وبقي عثمان ثلاثة ايام لا يدفن، ثم دفنه علي وطلحة وبعض الصحابة.

٤ ـ علي بن ابي طالب كرّم الله وجهه :

ولد قبل البعث بعشر سنين، وهو ابن ابي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، آمن بالرسالة المحمدية وهو في الثالثة عشرة.

بات في موضع الرسول ﷺ في الليلة التي هاجر فيها النبي عليه السلام من مكة الى يثرب، ولم يهاجر علي الا بعد ان أدّى الودائع لاهلها التي كانت عند الرسول، تزوج فاطمة بنت الرسول في السنة الثانية للهجرة، فاعقب منها الحسن والحسين.

كان ابو بكر يستشيره في الامور الهامة، كما كان عمر يعمل بمشورته، وكذلك عثمان في صدر خلافته.

كان يتحرى العدل ومصلحة المسلمين، وكان حريصاً على اموالهم، فقيهاً في الدين، فصيحاً ضرب بفصاحته المثل.

توليه الخلافة :

تولى الخلافة ٣٥هـ/٦٥٦م ـ ٤٠هـ/ ٦٦١م.

اصبح علي كرم الله وجهه اصلح شخص للخلافة، فقد كان يوم الناس اثناء حصار عثمان، وتولى امارة الحج في تلك السنة.

كان لا بد للمسلمين من اختيار خلف لعثمان، فأتوا علياً في داره، ودعوه ليتلقى بيعتهم، فأبى أن يبايعهم حتى يتم الامر بطريق الشورى، فانصرف القوم، وهم يحسون بخطورة الموقف، فالدولة بدون خليفة، وظلت الفتنة منتشرة في انحاء البلاد، ولكنهم لم يلبثوا ان عادوا الى علي، ومارس الاشتر النخعي الضغط على علي، ولم يزل به يكلمه، ويخوفه عواقب الفتنة حتى قبل علي بيعته، ثم بايعه طلحه والزبير وعامة الناس.

ومع ان مبايعة علي تمت في المسجد، الا انها لم تكن اجماعية، اذ تخلف عن البيعة سعد بن ابي وقاص، وعبدالله بن عمر والمغيرة بن شعبه، وعائشة ومعاوية بن ابي سفيان وبني امية.

محاولات الاصلاح :

حاول علي اصلاح المفاسد التي وقعت زمن الخليفة عثمان، وبدأ بعزل الولاة الذين عينهم، فعين قيس بن سعد على مصر بدل عبدالله بن ابي السرح، وعبيد الله بن العباس على اليمن، وسهل بن حنيف على الشام بدل معاوية، وعمارة بن شهاب، وعثمان بن حنيف الذي عاد من الطريق لان معاوية رفض امر العزل. ويبدو ان علياً تسرع في عزل الولاة قبل ان تستقر أحوال البلاد، وتتم له البيعة، فاتهمه معاوية بعدم الضرب على أيدي العابثين الذين قتلوا الخليفة السابق، وطالب بدم عثمان ومعاقبة الجناة. ولم يكن معاوية حريصاً على دم عثمان، بل خلق المشاكل لعلي بن ابي طالب[٢٥].

استمرار الفتنة الداخلية

حاول الولاة المعزولون استغلال مقتل عثمان لصالحهم، فبدأوا ينظمون صفوفهم لمقاومة علي، كما ان طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام نقضا بيعة علي، واتفقا مع السيدة عائشة الخروج على علي، واتجه الثلاثة من مكة الى البصرة يحيطهم ٦٠٠ لأجل، وحاولوا استمالة عبدالله بن عمر الا انه حاول ان يثنيهم عن خروجهم، ونصحهم العودة قائلاً «ان بيت عائشة خير لها من هو دجها، وان المدينة خير لكما من البصرة والذل خير

لكما من السيف، ولن يقاتل علياً الا من كان خيراً منه... كما أن السيدة عائشة لم تقبل نصيحة ام سلمة زوج الرسول ﷺ.

عمد علي الى اقناع طلحة والزبير بالحجة والبرهان وكاد ينجح في سياسته، ولكن السبأية خشوا اتفاق الطرفين، فانسلوا ليلاً وهاجموا جيش عائشة، فقامت حرب طاحنة سنة ٣٦هـ/ ٦٥٧م اودت بحياة عشرة الاف، واستمرت سبعة ايام ولم تنته الا بعد ما عقر الجمل الذي تركبه عائشة رضي الله عنها، وقتل طلحة والزبير، واعيدت عائشة الى مكة، وسارت الاحوال في مجراها الطبيعي، وقد سميت هذه المعركة بمعركة الجمل لان عائشة كانت تركب جملاً.

الاصطدام بين علي ومعاوية :

أ ـ معركة صفين

ارسل علي بن ابي طالب الى معاوية كتاباً يدعوه الى مبايعته، ولكن معاوية اجابه بكتاب عنوانه من معاوية الى علي، وبداخله «بسم الله الرحمن الرحيم». ثم ارسل علي رسالة اخرى الى معاوية يطلب البيعة، ولكن معاوية ماطل بالاجابة.

سار علي ومعه ٩٠ الف الى صفين، وكان جيش معاوية ٨٠ الف، ومرة ثانية دعا علي معاوية الى توحيد الكلمة، ولكن دون جدوى، فبدأت وقعة صفين، ولما احس معاوية بالهزيمة رفع المصاحف على اسنة الرماح طالباً تحكيم القرآن، وشعر علي بان هذا العمل هو خدعة، ولكن اصحابه اجبروه على قبول التحكيم.

ب ـ التحكيم :

اتفق الطرفان على تحكيم كتاب الله بينهما، فاختار معاوية عمرو بن العاص، في حين اختار اهل العراق ابا موسى الاشعري رغم انف علي، وانعقدت محكمة التحكيم في «دومة الجندل» الواقعة على الطريق بين دمشق والمدينة واتفق الطرفان على خلع معاوية وعلي وترك الامر شورى للمسلمين، قال ابو موسى الاشعري «لقد نظرنا في الامر، واتفقنا على خلع علي ومعاوية» فقام عمرو بن العاص وقال أنا أخلع علياً، واثبت معاوية فإنه ولي عثمان والمطالب بدمه واحق الناس بمقامه» ما زاد الموقف سوءاً لخداع عمرو بن العاص، ولكن الموقف اصبح لصالح معاوية اذ سُلم عليه بالخلافة، في حين انقسم جيش علي وتفرق شيعاً، وادى الى ظهور الخوارج.

الخوارج في عهد علي

عاد علي الى العراق انتظاراً لقرار الحكمين، فضرج عليه قسم من المقاتلين، واعتبروا قبوله التحكيم كفراً، وطلبوا ممن قبل التحكيم ان يعترف بالكفر ويتوب حتى من علي كرم الله وجهه، فرفض ذلك علي، اتجه الخوارج الى النهروان وهي قناة تصب في دجلة قرب مدينة بغداد، واخذوا يعيثون فساداً في البلاد، فتصدى لهم علي بعد ان فشل في اقناعهم الانضمام اليه ثانية، وهزمهم هزيمة منكرة سنة ٦٥٨ وقتل قسماً كبيراً منهم، وتفرق الباقون.

اصبح موقف علي ضعيفاً، وتركز على مقاومة الخوارج.

فتح معاوية مصر

اغتنم معاوية انشغال علي بمحاربة الخوارج فارسل جيشاً من ستة الاف مقاتل بقيادة عمر بن العاص لفتح مصر، تمكن من هزيمة الوالي محمد بن ابي بكر، وضم مصر الى املاك معاوية.

فتح الحجاز واليمن

ارسل معاوية القائد سر بن ارطأة على رأس ثلاثة الاف الى مكة والحجاز، فاخذ ببيعة اهلها، ثم سار الى اليمن واستولى عليها بعد استشهاد علي.

بعد ان قضى علي على الخوارج، اخذ يستعد لمهاجمة الشام، الا ان الخوارج دبروا مؤامرة لقتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص باعتبارهم سبب انقسام المسلمين، فقام عبدالرحمن بن ملجم بقتل علي سنة ٤٠هـ/ ٦٦١م اثناء ذهابه لصلاة الصبح في مسجد الكوفة. وفشل البرك بن عبدالله في قتل معاوية، كما فشل عمرو ابن بكر في قتل عمرو بن العاص.

وبوفاة علي انتهى عصر الخلفاء الراشدين، وقامت الخلافة الاموية.

الحسن بن علـــي:

بعد مقتل علي خلفه ابنه الحسن، وظل في الخلافة مدة لا تزيد عن ستة أشهر، حتى ان كثيرا من المؤرخين لا يعده من الخلفاء.

بويع الحسن بالخلافة بعد مقتل ابيه بيومين، واخذ يعد جيشا كبيرا لمحاربة معاوية بقيادة قيس بن سعد، ولكنه سرعان ما عدل عن ذلك لعدم اخلاص اهل الكوفة، اذ

انتشرت الفوضى في الجيش ونهب الجنود سرادق الحسن بعد سماعهم وفاة قائدهم قيس بن سعد.

كتب الحسن الى معاوية يعرض عليه التنازل له عن الخلافة شريطة ان يكون ولي عهده، وان يمتنع عن سب ابيه على المنابر، وان يخصص له راتبا يكفيه واهله. وقد تم الاتفاق، ودخل معاوية الكوفة مع الحسن، سنة ٤١/ ٦٦١ حتى بويع بالخلافة، ولذلك سمي هذا العام «عام الجماعة» لاجتماع كلمة المسلمين على شخص واحد، هو معاوية.

ذهب الحسن الى المدينة، واقام فيها، الا انه توفي بعد ذلك، ويقال انه مات مسموما من قبل زوجته، باتفاق مع معاوية على أن يزوجها من ابنه يزيد، ويعطيها مئة الف درهم، وقد دفع لها المبلغ لكنه لم يزوجها ليزيد.

ويعلل المؤرخون اسباب تنازل الحسن بما يلي[٣٦]

- كان الحسن ينفر من الحرب ويشفق على المسلمين من الفتن الدامية، وصادقا في حقن دماء المسلمين.
- لم يعد الحسن يثق باهل الكوفة بعد خروجهم على ابيه في موقفه صفين، وبعد نهبهم سرادقه.
- اقتناع الحسن بعقم اي محاولة للتغلب على اهل الشام لتلاحمهم، وتضامنهم.

الحسين بن علي:

اخذ معاوية البيعة لابنه يزيد خوفا من الفوضى، الا ان عبد الله بن الزبير، والحسين بن علي بايعا يزيد مكرهين، وعندما تولى يزيد بن معاوية الخلافة سنة ٦٠/ ٦٨٠ كان اهل الحجاز والعراق غير راغبين في خلافته لسوء سيرته، وانغماسه في اللهو، وميله للخمر، والموسيقى.

اتفق الشيعة في الكوفة على مبايعة الحسين بن علي، وارسلوا وفدا اليه لاقناعه القدوم الى الكوفة، فبعث الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل الى الكوفة لأخذ البيعة له، وسرعان ما انتشرت دعوة الحسين، وايده معظم سكان الكوفة، فعين يزيد بن معاوية عبيد الله بن زياد على الكوفة، فاستطاع ان يقتل مسلم بن عقيل وان يشل حركته.

خرج الحسين من مكة الى الكوفة سنة ٦١/ ٦٨١ ومعه مئة راجل و٤٥ فارسا. وفي الطريق قابله الفرزدق الشاعر، واعلمه بمقتل مسلم، ونصحه بالعودة قائلا له: قلوبهم

معك وسيوفهم مع بني امية ،ولكنه استمر في سيره، والتقى مع جيش الامويين بقيادة عمر بن سعد بن ابي وقاص في كربلاء، فعرض الحسين العودة الى المدينة، او ان يؤخذ الى الخليفة يزيد، ولكن عمر بن سعد رفض، والتحم الطرفان وانتهت المعركة بمقتل الحسين، وكان فيه ٨٣ طعنة و٤٤ ضربة، وقتل صحبه يوم عاشوراء في العاشر من محرم سنة ٦١ هـ/ ٦٨١، واحرق منامه على من فيه من النساء، ورشقوهن بالنبل والحجارة. وقد جرت العادة عند الشيعة على الاحتفال بذكرى مقتل الحسين باقامة المآتم حتى يومنا هذا احياء لهذا اليوم.

وقيل ان عدد القتلى ٧٢ رجلا اجتزت رؤوسهم وحملت على اطراف الرماح، وارسل الرؤوس والسبايا الى يزيد في دمشق، فاعاد النساء، وامر ابن زياد ان يطاف برأس الحسين في الكوفة وينادي: «مات الكذاب بن الكذاب».

تألم الناس لمقتل الحسين بن علي، واشعلت الحماس للحملة الشيعية في نفوس الناس ولا سيما الفرس، وصمموا على الثار للحسين، فساهموا في قيام الدولة العباسية[٢٧] واصبحت التربة التي قتل فيها الحسين مقدسة عند الشيعة كماء زمزم، حتى ان بعضهم يأكلها، وان حرم بعض ائمة الشيعة ذلك.

هوامش الفصل الاول

١ ـ سورة التوبة، الآية ٤٠.

٢ ـ تاريخ الطبري، ج٣، ص ٩١٢.

٣ ـ عبد الكريم عثمان، معالم الثقافة الاسلامية، ص ١٩٤.

٤ ـ د. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربيةز ص ١٦٢.

٥ ـ د. عمر فروخ، العرب والاسلام، ص ٥٧.

٦ ـ تاريخ الطبري، ج٣، ص ٢٥٥.

٧ ـ ابن الاثير، الكامل، ٢/ ٣٤٤.

٨ ـ د. علي حسن ابراهيم، التاريخ الاسلامي العام، ص ٢١٩.

٩ ـ د. عمر فروخ، المرجع السابق، ص ٥٩.

١٠ ـ حيدر قفة، مع القرآن الكريم، ص ٦٩.

١١ ـ جلال الدين السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ج١، ص٦٠.

١٢ ـ د. علي ابراهيم حسن، المرجع السابق، ص ١٢٧.

١٣ ـ د. حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام، ج١، ص ٢١١.

١٤ ـ ابن الاثير، المرجع السابق، ص ٢٠٨.

١٥ ـ البلاذري، فتوح البلدان، ج١، ص ١٦٩.

١٦ ـ د. عمر فروخ، المرجع السابق، ص ٣٩.

١٧ ـ حسن ابراهيم وآخر، النظم الاسلامية، ص ٣٩.

١٨ ـ عبد الكريم عثمان، المرجع السابق، ص ٢٠٠.

١٩ ـ د. السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٥٤٩.

٢٠ ـ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٧، ص ١٤٧.

٢١ ـ د. علي ابراهيم، المرجع السابق، ص ٢٤٨.

٢٢ ـ حيدر قفة، المرجع السابق، ص ٧٤.

٢٣ ـ ابن الاثير، اسد الغابة، ج٢، ص ٢٨٣.

٢٤ ـ علي ابراهيم حسن، المرجع السابق، ص ٢٥٣.

٢٥ ـ د. عمر فروخ، المرجع السابق، ص ٨٢.

٢٦ ـ د. السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٦٠٨.

٢٧ ـ علي ابراهيم، المرجع السابق، ص ٢٨٧.

الفصل الثانــــي

الدولة الامويــة

- الامويون والخلافة الاموية.
- الفتوحات في العهد الاموي.
- خصائص الدولة الاموية.
- النظام السياســـي.
- النظام الاداري.
- النظام المالي والنقدي.
- النظام القضائي.
- الحركة العمرانية.
- الحياة الفكرية والعلمية.
- الحركات الدينية والسياسية والثورات في العصر الاموي.

الامويون والخلافة الاموية

مؤسس الدولة الاموية هو معاوية بن ابي سفيان بن حرب بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، وينتهي بفهر وهو قريش.

كان أمية سيدا من سادات قريش في الجاهلية، وكان في الشرف والرفعة مثل عمه هاشم الذي كانت له الزعامة والسيطرة على وظائف الكعبة وكان لأمية عشرة ابناء اشتهر منهم اثنان وهما:

- حرب بن امية الذي كان قائدا لقريش يوم الفجار، ومنه انحدر خلفاء البيت السفياني، وهم: معاوية، ويزيد، ومعاوية الثاني.
- ابو العاص ومنه انحدر خلفاء البيت المرواني، وهم بقية خلفاء بني امية.

وعند ظهور الاسلام كان لأبي سفيان المعروف ايضا باسم صخر بن حرب الزعامة الفعلية، فكانت عنده الراية (اللواء[١])، احدى وظائف الكعبة الهامة، وكان اشد المعارضين للنبي ﷺ، وقاد معظم الحملات المكية ضد النبي ﷺ ولم يسلم الا قبيل فتح مكة. وعند فتح مكة اكرمه الرسول ﷺ، ورفع من مكانته بأن جعل مناديا ينادي في الناس: ان من اغمد سيفه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار ابي سفيان فهو آمن، وبذلك ساوى الرسول ﷺ بين بيت ابي سفيان وبيت الله، وحسن اسلامه، واشترك مع الرسول ﷺ في بعض غزواته، وذهبت عينه في احداها[٢]. وتزوج الرسول من ابنته ام حبيبة، واستخدم ابنه معاوية في الكتابة، واستعمل عددا من بني امية على الصدقات، وولاهم بعض الاعمال، وابلوا بلاء حسنا في حرب الردة، وعين ابو بكر رضي الله عنه يزيد بن ابي سفيان قائدا لاحد الجيوش الرئيسية في الشام، وكان ابو سفيان احد افراد هذا الجيش الذي يقوده ابنه، حيث ذهبت عينه الثانية في معركة اليرموك[٣].

اما معاوية بن ابي سفيان فلا يعرف تاريخ ميلاده بسبب الاختلاف في سني عمره[٤]، ويعتقد انه ولد لخمسة عشر عاما قبل الهجرة[٥]،واسلم يوم فتح مكة، وعينه الرسول كاتبا للوحي، روى الحديث عن ابي بكر وعمر وعثمان، وأخته ام حبيبه، واشترك مع اخيه يزيد في قيادة احد الجيوش التي انفذها ابو بكر لفتح بلاد الشام، وبعد وفاة

يزيد في طاعون عمواس سنة ١٨هـ/ ٦٣٩م عينه عمر بن الخطاب عاملا على سائر بلاد الشام، حيث كان ولاة امصارها كلهم تحت امرته، وظل في هذا المنصب الى ان قتل علي بن ابي طالب، ذلك انه بعد انتصار علي على طلحة والزبير وعائشة في معركة الجمل قرب البصرة سنة ٣٦هـ/ ٦٥٦م، استمر النزاع مع معاوية بن ابي سفيان الذي اتهم عليا بالهوادة في مقتل عثمان بن عفان، واستطاع بحنكته ودهائه ان يجعل من الشام حزبا قويا يقف الى جانبه في المطالبة بدم عثمان والوصول الى الخلافة[٦]، حيث قامت الحرب بين علي ومعاوية، واشتبك الفريقان في معركة صفين في العراق سنة ٣٧هـ/ ٦٥٧م، وكادت الغلبة تتم لعلي لولا قبوله الهدنة والتحكيم في أذرح الشام، التي مثل عليا فيها ابو موسى الاشعري بينما مثل معاوية عمرو بن العاص. وكانت هذه الحادثة بحد ذاتها او بغض النظر عن طبيعة المحادثات التي دارت فيها او النتائج التي ترتبت عليها في صالح معاوية، اذ انها رفعت من مكانته، ووضعته في مرتبة الخليفة، في حين انه لم يكن الا واليا من ولاته، مما اعطاه حقا لم يكن قد اعلن عنه، وقوى من مركزه السياسي، بينما اضعف مركز الخليفة علي وسبب هزيمته وانقسام اتباعه، وخروج بعضهم عليه. واختلف حول مضمون المحادثات التي جرت في حادثة التحكيم، فيرى بعض المؤرخين انه تم بين المحكمين اتفاق على خلع علي ومعاوية من الخلافة، ويرى بعضهم انه اتفق على خلع علي وتثبيت معاوية في الخلافة، وفي كلا الحالتين، فان الخاسر هو علي ابن ابي طالب.

ورغم أن اهل الشام بايعوا معاوية بالامامة بعد هذه الحادثة، فانه لم يجاهر بالخلافة الا بعد مرور سنتين على حادثة التحكيم وبعد مقتل علي في شهر رمضان سنة ٤٠هـ/ كانون الثاني ٦٦١م[٧]، وان كان يبدو ان معاوية اعلن خلافته في ايليا (بيت المقدس) على يد امراء الشام قبل موت علي. وعلى اثر مقتل علي ظهرت امام معاوية مشكلات خطيرة، اخطرها بيعة الحسن بن علي بالخلافة حيث بايع اهل العراق الحسن بن علي وأعلنوه الخليفة الشرعي[٨] الا ان الحسن لم يكن كأبيه في طموحه ومقدرته على الحكم، فأعلن مبايعته لمعاوية بقصد حقن دماء المسلمين، وصلاح الامة الاسلامية[٩]، بالرغم من مناشدة اخيه الحسين له بالتمسك بالخلافة، وعرف هذا العام سنة ٤١هـ/ ٦٦٢م بعام الجماعة[١٠]، لأن معاوية نال فيه بيعة جميع الامصار. ويبدو ان الاسباب التي دفعت الحسن للتنازل عن الخلافة لمعاوية تتمثل في رغبته في اخماد نار الفتنة وحقن دماء المسلمين، وزهدة في الحرب، وتفضيله الحياة السهلة، وعدم اهتمامه كثيرا بامور السياسة والادارة والحكم.

وبعد مبايعة الحسن لمعاوية دخل هذا الاخير الكوفة وبايعه اهلها، واصبح خليفة العراق، كما كان في الشام ومصر، ثم ذهب الى الحجاز ونال مبايعتها. وهكذا يكون معاوية قد اخذ الخلافة بالسيف من غير مشاورة[11]، ولم يكن من الراشدين، ولازم الخلافة في عهده طابع سياسي اكثر منه ديني، واطلق على نفسه لقب الملك، فقال: «انا اول الملوك»[12]، ونقل مقر الخلافة الى الشام، واتخذ دمشق عاصمة لها، واستحدث للخلافة امورا لم تكن من قبل، مثل الحجاب والمقصورة في المسجد للصلاة، والشرطة، وجعل الحراس تمشي بالحراب بين يديه.

الفتوحــــات

لكي تتم الفتوحات لا بد من توفر الاستقرار والامن الداخليين، وكذلك وجود خليفة طموح وقوي. وهذان الشرطان نجدهما في عهد الخليفة معاوية بن ابي سفيان، واواخر عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، وعهد ابنه الوليد، ولهذا نجد ان الفتوحات الاسلامية في العهد الاموي تمت في عهود هؤلاء الخلفاء، بينما توقفت في عهود غيرهم بسبب كثرة الفتن الداخلية ، وضعف الخلفاء، وقد كانت الفتوحات الاموية في ثلاثة ميادين مهمة هي التي انتهى عندها الفتح الاسلامي في عهد الخليفة، عثمان بن عفان[13] وهي:

١ ـ ميدان الحرب ضد الروم في آسيا الصغرى، وشمل حصار القسطنطينية وفتح بعض جزر البحر الابيض المتوسط.

٢ ـ ميدان الشمال الافريقي الذي امتد الى المحيط الاطلسي ثم الى اسبانيا.

٣ ـ الميدان الشرقي الذي امتد من العراق واتجه في اتجاهين، احدهما نحو الشمال باتجاه ما وراء النهر، والثاني نحو الجنوب باتجاه بلاد السند.

اولا ـ ميدان الحرب ضد الروم في اسيا الصغرى والبحر الابيض المتوسط:

كان هذا الميدان اهم ميادين الفتوحات الاموية، وذلك بسبب قرب عاصمة الامويين دمشق من حدود الدولة البيزنطية التي كانت ما تزال تطمح الى استعادة سوريا من ايدي المسلمين. وفي عهد الفتنة التي تلت مقتل الخليفة عثمان بن عفان اضطر معاوية بن ابي سفيان والي الشام الى عقد هدنة مع قنسطانز ملك الروم سنة ٣٦هـ/ ٦٥٧م ليتقي شرهم، وفي بداية خلافته سنة ٤٢هـ/ ٦٦٢م عقد صلحا مع الجراجمة ودفع لهم اتاوة ليتفرغ للمشكلات الناجمة عن اعلان الخلافة لنفسه، وليضمن سلامة اراضيه[14]. ولكن ما ان فرغ من هذه المشكلات وسكتت الفتنة، حتى اعلن الحرب على الروم في

بلادهم بهدف تُحطيم حصونهم والاستيلاء على عاصمتهم القسطنطينية. وعرفت هذه الحروب بـ «حروب الثغور»[١٥] ونظرا لقلة السكان في هذه الثغور فقد اسكنها معاوية بعناصر هندية تعرف «بالزّط»[١٦] اعتنقت الاسلام، وسمي سكان الثغور «بالمرابطة» لملازمتهم ثغر الاعداء للجهاد وهو الرباط.

ومنذ سنة ٤٣هـ/ ٦٦٣م نظم معاوية حرب الثغور في سلسلة من الشواتي والصوائف للدفاع عن الثغور الاسلامية، ولزحزحة العدو للوراء، والاستيلاء على حصونه. ثم فكر في توجيه ضربة قاصمة للروم البيزنطيين بالاستيلاء على عاصمتهم القسطنطينية، ففي سنة ٤٩هـ/ ٦٦٩م سير جيشا كبيرا بقيادة ابنه يزيد[١٧] ومشاركة عدد من الصحابة منهم ابن العباس، وابن عمر، وابن الزبير، وابو ايوب الانصاري، وضرب الحصار حول القسطنطينية، واستمر مدة سبع سنوات (٥٤هـ ـ ٦١هـ/ ٦٧٠م ـ ٦٧٧م)، استشهد اثناءه الصحابي ابو ايوب الانصاري ودفن تحت اسوار القسطنطينية.

وكان قد شجع معاوية على غزو القسطنطينية بناؤه اسطولا بحريا من ١٧٠٠ سفينة، ومعرفته بشؤون البحرية منذ عهد عثمان بن عفان، وكان اول من غزا بحرا جزيرة قبرص سنة ٢٨هـ/ ٦٤٨م وان لم يستول عليها الا سنة ٣٣هـ/ ٦٥٤م.

وقد ولّى معاوية القائد جنادة ابن ابي امية قيادة الاسطول الاسلامي ففتح جزيرة رودس سنة ٥٢هـ/ ٦٧٢م، وجزيرة كريت سنة ٥٤هـ/ ٦٧٣م، وفي سنة ٥٥هـ/ ٦٧٣م فتح جزيرتي صقلية وارواد.

وانتهز الروم الفتن التي تلت وفاة معاوية وحتى اواخر عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وهاجموا ثغور المسلمين واحتلوا بعضها[١٨]، واستولوا على بعض أجزاء ارمينية مما دفع الخليفة الاموي عبد الملك الى عقد صلح مع الروم يدفع لهم بموجبه الف دينار كل جمعة خوفا على المسلمين[١٩]. ولما قضى عبد الملك على الفتن والثورات الداخلية، اتجه لمحاربة الروم واسترد ما احتلوه من ثغور المسلمين ومن ارمينية، ونظم سلسلة الشواتي والصوائف، ودعم حصون المسلمين، وفتح بعض الحصون مثل حصن المصيصة، ومرعش، وعمورية وانطاكية[٢٠].

وفي عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك ارسل حملة عسكرية بقيادة مسلمة بن عبد الملك وتحرك معها هو واقام في دابق قرب حلب، وحاصرت القسطنطينية سنة ٩٩هـ/ ٧١٧م، الا انها لم تات بنتائج تذكر.

ثانيا - حروب المسلمين في شمال افريقيا والاندلس:

١ - فتح افريقيـــا:

كانت منطقة افريقيا تسمى قديما «لوبيا» وسماها العرب بلاد المغرب[٢١]، وعند ظهور الاسلام كانت خاضعة للبيزنطيين، وكان عمرو بن العاص قد فتح برقة وطرابلس في عهد الخليفة عمر بن الخطاب لتامين حدود مصر[٢٢]. واتجه معاوية بن ابي سفيـان بأنظاره اليها من اجل القضاء نهائيا على حكم البيزنطيين فاخذ ولاته يجردون الحملات عليها من الفسطاط، ولم تكن هذه الحملات منظمة كما في اسيا الصغرى. وكانت تحقق نجاحات باهرة مما دفع معاوية الى انشاء قاعدة للعسكر فيها، فارسل جيشا قوامه عشرة الاف رجل بقيادة عقبة بن نافع الذي استطاع فتح طرابلس وفزان ووصل جنوبا الى السودان، فأمره معاوية ان ينشيء مدينة اسلامية تكون معسكرا للجيش ومقرا للمسلمين فاختار موقعا في احد الاودية البعيدة عن الساحل التي لا تدركها مراكب العدو، وانشأ فيه قاعدة «القيروان» وكان انذاك معاوية بن خديج والي مصر، وكانت على نمط تخطيط الامصار الاسلامية في البصرة والكوفة والفسطاط، وشملت المسجد ودار الامارة ودورا للجنود واسرهم، وذلك سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠م[٢٣].

ولما عزل معاوية بن ابي سفيان والي مصر معاوية بن حديج سنة ٥٠هـ وولى بـدلاً منه مسلمة بن مخلد الانصاري وضم اليه المغرب، عزل هذا الوالي الجديد عقبة بن نافع عن القيادة وعين بدلا منه مولاه ابا المهاجر دينار الذي استطاع ان يستميل اليه زعيم البربر كسيلة ابن الكاهنة وكان يغزو افريقيا ويقيم فيها صيف شتاء. وفي اوائل عهد يزيد بن معاوية اعيدت القيادة الى عقبة بن نافع، وظل ابو المهاجر تابعا له، وسار الاثنان في الفتوحات الى ان وصلا الى المحيط الاطلسي، حيث صعد عقبة هناك على ربوة، وهتف قائلا: «يا رب، لولا هذا البحر لمضيت مجاهدا في سبيلك، ولو كنت اعلم بعده ارضا وناسا لخضته اليهم»[٢٤].

واثناء عودة عقبة من احدى غزواته، وعند بلدة طبنة صرف جنده الى القيروان، وسار مع ثلاثمائة رجل باتجاه بلدة «تهودة» فاجاهم كسيلة بتحريض من الروم، فقتل عقبة وابو المهاجر واسر الباقون، وارتد كسيلة عن الاسلام، وعاد السلطان في المغرب للروم ولكسيلة سنة ٦٣هـ/ ٦٨٢ وبقي الحال هكـذا حتى عهد الخليفـة عبـد الملك الذي ارسل جيشا عظيما بقيادة حسّان بن النعمان الغسّاني الذي استطاع قهر الروم وطردهم نـهـائـيـا مـن شـمـال افـريـقـيـا سـنـة ٦٩هـ/ ٦٨٩م، ودخـل في

حرب مع الكاهنة زعيمة البربر[٢٥] التي هزمته في معركة وادي نيني، فانسحب الى برقة، واقام فيها حتى انتهت فتنة ابن الزبير، فقاد حسان حملة جديدة وعاد لمحاربة الكاهنة، التي عندما احست بالخطر اخذت تدمر وتحرق القلاع، وتقطع الاشجار، وتمكن حسان من الانتصار عليها وقتلها سنة ٨٣هـ/ ٧٠٢م، واعاد فتح المغرب حتى المحيط الأطلسي، وقد استمرت عملية فتح المغرب حوالي ستين عاما، وعين عبد الملك موسى بن نصير واليا على المغرب بدلا من حسان. فأتم فتح ما تبقى من بلدان المغرب.

٢ ـ فتح الاندلـــــس:

بعد ان عمل موسى بن نصير على كسب ود البربر وولائهم، ونشر الاسلام بينهم، وشعر بحسن اسلامهم، اتجهت انظاره لغزو بلاد القوط المعروفة باسم «ايبريا او ايبروس» والتي سماها العرب «الاندلس» نسبة الى سكانها قبائل «الاندلس» وهم من الوندال الذين غزوها في القرن الخامس ميلادي، ويفصلها عن ساحل المغرب الاقصى مضيق عرف قديما باسمCalpe ، وسماه العرب «بحر الزقاق» او مجاز الاندلس. فاتجه موسى بن نصير الى الشمال فرأى اوروبا، وعزم ان يعبر هذا المضيق وينشر الاسلام خلفه. فاستغل وجود الفتن والخلافات بين القوط، وخاصة الخلاف الذي حدث بين ملك القوط لذريق، والكونت جوليان حاكم سبتة بسبب انتهاك لذريق لعفاف ابنة جوليان[٢٦]، مما دفع بجوليان للتعاون مع المسلمين، وشجعهم على غزو الاندلس والوقوف الى جانبهم.

فبدأ موسى بن نصير بتوجيه من الخليفة الوليد بن عبد الملك بارسال السرايا الى الاندلس فاستولى على جزيرتين من جزر البليار في البحر المتوسط (منورقة، وميورقة). وفي سنة ٩١هـ/ ٧١٠م ارسل موسى مولاه طريف بن مالك فاستولى على مدينة صغيرة جنوب الاندلس ما زالت تعرف باسمه «جزيرة طريف»[٢٧]، وفي سنة ٩٢هـ/ ٧١١م استولى موسى على جزيرة سردانية. وفي نفس السنة (٩٢هـ) ارسل موسى جيشا قوامه سبعة الاف رجل كلهم من البربر بقيادة طارق بن زياد، فاستولى على جبل في جزيرة في بحر الزقاق ذا موقع استراتيجي فسمي باسمه «جبل طارق» او جبل الفتح[٢٨]، ثم نزل طارق في مرسى في الاندلس نفسها قبالة سبتة سماه العرب «الجزيرة الخضراء»، فأحرق طارق السفن وقال خطبته المشهورة في المجاهدين، والتي مطلعها: «ايها الناس، اين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو من امامكم، وليس لكم والله الا الصدق والصبر...الخ». وداررت معركة حاسمة بين جيش المسلمين بقيادة طارق بن زياد، وجيش القوط بقيادة لذريق في وادي بكة او لكة[٢٩] المحيط ببحيرة لاخاندا فعرفت بمعركة البحيرة في ٢٨

رمضان سنة ٩٢هـ/ ١٨ تموز ٧١١م، انهزم فيها لذريق ولم تعرف نهايته، وتابع طارق فتوحاته ففتح استجه ثم قرطبة وغرناطة ثم طليطلة. وابتعد طارق بن زياد كثيرا عن قواعده مما هدد المسلمين، واراد موسى ان يكون له شرف الاشتراك الفعلي في فتح الاندلس، فقاد بنفسه حملة قوامها ثمانية آلاف رجل وعبر المضيق ففتح قرمونة ثم اشبيلية عاصمة اسبانيا سنة ٩٣هـ/ ٧١١م والتقى بطارق في طليطلة، ثم سارا معا نحو الشمال وفتحا مدنا كثيرة مثل سرقطة وبرشلونة وارغونه وقشتالة، ثم اتجها الى الشمال الشرقي حتى وصلا جبال البرانس، ولكنهما تركا المنطقة الجبلية في الشمال الغربي «جليقية»، وكان لاهمال هذه المنطقة آثار سيئة للغاية على الوجود الاسلامي في الاندلس، اذ اصبحت حصنا للقوط انطلقت منه حركة استعادة لبلاد الاندلس من أيدي المسلمين بعد صراع طويل استمر حوالي ثمانية قرون. وكان سبب اهمال المسلمين لهذه المنطقة رغبة موسى بن نصير بالزحف لفتح القسطنطينية من جهة الغرب.

بعد أن عجز المسلمون عن فتحها من جهة الشرق، ثم ان الخليفة الوليد بن عبد الملك طلب من موسى سنة ٩٥ هـ / ٧١٣م التخلي عن هذه الفكرة وبعد ان تم فتح الاندلس استدعى الوليد القائدين موسى بن نصير وطارق بن زياد الى دمشق حيث انقطع خبر طارق[٢]، فلم يتمكن موسى من تحقيق امله في اختراق البرانس والزحف جنوب فرنسا. وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز قام السمح بن مالك باختراق البرانس والزحف باتجاه الشرق ولكنه قتل سنة ١٠٢ هـ، وفي سنة ١١٢ هـ/ ٧٣٠ م تقدم القائد المسلم عبد الرحمن الغافقي في فرنسا، واحرز الانتصارات الهامة الى أن وصل مدينة تور او بواتييه، وتجمع الفرنجة حول القائد شارل مارتل ودارت بين الفريقين معركة حاسمة سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م سمّاها العرب معركة بلاط الشهداء، استشهد فيها عبد الرحمن الغافقي، وتقهقر جيش المسلمين، وتوقفت حركة الفتوحات في اوروبا.

ثالثا: الفتوحات في منطقتي ما وراء النهر والسند:

المقصود بالنهر هو نهر جيحون الواقع شمال خراسان، ويطلق على ما وراء النهر اسم ما بين النهرين، وهما نهر جيحون ونهر سيحون، وتضم عدة ممالك اهمها:

- في اعلى النهر: مملكة طخارستان على ضفتي جيحون وعاصمتها بلخ، ومملكة صغانيان وعاصمتها شومان.
- في وسط ما وراء النهر: مملكة الصغد وتمتد من جيحون الى سيحون وعاصمتها سمرقند واهم مدنها بخارى.

- في ادنى النهر: مملكة خوارزم (اعلى نهر سيحون) وعاصمتها الجرجانية.
- على ضفاف سيحون: مملكة فرغانة واهم مدنهـا اخسيكت أوكاشان، وعاصمتهـا جخندة.
- مملكة اشروسنة شرقي فرغانة وعاصمتها بنجكث.
- مملكة الشاش وعاصمتها طارنبذ او بنكث.

عندما هدأت الامور في عهد معاوية بن ابي سفيان بدأ العرب يستطلعون هذه المنطقة عن طريق ارسال السرايا والبعوث، واتخذوا مدينة مرو قاعدة للغزو، وكانت اول سرية تعبر النهر بقيادة عبيد الله بن زياد سنة ٥٤ هـ / ٦٧٤م، ثم سعيد بن عثمان سنة ٥٥ هـ / ٦٧٥م، وفي سنة ٦١هـ / ٦٨٠م عبره مسلمة بن زياد ومعه المهلب ابن أبي صفرة.

وبعد معاوية بن أبي سفيان توقفت عملية الغـزو بسبب كثرة الثـورات والفتن الداخلية، ولم تنظم سياسة فتح بلاد ما وراء النهر الا في عهد خلافة الوليد بن عبد الملك، واثناء ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق وخراسان حيث ارسل الحجاج قتيبة بن مسلم منذ سنة ٨٦هـ / ٧٠٦م وتوالت غزواته اليها، وكانت اولى غزواته في مملكة صغانيان التي فتحها سنة ٨٦هـ، وفتح بخارى سنة ٨٩هـ / ٧٠٨م، ثم فتح شومان سنة ٩١هـ / ٧١٠ م، ثم فتح سمرقند سنة ٩٣ هـ/ ٧١٢م.

وفي الوقت ذاته كان قتيبة يحارب في طخارستان شرقي خراسان، وامتدت فتوحاته الى نهر جيحون عند خوارزم، والى ممالك سيحون المتاخمة لبلاد الترك فغـزا مملكة الشاش سنة ٩٥هـ /٧١٣م، وفرغانة في نفس العام، وفتح كاشان وخجندة، ثم كاشغر سنة ٩٦هـ / ٧١٤م في الصين، وبهذا الفتح العظيم اعتبر قتيبة من كبار رجال الفتح.

- فتح السند:

تقع السند شرقي ايران، وقد ازداد اهتمام المسلمين بها منذ ان فتحوا مكران الى الشرق منها في عهد عمر، فبدأوا غزوها منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان، ثم غزاها معاوية بقيادة المهلب ابن ابي صفرة، وفي عهد الوليد بن عبد الملك جاء عهد الفتح المنظم اثناء ولاية الحجاج على العراق وخراسان وفارس. فقد ساءت العلاقات بين المسلمين وبين داهر ملك السند بسبب التجاء الخارجين على الدولة الاسلامية الى مملكة السند، ثم اعترض قراصنة من ديبل قافلة تجارية مسلمة وأسروا نساءها، فطلب الحجـاج من

الخليفة الوليد ان يأذن له بفتح السند، فاستجاب لرغبته، فأعد حملة كبيرة لغزو بلاد السند بقيادة أحد أقربائه وهو الشاب محمد بن القاسم الثقفي الذي استطاع الاستيلاء على الحصون والبلاد، والتقى بالملك داهر في معركة حاسمة انهزم فيها الملك داهر، ووصل محمد الى كشمير شمال السند، وكان ذلك سنة ٨٩هـ /٧٠٧ ـ ٧٠٨م، ودخل العاصمة راور، وكان هذا الفتح من اعظم الفتوح الاسلامية [٣١]، إذ لم يتجاوز أحد من الفاتحين هذه الفتوحات.

خصائص الدولة الاموية

من خلال دراسة التطورات السياسية التي مرت بالدولة الاموية، يمكن استخلاص مجموعة الخصائص التي كانت تتميز بها هذه الدولة، والتي يمكن ايجازها بما يلي:

١ ـ تغيير نظام الحكم من نظام الخلافة الشوري الى النظام الملكي الوراثي:

لقد اقــام معاويــة بن أبي سفيان صرح الدولة الاموية الكبيرة، معتمداً في المقام الاول على مواهبه السياسية في الحكم، حيث كان على درجة عالية من الذكاء والمرونة، بالاضافة الى صناعة العلاقات الاجتماعية التي اتقنها، وقدرته على استقطاب الانصار والحلفاء، ولم يكن يتورع عن استخدام مختلف الوسائل وصولا الى تحقيق أهدافه السياسية، مما جعله رجل دولة غير عادي، بحيث يعتبر رائدا لمدرسة الميكافيلية في السياسة القائمة على تسويغ الوسيلة من أجل الغاية.

وقد عمل معاوية على تطوير نظام الدولة من الخلافة الى الملكية[٣٢]، وتعدت تغيرات الدولة في مضمون نظام الحكم ومظاهره التي أصبحت زمنية مقتبسه من النظام البيزنطي، فقد رفض النهج السلفي باعطاء المسجد دوره الاستقطابي التقليدي في حياة رجل الدولة، وتمسك بالمظاهر المعقدة، فأقام حاجزاً بينه وبين عامة الناس، مؤثراً الاقامة في قصر الخضراء في دمشق الذي تميز بكل عادات الملوك من العرش الى الحرس الى الحجّاب الى المحراب الذي كان أشبه بمقصورة خاصة في المسجد تفصله عن بقية المصلّين.

كما انه غير من نظام تعيين الخلافة من النظام الشوري، الى النظام الوراثي القائم على تعيين ولي العهد قبل موته، ولم يكتف بعض الخلفاء بتعيين ولي عهد واحد، بل كان

بعضهم يعهد لاكثر من واحد، مما كان يؤدي الى نشوب الصراع والاقتتال بين الاخوة، مما كان سببا من أسباب ضعف الدولة الاموية واضمحلالها.

٢ ـ الصبغة العسكرية:

من المعروف ان معاوية استولى على الحكم في ظل اجواء غير طبيعية، فلم تأت اليه السلطة انتخابية او جماعية بل جاءته عن طريق القوة، إثر حرب أهلية دامية، ومن الواضح ان اي نظام يقوم بالسيف لا بد ان يحميه السلاح نفسه، وكانت الخطورة في ذلك ان الجيش الاموي تحول مع مرور الوقت الى طبقة عسكرية تمتعت بامتيازات خاصة ومتفوقة، وتحركت وفق مصالحها الاقتصادية قبل ان تكون اداة طيّعه في قبضة الدولة، وكان هذا الجيش الاداة الفاعلة التي أعتمد عليها معاوية وكبار الخلفاء الامويين في ضرب الحركات الثورية المعادية. فالطابع العسكري اذن كان من أبرز سمات هذه الدولة، فقد زامنها في جميع المراحل، من الولادة التي تمت بالقوة ـ كما اشرنا ـ الى النهج المتشدد في التعامل مع المعارضة وخصوم النظام، وأخيراً الى السقوط الذي تم بالقوة ايضاً، وبوسائل اكثر تطرفا من الوسائل الاموية.

٣ ـ الصبغة العربية:

فقد كانت دولة عربية لحماً ودماً، حيث تعصب الامويون للعرب والعربية، واخذوا ينظرون الى الموالي نظرة دونية مما أيقظ الفتنة بين المسلمين، وبعث روح الشعوبية في الاسلام، وكان منشأ ذلك اعتقاد الامويين انهم افضل الامم، وأن لغتهم العربية أرقى اللغات.

والشعوبية عبارة عن حركة سياسية نظمتها الشعوب الاسلامية غير العربية كرد فعل على سياسة الامويين منها، حيث أخذت تطالب بالمساواة ونبذ التفرقة عملا بمباديء الاسلام الحنيف التي خلاصتها ان لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى. وكانت حربا سلمية اشتبكت فيها الألسنة والاقلام اشتباكات لا تقل عن اشتباك الأسنة والرماح، ولم يساو الامويون بين العرب والموالي، حيث كان الموالي يدفعون الخراج، لأن الامويين أخذوا ينظرون الى الموالي أنهم لم يسلموا عن ايمان، وانما من أجل التخلص من دفع الجزية، وفي عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز أمر عمّا له برفع او منع الجزية عمّن أسلم وعدم استبدالها بالخراج سواء كان عربيا أم غير عربي. ولكن بعد وفاته، عاد الامويون يفرقون في المعاملة بين العرب والموالي، مما اثار حنق هؤلاء وسخطهم على الامويين،

واخذوا يتحينون الفرص للايقاع بهم، وكانوا ينضمون الى جميع الحركات والثورات ضد الدول الاموية.

٤ ـ ظهور روح العصبية وتدعيمها:

انبعثت روح العصبية بين القبائل عقب وفاة يزيد بن معاوية الى أن كانت خلافة عمر بن عبد العزيز التي كانت مرحلة انتقالية، بين حال القوة والتماسك، وحال الضعف والتفكك الذي اعترى الامويين، وعرف عنه أنه لم يتعصب لقبيلة دون أخرى ولم يولّ واليا الا لكفاءته وعدالته، سواء كان من مضر او من قيس، فسكنت في عهده روح العصبية.

ولكن في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ظهرت الفتنة بين عرب الشمال المضريين، وعرب الجنوب اليمنيين، ولما كان هو من عرب الشمال فلم يتورع ان خاض الفتنة، فرغم اخلاص اسرة المهلب بن ابي صفرة للدولة، وبلائهم بلاء حسنا في حرب الخارجين على الدولة وعظم امرهم حتى أصبحوا غرّة ناصعة في جبين الدولة الاموية، فانه لم يتردد في القضاء عليها لكونها من عرب الجنوب (يمنية)، وأعلن انحيازه الى القيسيين المضريين، حيث عينّ اخاه مسلمة ثم عمر بن هبيرة، واصطبغت الدولة كلها بالصبغة القيسية المضرية، واصبح العنصر اليمني ضعيفا، ولكن خليفته هشام بن عبد الملك خشي من القيسية ومن ازدياد نفوذهم على الدولة فعمل على التخلص منهم والانحياز الى اليمنيين ليعيد التوازن بين العنصرين: اليمني والقيسي، فعزل الولاة القيسيين وولّى بدلا منهم ولاة يمنيين مثل خالد بن عبد الله القسري على العراق، وكذلك أخذ العنصر اليمني يستعيد قوته، وأخذ العنصر القيسي في الضعف.

٥ ـ كثرة الاحزاب السياسية والدينية:

التي ظهرت بعد انقسام المسلمين على اثر مقتل الخليفة عثمان بن عفان، والحروب والصراعات بين معاوية وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، والحزبية من مستلزمات الحياة السياسية، وتعددت الاحزاب في عهد الدولة الاموية، ما بين معارض لها، ومؤيد لسياستها، ومن أهم هذه الاحزاب ما نذكره هنا وسنتحدث عنه لاحقا: حزب العثمانية، او حزب الهاشمية، وحزب المختارية، وحزب الخوارج، وحزب المعتزلة، وحزب المرجئة، وحزب الموالي، وحزب الزبيرية، وقد كان لكثرة هذه الاحزاب آثار سلبية في قيام العديد من الثورات والحركات السياسية والعسكرية المعارضة، مما أنهك الدولة ماديا ومعنويا وسارع في سقوطها.

النظام السياسي

١ ـ الخلافة: الخلافة لغة مصدر «خَلَفَ» أي بقي بعده، ومن ثَمّ سمي من جاء بعد الرسوم ﷺ وخلفه في اجراء الاحكام الشرعية «خليفة»، وسمّي أيضا «إماما» تشبيها بامام الصلاة والاقتداء به، واطلق في البداية اسم «خليفة الله» لقوله تعالى: «إني جاعل في الارض خليفة»[٣٣]، ولكن أبا بكر نهى عنه عندما دعي به، وقال لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله، ولأن الاستخلاف في حق الغائب، أما الحاضر فلا استخلاف له.

أما الخلافة اصطلاحاً فهي رياسة عامة في امور الدين والدنيا نيابة عن الرسول ﷺ، فالخليفة حاكم سياسي بمعنى أنه يجمع بين السلطتين الزمنية والروحية، فهو يعلن الحرب على الكفار، ويعاقب الخارجين على الدين، ويؤم الناس في الصلاة، ويلقي خطبة الجمعة.

القاب الخليفة:

أ ـ كان أبو بكر يلقب خليفة رسول الله.

ب ـ وكان عمر يلقب خليفة خليفة رسول الله، ولكن لمنع تكرار لفظ خليفة لمن سيأتي بعد عمر، أمر عمر ان يستبدل هذا اللقلب بلقب...

ج ـ أمير المؤمنين: فقد اورد المقريزي صاحب كتاب «السلوك» عن هذا التغيير ما نصه [٣٤]: «قال المغيرة لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما: يا خليفة الله! فقال عمر: ذالك نبي الله داود.

قال: يا خليفة رسول الله! قال عمر: ذاك صاحبكم المفقود.

قال: يا خليفة خليفة رسو الله! قال عمر: ذاك امر يطول.

قال: يا عمر! فقال عمر: لا تبخس مقامي شرفة ـ انتم المؤمنون وأنا اميركم. فقال المغيرة «يا امير المؤمنين» فكان عمر أول من تلقب به.

د ـ إمام وهو لقب مستعار من إمامة الصلاة، لقوله تعالى: «وجعلناهم ائمة يهدون بأمرنا واوحينا اليهم فعل الخيرات»[٣٥].

شروط الخلافة:

يشترط في الشخص المرشح للخلافة ان يكون جامعاً لصفات خاصة هي:

أ ـ العلم

ب ـ العدالة

ج ـ الكفاية

د ـ سلامة الحواس.

هـ ـ النسب القرشي.

وقد اختلف في هذا الشرط؛ بين مؤيد له اعتماداً على ما اثر عن النبي ﷺ قوله: «الملك في قريش، والقضاء في الانصار، والاذان في الحبشه»، وبين رافض له لقول الرسول ﷺ «اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة».

ـ طريقة انتخاب الخلفاء الراشدين:

أ ـ تمت مبايعة ابي بكر يوم السقيفة بفضل مهارة عمر وشجاعته، وهي البيعة الخاصة، وفي اليوم التالي جلس على المنبر وبايعه عامة المسلمين، وهي البيعة العامة، وقد تم الانتخاب بطريقة ديمقراطية واسلوب منظم، اذ تم ترشيح عدة اشخاص في اجتماع سقيفة بني ساعدة[٣٦] وتم انتخاب ابي بكر.

ب ـ وقبل وفاة ابي بكر رشح عمر للخلافة، لانه خشي اذا ترك امر الخلافة كما فعل الرسول ﷺ ان ينقسم المسلمون. ولكن ابا بكر لم ينفرد برأيه حين رشح عمر، بل استشار الصحابة في عمر فاثنوا عليه، فكتب اليه العهد بشرط رضا الناس. فكان وصول عمر للخلافة بالعهد او الوصية القائمة على الشورى. ونلاحظ في هذه الوصية أمرين:

* ان أبا بكر علق خلافة عمر على رضا وموافقة الناس.
* ان أبا بكر لم يعهد لاحد من أبنائه او اقربائه، فهي بيعة صحيحة وديمقراطية.

ج ـ وبعد ان طعن عمر بن الخطاب، طلب الناس منه ان يعهد بالخلافة، وبعضهم اشار عليه ان يعهد بها لابنه عبد الله، فرفض، واختار ستة من الصحابة هم: علي بن ابي طالب، عثمان بن عفان، عبد الرحمن بن عوف، سعد بن ابي وقاص، الزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، فدعاهم ـ باستثناء طلحة الذي كان مسافراً ـ وقال لهم: «.. فاذا مت فتشاوروا ثلاثة ايام، وليُصلِّ بالناس صهيب، ولا يأتين اليوم الرابع الا وعليكم امير منكم، ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً ولا شيء له في الامر»

وهذه البيعة اقرب الى الشورى من بيعة عمر، إذ قد تعدد المرشحون للخلافة، ولو ان البعض يعتبرها ناقصة لأنها حصرت الناخبين في ستة اشخاص. وهنا ايضا نلاحظ ان عمر لم يشأ ان يجعل الخلافة وراثية رغم طلب الصحابة منه تعيين ابنه عبد الله.

د ـ وكذلك كان انتخاب علي بن ابي طالب شوريا، وان لم يكن عاما لتفرق الصحابة في الامصار، اذ اقتصر الانتخاب على أهل المدينة.

هـ ـ اما في العهد الاموي فقد تحول نظام الخلافة الى ملك وراثي على غرار ما كان عند الفرس والروم. وعدل الامويون عن تطبيق نظام الخلافة الراشدة القائم على الشورى والمستند على الدين الى نظام الملك القائم على التوريث والمستند على السياسة واستحالت الخلافة الى ما يشبه نظام الملكية مع تمسك شكلي بفكرة البيعة التقليدية[٣٧]. ومن ناحية اخرى استولى معاوية على الخلافة في ظل اجواء غير طبيعية، ليس عن طريق الانتخاب والشورى بل عن طريق القوة والقهر.

٢ ـ الوزارة: كلمة وزارة مشتقة من الوِزْر أي الثقل، لأن الوزير يحمل أعباء الدولة، أو من الوَزَر وهو الملتجأ او المعتصم لأنه يلجأ اليه ويرجع الى رأيه وتدبيره، قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: «واجعل لي وزيراً من أهلي هارون اخي اشدد به ازري واشركه في أمري»[٣٨] وهي ليست من مستحدثات الاسلام، فقد عرفت عند الفرس والروم من قبل.

أما في عهد الرسول ﷺ فقد وجدت وظيفة الوزير دون ان يطلق عليها اسم وزير، فقد كان الرسول ﷺ يستعين بأبي بكر حتى ان البعض كان يطلق عليه وزير النبي، وكذلك الحال كان شأن عمر مع أبي بكر، وعثمان وعلي مع عمر، فكانوا يقومون بعمل الوزراء وان لم يكن اسم الوزير قد ظهر بعد، أما في العصر الاموي فان الوزارة قد وجدت من حيث التسمية دون الاختصاص، فقد تأثر العرب بالشعوب المتحضرة التي احتكوا بها بعد اتساع رقعة الدولة الاسلامية، وافادوا من الانظمة والادارات التي كانت موجودة عندها، وخاصة الدواوين والحاجب، ثم ظهر المشاور والمعين في امور القبائل العصائب واستئلافهم، واطلق عليهم اسم «الوزير»[٣٩] وأصبح للوزير النظر عاماً في أحوال التدبير والمفاوضات وسائر الامور كالنظر في ديوان الجند والعطاء. وقد اصطنع الخلفاء الامويون أولي الراي وقربوهم اليهم، وتلقب بعضهم بالوزراء، أمثال زياد بن أبيه في عهد معاوية، وروح بن زنباع الجذامي في عهد عبد الملك بن مروان. ولكن يجب التأكيد

على ان لقب وزير في العهد الاموي لم يكن يحمل نفس المعنى الذي عرف في العصر العباسي والعصور الاسلامية التالي، إذ ان وظيفة وزير بالمفهوم الحديث لم تكن معروفة في العصر الاموي[٤٠]، وأن أول وزير اطلق عليه هذا اللقب وكان يقوم بمهمة الوزير هو ابو سلمة الخلال في العصر العباسي.

٣ ـ الحجابة: كان الخلفاء الراشدون لا يمنعون أحداً من الدخول عليهم، بل كانوا يخاطبون الناس بلا حُجّاب. فلما انتقلت الخلافة الى بني اميّة، اتخذ معاوية ومن جاء بعده الحجّاب بعد حادثة الخوارج مع علي ومعاوية وعمرو وذلك خوفاً على انفسهم من شر الناس، وتلافيا لازدحامهم على الابواب، والحاجب موظف كبير يشبه مدير التشريفات أو المراسم، ومهمته ادخال الناس على الخليفة مراعيا اهميتهم ومقامهم. ولكنهم كانوا يبيحون الدخول لثلاثة دون تأخير، فقد قال عبد الملك بن مروان لما ولّى حاجبه: «لقد ولّيتك حجابة بابي الا عن ثلاثة: المؤذن للصلاة فانه داعي الله، وصاحب البريد فأمرٌ ما جاء به، وصاحب الطعام لئلا يفسد».

٤ ـ الكتابة: الكاتب من اكبر اعوان الخليفة، فقد كان بعض الصحابة يكتبون القرآن، ويكتبون الرسائل التي يرسلها الرسول ﷺ الى الملوك والامراء واتخذ ابو بكر عثمان بن عفان كاتبا له، واتخذ عمر بن الخطاب زيد بن ثابت وعبد الله بن الارقم، واتخذ عثمان مروان بن الحكم، واتخذ عليّ عبد الله بن رافع.

وفي عهد الدولة الاموية تعدد الكتّاب لتعدد مصالح الدولة، وأصبحوا خمسة هم: كاتب الرسائل، كاتب الخراج، كاتب الجند، كاتب الشرطة، وكاتب القاضي، وأشهر الكتاب في العصر الاموي عبد الحميد الكاتب الذي كان يقوم مقام الوزير.

النظام الاداري

يشتمل النظام الاداري على المؤسسات الادارية كالدواوين المختلفة، والبريد والشرطة، وكذلك ادارة الاقاليم وتعيين الولاة والحكام. ولم يكن للعرب عند دخولهم الشام والعراق ومصر نظم ادارية كالتي كانت عند الامم المغلوبة فيها. ولهذا فقد ابقى المسلمون على هذه النظم، مع اجراء بعض التغييرات التي تتفق ومبادىء الدين الاسلامي الحنيف.

اولا : الدواوين :

الدواوين جمع ديوان، وهي لفظة فارسية تعني السجل او الدفتر، واشتق منها بالعربية الفعل دوّن بمعنى سجّل. واصبحت كلمة ديوان تطلق على المكان الذي تحفظ فيه السجلات. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه اول من انشأ الدواوين في الاسلام، وذلك سنة ٢٠هـ حين انشأ ديوان الجند (العطاء) لتسجيل الجند وصرف مرتباتهم، وديوان الخراج لتدوين موارد بيت المال. اما في العهد الاموي فقد تنوعت الدواوين بحيث اصبح لكل ادارة نظام خاص بها، فوجد اربعة دواوين، هي:

١ ـ ديوان الخراج: وهو يشبه وزارة المالية في عصرنا الحالي، ويشرف عليه صاحب الخراج، ويقوم بتسجيل ما يرد للدولة من اموال وما يصرف منها. وكان يكتب باليونانية في الشام، وبالفارسية في العراق حتى عهد الخليفة عبدالملك بن مروان الذي امر بتعريب الدواوين، من اجل تقليص النفوذ الاجنبي في ادارات الدولة الاسلامية، اما في مصر فقد تم تعريب الديوان في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، وقد كان يكتب بالعربية والقبطية او اليونانية.

٢ ـ ديوان الرسائل: ويقوم صاحبه بالاشراف على الرسائل الواردة من الولايات، ويقوم بتوزيعها على اصحابها، واصبح لهذا الديوان محفوظات وكانت اصول المراسلات ونسخها تنظم في سجلات، ومغلفات خاصة يقال لها اضابير يوضع عليها بطاقات تدل على محتوياتها ليسهل استخدامها.

٣ ـ ديوان المستغلات او الايرادات المتنوعة: ويتولى صاحبه شؤون ما يرد على بيت المال من اموال وايرادات من مصادر مختلفة مثل ضريبة الخراج، والعشور والجزية والمكوس وغيرها.

٤ ـ ديوان الخاتم: وقد انشاه الخليفة معاوية بن ابي سفيان، وهو اكبر دواوين الدولة، وهو اشبه ما يكون بمكتب شؤون الخليفة. وتكاد تنحصر مسؤولياته في رفع التقارير والتعليمات والاوامر الى الولاة او الى من يعنيهم الامر، وكانت تصدر كلها مختمة بخاتم الخليفة. وكانت جميع الاوامر والتعليمات تحزم بخيط وتختم بالشمع ثم تختم بختم صاحب ديوان الخاتم وتودع فيه. ويقال ان السبب في انشاء هذا الديوان هي حادثة تزوير في عهد معاوية لمراقبة الرسائل والتعليمات الرسمية حتى لا يستطيع احد فتحها والاطلاع عليها او تغييرها.

ثانيا: البريد:

يعود نظام البريد الى دولتي الفرس والروم. وكلمة بريد عربية، تعني المسافة بين محطة واخرى، وتتراوح ما بين فرسخين الى اربعة فراسخ. وبالرغم من ان عمر بن الخطاب كان اول من استعمل هذا النوع من الخدمات للوقوف على اخبار الولايات والقواعد العسكرية بصورة سريعة، فإن معاوية بن ابي سفيان هو اول من ادخل هذا النظام الى الدولة العربية الاسلامية بمفهومه المتطور والمنتظم. وقد بذل من اجل تطويره وتنشيطه نفقات عالية، فقد زوده بعدد من الموظفين ومن الخيول، وبالمحطات المجهزة بما يحتاج اليه ناقل الاخبار. ولكن يجب الا يفوتنا بأن البريد لم يكن في متناول الشعب او الخدمات العامة، بل كان محصوراً في المعاملات الرسمية والتقارير الصادرة عن الدولة فقط. وازداد شأن البريد في عهد عبد الملك بن مروان الذي كان يمنع حاجبه من تأخير دخول حامل البريد على الخليفة.

ثالثا: الشرطة:

الشـــرطة هي الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة او الوالي للمحافظة على استقرار الامن الداخلي، وحفظ النظام، وتنفيذ احكام الولاة، والقبض على الجناة والمفسدين، وغيرها من المهمات التي تضمن سلامة الجمهور وطمأنينتهم. وقد سموا بالشرطة لانهم اشرطوا انفسهم بعلامات خاصة يعرفون بها.

ويرى البعض ان الشرطة اول ما نظمت في عهد الخليفة علي بن ابي طالب، واطلق على رئيسها صاحب الشرطة، بينما يرى البعض الآخر ان معاوية هو الذي استحدث وظيفة صاحب الشرطة.

وكانت الشرطة في باديء الامر تابعة للقضاء، ولكنها لم تلبث ان انفصلت عنه، واستقل صاحب الشرطة بالنظر في الجرائم.

رابعاً: الامارة على البلدان:

كان الرسول اول من عين عمالاً ينوبون عنه على القبائل والمدن الكبيرة في الحجاز واليمن، يقومون بإمامة المسلمين في الصلاة وجمع الزكاة، ولم تكن لهم صفة سياسية، وقد فرض لعامله على مكة عتاب بن اسيد درهماً كل يوم، فكان هذا اول راتب للعمال. وفي عهد الخلفاء الراشدين اتسعت رقعة الدولة، وقسمت الى اقسام ادارية كبيرة ليسهل حكمها،

وعينوا الولاة والعمال عليها ليديروا شؤونها، وكانوا يستمدون سلطتهم من الخليفة وكان امراء الاقاليم يسمون عمالاً. ومعنى عامل تفيد أن صاحبه ليس مطلق السلطة.

وفي عهد الدولة الاموية اتسعت رقعتها كثيراً، مما استوجب تقسيمها الى خمس ولايات، هي:

١ ـ الحجاز واليمن واواسط بلاد العرب.

٢ ـ مصر بقسميها السفلي والعلوي.

٣ ـ العراق ويشمل:

ـ عراق العرب (بابل وآشور).

ـ عراق العجم (بلاد فارس).

ـ عمان والبحرين.

ـ سجستان وكرمان وكابل.
خراسان.

ـ بلاد ما وراء النهر.

ـ السند وبعض إقسام البنجاب.

وكانت كلها تؤلف ولاية واحدة او امارة يحكمها والي العراق، وعاصمتها الكوفة. ويساعده ثلاثة عمال.

٤ ـ بلاد الجزيرة (شمال سوريا) وأرمينية وأذربيجان وبعض اجزاء آسيا الصغرى.

٥ ـ افريقية وتشمل بلاد المغرب العربي والاندلس وجزر صقلية والبليار وعاصمتها القيروان. ويساعد والي افريقية واليان.

واتسعت سلطات العامل بحيث اصبح يطلق عليه لقب والي دلالة على النفوذ والسلطان. وقد كانت مهماته في البداية:

أ ـ امامة الناس في الصلاة

ب ـ جمع الضرائب والزكاة.

ج ـ قيادة الجند في الحرب.

د ـ الفصل في الخصومات.

ويرى الماوردي ان الامارة نوعان:

أ ـ امارة عامة وهي تشمل جميع الصلاحيات.

ب ـ امارة خاصة.

ـ الامارة العامة: وهي نوعان: امارة استكفاء، وامارة استيلاء.

● امارة الاستكفاء: وتعقد عن اختيار وتشمل سبعة امور:

١ ـ النظر في تدبير الجيوش وتوزيعهم وتقدير ارزاقهم.

٢ ـ النظر في الاحكام وتقليد القضاة والحكام.

٣ ـ جباية الخراج وقبض الصدقات.

٤ ـ حماية الدين والذَّب عن الحريم.

٥ ـ إقامة الحدود في حق الله وحقوق الآدميين.

٦ ـ الامامة في صلاة الجمعة والجماعات.

٧ ـ تسيير الحجيج من عمله ومن سلكه من غير اهله.

ويضيف الماوردي مهمة ثامنة اذا كان الاقليم ثغراً وهي جهاد من يليه من الاعداء.

● امارة الاستيلاء وهي التي تعقد عن اضطرار، فيأخذها الوالي بالقوة ويقرها الخليفة، وفيها يكون الوالي مستبداً بالسياسة والتدبير، ولكن الامور المتعلقة بالدين تكون من اختصاص الخليفة.

ـ الامارة الخاصة: وفيها يكون الوالي مقصور الصلاحية على تدبير الجيش وسياسة الرعية وحماية البيضة، والذَّب عن الحريم. وليس له أن يتعرض للقضاء والاحكام والجباية والخراج والصدقات.

وكانت الامارة في العهد الاول عامة مثل ولاية عمرو بن العاص على مصر، ثم اصبحت خاصة، حيث عيَّن عمر بن الخطاب عبد الله بن سعد بن ابي سرح على الخراج فاصبحت ولاية عمرو خاصة بعد أن كانت عامة، ثم تقلد قضاء مصر قاض للفصل في الخصومات، فقلت صلاحيات الوالي واقتصرت على قيادة الجيش وإمامة الصلاة.

النظام المالي

تعمل السياسة المالية لكل دولة على تحقيق التوازن بين مواردها ومصاريفها، ولتحقيق ذلك انشأت الدولة الاسلامية بيتا للمال يقوم على صيانته وحفظه والتصرف فيه للمصالح العامة للمسلمين، وهو يشبه وزارة المالية في العصر الحديث.

اولاً: موارد بيت المال:

كانت موارد بيت المال متعددة تشمل: الخراج، والجزية، والزكاة، والغنائم، والفيء، والعشور.

١ ـ الخراج: وهو ضريبة تفرض على اهل البلاد المفتوحة عنوة دون ان تقسم ارضها على الفاتحين، فكان يصالح اهلها على ان يتركهم فيها بخراج معلوم يؤدونه الى بيت المسلمين، وكان الخراج اما مقداراً من المال او من الحاصلات. وكان هناك ثلاثة انواع من الارض لا يفرض عليها الخراج وانما يدفع اصحابها العشر، وهي:

أ ـ الارض التي اسلم اهلها وهم عليها بدون حرب، فيدفع اهلها ضريبة العشر زكاة.

ب ـ الارض التي ملكها المسلمون عنوة اذا قسمها الخليفة على المسلمين، فتعتبر ارض عشر.

ج ـ الارض التي كانت تؤخذ من المشركين عنوة وتعتبر غنيمة تقسم بين الفاتحين فتكون ارض عشر.

وكان الخراج يقل ويكثر حسب الاهتمام بالتعمير واصلاح الجسور وتحسين وسائل الري، وحسب مساحة الارض وجودتها ونوع المحصول. كان الوالي يدفع من الخراج ارزاق الجند، ونفقات الولاية، ويرسل الباقي لبيت المال، وقد امر عمر بن عبد العزيز جباة الخراج الا يأخذوا من الدراهم ما زاد وزنه على اربعة عشر قيراطا وهو ما امر به عمر بن الخطاب.

الجزية: وهي ضريبة فرضت على اهل الذمة من الرجال البالغين القاطنين في اراضي الدولة الاسلامية، والذين يجب عليهم الجهاد لو كانوا مسلمين، وتسقط عن النساء والاطفال والشيوخ والعبيد ورجال الدين، وهي تشبه الخراج في ان كلا منهما من الفيء، ولكن الجزية موضوعة على الرؤوس (الاشخاص)، وتسقط بالاسلام، وورد ذكرها في القرآن الكريم بقوله تعالى: «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر،

ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون»، اما الخراج فهو موضوع على الارض، ولا يسقط باسلام المالك، ولم يرد ذكره في القرآن، وانما وضع بالاجتهاد. وفرضت الجزية على اهل الذمة مقابل الزكاة على المسلمين، حتى يتكافأ الفريقان، لانهما من رعايا الدولة الاسلامية ويتمتعان بنفس الحقوق، وينتفعان بمصالح الدولة العامة بالتساوي. وكذلك فرضت الجزية على اهل الذمة دون المسلمين نظير قيام الدولة الاسلامية بالدفاع عن الذميين وحمايتهم، وعدم مشاركتهم في الجهاد. وقدرت قيمة الجزية بثمانية واربعين درهما على الغني، واربعة وعشرين درهما على المتوسط، واثني عشر درهما على الفقير. وقد حثت السنة على الرفق والتلطف عند أخذ ألجزية من الذميين، فلا يجوز استعمال القوة او التعذيب او الاهانة. وقد روي عن الخليفة عمر بن الخطاب انه مر على باب قوم وعليه سائل يسأل: شيخ كبير، ضرير البصر، فضرب عمر عضده من خلفه وقال: من اي اهل الكتاب انت؟ فقال: يهودي. فقال عمر: فما الجأك الى ما أرى؟ قال: اسأل الجزية والحاجة والسن! فاخذ عمر بيده وذهب الى منزله فرضخ له بشيء من المنزل ثم ارسل الي خازن بيت المال وقال: انظر هذا وضرباءه (امثاله)، فوالله ما انصفناه ان أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم. انما الصدقات للفقراء والمساكين وهذا من مساكين اهل الكتاب، ووضع الجزية عنه وعن ضربائه. وروى عن نافع عن ابن عمر انه قال: كان آخر ما تكلم به النبي انه قال: احفظوني في ذمتي.

ولكن زيدت قيمة هذه الضريبة في عهد الدولة الاموية، حيث بعث الخليفة معاوية الى عامله على مصر «وردان» ان «زد على كل امريء من القبط قيراطا»، فكتب اليه وردان: كيف ازيد عليهم، وفي عهدهم ان لا يزاد عليهم». وفي عهد عبد الملك بن مروان زادت جزية كل شخص ثلاثة دنانير على ما كانت عليه من قبل.

٣ ـ العشور: اول من شرع منذ هذا النظام الجمركي الخليفة عمر بن الخطاب، وذلك من باب المعاملة بالمثل، فقد اخبره ابو موسى الاشعري ان بلاد الكفار (ارض الحرب) تأخذ من التجار المسلمين فيها العشر، فطلب منه ان يأخذ هو الآخر من تجار ارض الحرب الذين يتاجرون داخل بلاد المسلمين العشر، ومن اهل الذمة نصف العشر، ومن المسلمين ربع العشر، وذلك على البضاعة التي يحضرونها من

دار الحرب الى دار الاسلام، ولم تكن تؤخذ الا اذا انتقل التاجر من بلاده الى بلاد اخرى.

٤ ـ الزكاة او الصدقة: فالزكاة والصدقة شيء واحد، من أزكى الشيء اي نمّاه، او من زكاة اي طهّره. وهذا يعني ان اخراج شيء من مال انسان والتصدق به عن طيب خاطر ينمي هذا المال وينزل فيه البركة، وكذلك يطهره ويبعد عن صاحبه نظرة الحقد والحسد، عملاً بقوله تعالى: «خذ من اموالهم صدقةتطهرهم وتزكيهم بها».

والزكاة ركن من اركان الاسلام، وهي ضريبة فرضها الله تعالى على الاغنياء لتوزع على الفقراء من المسلمين. وكان للصدقة ديوان خاص بها في دار الخلافة له فروع في سائر الولايات.

وتجب الزكاة في النقد من الذهب والفضة، وفي السوائم من ابل وغنم وبقر، ولا زكاة في الخيل والبغال والحمير. وتجب في المحاصيل الزراعية. ويشترط في الزكاة بلوغ المال النصاب، وان يمر عليه حول كامل. وقيمة الزكاة على النقد هي ربع العشر (٢,٥٪). اما زكاة الزرع والثمار ففيها العشر اذا كانت بعلاً (تسقى بماء المطر)، ونصف العشر اذا كانت سقياً، اما زكاة السوائم فان علفها صاحبها فلا زكاة فيها، اما ان كانت تأكل من الكلأ المباح، فزكاة الغنم فيها واحدة من اربعين فما فوق حتى المئة، ومن ١٠١ ـ ٢٠٠ توخذ الزكاة واحدة عن كل مئة. اما الابل فشاة عن كل خمس الى اربع وعشرين، فإن كانت ٢٥ فعليها بنت مخاض، اي عمرها سنة فاقل. والجاموس والبقر فكل ٣٠ عليها واحدة بنت سنة، فاذا بلغت ٦٠ فعليها واحدة بنت سنتين.

وتوزع الزكاة على الاشخاص الذين وردوا في الاية الكريمة: «انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم».

٥ ـ الغنيمة: وهو ما ظفر به المسلمون الى خمسة اقسام، منها اربعة اخماس توزع على المجاهدين، للفارس سهمان، وللراجل سهم واحد. اما الخمس الاخير فيوزع حسب ما جاء في الآية الكريمة السالفة الذكر والتي توضح كيفية توزيع الصدقات.

٦ ـ الفيء: وهو ما ظفر به المسلمون بدون حرب، وكان يقسم الى خمسة اقسام، الخمس الاول يصرف كما جاء في الاية الكريمة نفسها الخاصة بتوزيع الصدقات،

والاربعة اخماس الاخرى كانت في صدر الاسلام تقسم بين الجند لشراء الاسلحة، ومنذ عهد عمر بن الخطاب اصبحت تستعمل نفقة لارزاق الجند ومرتباتهم.

ثانيا: مصارف بيت المال

كانت الاموال تصرف على مصالح الدولة الاسلامية، حسب ما يراه الخليفة مناسبا، وقد كانت تصرف في الوجوه التالية:

١ ـ دفع ارزاق الموظفين كالقضاة والولاة والعمال، ولكن لا يجوز أن تدفع من اموال الصدقة ما عدا ارزاق والي الصدقة.

٢ ـ ارزاق الجند: وكانت في عهد الرسول غير محدودة، وانما كانت من اربعة اخماس الغنيمة، وما يرد من خراج الارض، وكانت حتى عهد ابي بكر رضي الله عنه تقسم بينهم بالتساوي، اما في عهد عمر بن الخطاب فقد جعل العطاء حسب السبق في الاسلام: فكان للعباس وزوجات الرسول ـ ما عدا عائشة ـ عشرة الاف درهم، ولعائشة اثنا عشر الف درهم لمكانتها ومكانة ابيها، ولمن شهد بدراً خمسة الاف.. ولامراء الجيش ٦ ـ ٧ الاف عدا ما فرض لكل واحد من الحنطة، ولنساء المهاجرين والانصار ٢٠٠ ـ ٦٠٠ درهماً. ولكن معاوية زاد في أعطيات الجند بحيث كانت ٦٠ الفا، ولكن لما توطدت دعائم الدولة انقص الامويون ذلك العطاء الى أقل من النصف.

٣ ـ حفر القنوات والترع، واصلاح مجاري الانهار، فكان الحفر يتم على نفقة الدولة، فقد حفر في عهد عمر بن الخطاب الخلجان، وربط النيل بالبحر الاحمر في عام الرمادة (٢٧ هـ)، وسار الامويون على هذا النهج.

٤ ـ النفقة على اسرى المشركين والمسجونين، من مأكل ومشرب وملبس ودفن من يموت منهم.

٥ ـ تجهيز الجيوش بالآلات والمعدات، وتوفير الامدادات التموينية لها.

٦ ـ العطايا والمنح للأدباء والعلماء.

النظام النقدي:

أبقى عمر بن الخطاب على نظام العملات المتداولة في البلاد المفتوحة، والتي كان العرب يتعاملون بها في الجاهلية وصدر الاسلام. فبقيت صورة الصليب منقوشة على الدنانير الذهبية والفلوس البرونزية البيزنطية، حيث لم يكن للعرب قبل الإسلام نقود عربية خاصة بهم، ومن المعروف ان الرسول ﷺ اقر السُكّة على ما كـانت عليه[٦٠]. واستمر التعامل بالدنانير البيزنطية والدراهم الفارسية، بدليل ان الرسول ﷺ زوّج علياً بن أبي طالب من ابنته فاطمة سنة ٢ هـ بمهر قدره ٤٨٠ درهما كسرويا[٦١]. وكان عمر بن الخطاب أول من وحّد وحدة النقد الاسلامي، بحيث جعل قيمة الدرهم الاسلامي ستة دوانق، وأضاف بعض النقوش العربية على العملات الفارسية والبيزنطية. وفي عهد معاوية بن أبي سفيان ضرب دنانير اسلامية عليها صورته، متقلدا سيفه، على نسق الدنانير البيزنطية، وقد تم ضربها في ايلياء (القدس). ولم تعرف عند المسلمين عملة اسلامية خالصة الا في عهد الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان، الذي كان يرى ان ضرب العملات العربية الاسلامية ضرورة لازمة اقتضتها الظروف لتدعيم البناء الاقتصادي والسياسي القوي للدولة العربية الاسلامية، ورأى ان تعريب السكة الاسلامية ضرورة من ضرورات الحكم، حيث تعبر عن سيادة الدولة العربية وتحررها من اي نفوذ أجنبي، وقد عمل على تحقيق الاصلاح النقدي الذي مرّ بمرحلتين، هما:

١ ـ في المرحلة الاولى ضربت الدنانير الذهبية على غرار الفلوس البيزنطية، فبتر أعلى الصليب على وجه العملة، وظهر على شكل حرف T ، وأحيط بعبارة التوحيد المنقوشة بالخط الكوفي، أما على الوجه الثاني فقد أبقى على صورة هرقل وولديه قسطنطين وهرقليوناس.

٢ ـ وفي المرحلة الثانية استبعد عبد الملك بن مروان التأثيرات البيزنطية نهائيا، بأن نقش صورته هو مكان صورة هرقل وولديه، وعلى الوجه الأول نقشت العبارة التالية على حافة الدينار حول عمود الصليب، «بسم الله ضرب هذا الدينار سنة ست وسبعين».

وكان هذا الدينار تمهيداً لظهور الدينار الاسلامي الخالص سنة ٧٧ هـ وكان يتوسطه عبارة : «لا اله الا الله وحده لا شريك له»، بينما كان يدور على الحافة عبارة: «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله». أما الظهر فكان

يتوسطه «الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد» وكان يدور بالحافة: «بسم الله ضرب هذا الدينار سنة سبع وسبعين»[٦٢].

النظام القضائي في العهد الاموي

١ ـ القضـــاء:

هو وظيفة او مهمة الفصل بين الناس في الخصومات والمنازعات، ولم يكن للمسلمين في عهد الرسول ﷺ قاض سواه، فلم يؤثر عنه أنه عيّن رجلا اختص بالقضاء في عهد الدعوة المدنية، ولكن عندما انتشرت الدعوة في الجزيرة العربية وكثرت المشاكل والقضايا، أذن لبعض الصحابة بالقضاء بين الناس على أساس القرآن والسنة الشريفة، والاجتهاد فيما لم يرد فيه نص، ومنهم عمر بن الخطاب، وعلي بن ابي طالب، ومعاذ بن جبل، وعبد الله بن مسعود، وغيرهم، وكان يرسلهم الى الاقاليم البعيدة. وكانت قاعدة الرسول ﷺ في الحكم: البيّنة على ما ادّعى واليمين على من أنكر».

ولما انتشر الاسلام في عهد عمر بن الخطاب، وفتحت البلدان (الشام، مصر، وفارس والعراق) عيّن عليها قضاة مثل كعب بن سور الذي وُلّيَ قضاء البصرة، وشريح الذي ولي قضاء الكوفة، فكان عمر بن الخطاب أول من عيّن قضاة في الولايات الاسلامية[٦٣].

ولما قامت الدولة الاموية سنة ٤١هـ، استمر الخلفاء الامويون على سنة الخلفاء الراشدين في تعيين القضاة على الاقاليم. وكان القاضي يستمد احكامه من مصادر الشريعة الاسلامية: القرآن، والسّنة، والاجماع، والقياس، وكان يشترط في من يتولى القضاء سبعة شروط هي[٦٤]:

١ ـ أن يكون رجلا
٢ ـ أن يكون عاقلا
٣ ـ أن يكون حراً
٤ ـ أن يكون مسلماً
٥ ـ أن يكون عادلا
٦ ـ أن يكون سليم الحواس
٧ ـ أن يكون عالما بالاحكام الشرعية

واستمر القضاة في عهد الدولة الاموية يتمتعون بالحرية في احكامهم كما كان الحال في عهد الخلفاء الراشدين، فلم يتاثروا بميول الخلفاء والولاة، فلم يكن القضاء متاثراً بالسياسة. ولم يكن لميول الدولة واتجاهاتها أي اثر على القضاة، وكان القاضي يعين من قبل الخليفة نفسه، أو من الوالي بتفويض من الخليفة.

واذا كان القضاء في العهد الاموي قد استمر على ما كان عليه في عهد الخلفاء الراشدين من حيث الجوهر، الا أن دائرته قد اتسعت بكثرة القضايا والمشاكل، فأدى ذلك الى تطورات هامة منها: تسجيل الاحكام في سجلات خاصة، وظهور نظام قضاء المظالم، ونظام الحسبة لمساعدة القضاة وتخفيف العبء عنهم.

٢ ـ الحسبة:

هي الامر بالمعروف اذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر اذا ظهر فعله[٦٥]، عملاً بالآية الكريمة: «ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر»[٦٦]، ويرى الماوردي أن الحسبة واسطة بين احكام القضاء واحكام المظالم. وقد بدأ نظام الحسبة منذ بداية الاسلام، وقد كان الرسول ﷺ أول من باشر نظام المحتسب بنفسه، فقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ مر على صبرة طعام (اي قمح) فأدخل يده فيها، فنالت بللا، فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟ فقال: «اصابته السماء يا رسول الله، فقال: افلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غشَّ فليس منّا[٦٧]، وكذلك عيّن الرسول من الصحابة للقيام بعمل المحتسب، فقد عيّن سعيد بن العاص على سوق مكة،و وعمر بن الخطاب على سوق المدينة، وكذلك استمر الخلفاء الراشدون يقومون بعمل المحتسب.

وفي العهد الاموي اتسعت رقعة الدولة الاسلامية، وكثرت مشاكلها، وشغل الخلفاء بالامور السياسية والعسكرية والادارية، فأخذوا يعينون من يقومون بعمل الحسبة ويدعى (المحتسب)، وأصبح نظام الحسبة في العصر الاموي جهازاً كبيراً يتبعه كثير من الموظفين يعاونون المحتسب. وقد اشترطوا في المحتسب عدة شروط، منها: أن يكون مسلما، حراً، بالغا، عاقلا، قادراً. والشرط الاخير مهم جدا لان الحسبة موضوعة للرهبة[٦٨] أي لارهاب الخارجين على النظام العام، وهؤلاء لا يردهم الى الصواب الا قوة الباس. واختلف في شرط الاجتهاد، فبعضهم رأى لزومه، وبعضهم أغفله.

وقد لخص ابن خلدون اختصاصات المحتسب على النحو التالي:

- البحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها.
- حمل الناس على المصالح العامة في المدينة، مثل: المنع من المضايقة في الطرقات، ومنع الحمّالين من الاكثار في الحمل، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وازالة ما يتوقع من ضررها على المارة.

- الضرب على ايدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الابلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين.
- ليس له الحكم في الدعاوى مطلقا، بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش، والمكاييل والموازين.

٣ - المظالم:

وهي سلطة قضائية أعلى من سلطة القاضي والمحتسب، فكانت المشاكل التي يستعصي حلها على القاضي الشرعي يفصل فيها قاضي المظالم[٦٩]. وهي نوع من القضاء المستعجل الذي يحتاج الى سرعة البت في القضايا، ويبدو ان الذي دعا الامويين لاستحداث هذا النوع من نظام القضاء، هو حدوث خصومات بين اطراف غير متكافئة، كأن يكون أحد الخصمين من علية القوم (أمير، وال، ذو جاه،.. الخ)، بحيث يعجز القاضي او المحتسب عن تنفيذ حكمه في حق هذا الخصم، ولهذا كانت شروط قاضي المظالم: ان يكون جليل القدر، نافذ الامر، عظيم الهيئة، ظاهر العفة، قليل الطمع، كثير الورع.

وأول من نظر في مثل هذا لنوع من القضاء رسول الله ﷺ، ولكن هذا القضاء لم يصبح نظاماً، ويأخذ عنوانا، لا في عهد الرسول ولا في عهد الخلفاء الراشدين. لان الناس كانوا متناصفين في الغالب، منقادين للقضاء العادي[٧٠].

ولكن في العهد الاموي، تغير الحال، وضعف الوازع الديني، ولم يعد القضاء العادي كافيا للفصل في جميع المنازعات، فدعت الضرورة الى انشاء نظام قضاء المظالم، وأفرد له الخلفاء الامويون ديوانا خاصاً، يرجع الفضل في انشائه الى عبد الملك بن مروان[٧١]، الذي كان اذا وقف منها على مشكل، أو احتاج فيها الى حكم منفذ ردّه الى قاضيه أبي ادريس الأزدي، فنفذ فيه احكامه لرهبة التجارب من عبد الملك في علمه بالحال، ووقوفه على السبب، فكان ابو ادريس هو المباشر وعبدالملك هو الآمر[٧٢]. كذلك فقد باشر بعض خلفاء بني امية النظر في المظالم بأنفسهم، فيقول الماوردي: «ثم زاد من جور الولاة وظلم العتاة ما لم يكفهم عنه الاّ أقوى الايدي وأنفذ الاوامر، فكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله أول من ندب نفسه للنظر في المظالم، فردها وراعى السنه العادلة وأعادها، ورد مظالم بني أمية على أهلها، حتى قيل له وقد شدّد عليهم في غلظ: «أنا نخاف عليك من ردّها العواقب. فقال: كل يوم أتّقيه واخافه دون يوم القيامة لا وقيته»[٧٣].

كذلك كان قاضي المظالم يقضي بين الافراد والجماعات من الولاة الذين يظلمون ومن عمال الخراج اذا اشتطوا في الجباية، ومن عمال وكتاب الدواوين، وفيما عجر

القاضي والمحتسب عن تنفيذه.

وكانت محكمة المظالم تنعقد غالبا في المسجد برئاسة الخليفة نفسه، واحيانا الوالي او من ينوب عنهما، وكان يجلس محاطا بخمس جماعات، لا ينتظم مجلسه الا بحضورهم وهم:

١ ـ الحماة والاعوان، لردع من يلجأ الى العنف او يحاول الفرار من وجه القاضي.

٢ ـ القضاة والحكام ليستفيدوا مما يصدر من أحكام ويطبقوه على ما يعرض عليهم من قضايا.

٣ ـ الفقهاء للرجوع اليهم فيما اشكل على الخليفة من المسائل الشرعية.

٤ ـ الشهود للادلاء بما يعرفون عن القضية.

٥ ـ الكتّاب لتدوين اقوال الخصوم.

وقضاء المظالم يشبه محكمة الاستئناف في وقتنا الحاضر.

الحركة العمرانية

كان الفن المعماري في عهد الخلفاء الراشدين غاية في البساطة، يتمثل في بيوت من اللبن، وسطوح مصنوعة من سعف النخيل، تكسوها طبقة من الطين، وهي في الغالب تتألف من طابق واحد لها فناء في وسطه بئر، وهي خالية من التزويق والزخرفة.

ولكن نتيجة للفتوحات الاسلامية، زادت الثروة، وامتزجت شعوب جديدة بالعرب، فأدى ذلك الى تأثر العرب بالفن المعماري لهذه الشعوب، فأخذوا عنها ما يتناسب مع طبيعتهم وذوقهم، وانتجوا فنا معمارياً اسلاميا جديداً، أصبح هو الأساس للفنون الاسلامية في سائر الاقاليم، وتجلّى هذا الفن المعماري في المنشآت المدنية والدينية.

اولاً: المنشآت المدنية:

اهتم الخلفاء الامويون بأمور الحياة الدنيوية، وظهر عليهم الترف والابهة، فاهتموا بانشاء القصور المنمقة والمزينة بالزخارف النباتية والهندسية والصور والتماثيل بل تجاوزوا ذلك الى استعمال التصوير في القصور والحمامات. وأكثر الامويون من بناء القصور في البادية، مما يدل على انجذابهم نحو الصحراء حيث التمتع بهدوئها، ولا شك

ان البادية هي التي نبعت منها ملكات العرب الفكرية، وهي مصدر الالهام، ولهذا فان خلفاء بني أمية الذين لم تغنهم حياة الترف واللهو في المدن كانوا يقصدون البادية للتنعم فيها بالراحة والهدوء، او الفرار من الطواعين[٧٤].

ومن أهم قصور الامويين:

١ ـ **قصر المشتى**: بناه الخليفة الوليد الثاني على أنقاض قصر غساني سنة ١٤٥ـ١٤٦هـ ويقع بالقرب من مطار الملكة علياء، ويحيط بالقصر سور خارجي مربع الشكل، تدعمه أبراج نصف دائرية، وفي زواياه الاربعة ابراج اسطوانية، ويبلغ طول كل جانب منه ١٤٤متراً. وهو يتألف من مجلس أمامي مزود بغرف جانبية، وفضاء مركزي كبير يتوسطه حوض ماء. ومزود ببوابة واحدة يكتنفها على كل من الجانبين برج نصف دائري مطول، ويزين الجدران الجانبية واجهة من النقوش الدقيقة.

٢ ـ **قصر عمرة**: بناه الخليفة الوليد بن عبد الملك في الأزرق. تزدان جدرانه بصور اثارت اهتمام الباحثين، تشمل موضوعات متعددة، مثل الصيد، والرقص، والعزف والاستحمام، وفي قاعة الاستقبال صورة الخليفة وهو جالس على العرش، وستة ملوك كتبت القـابهم فوقهم، عرف منهم اربعة هم: كسرى، وقيصر، وإذريق، والنجاشي. وقد تمازجت في هذا القصر الفنون الفارسية مع البيزنطية مع القبطية فقدمت لنا قصراً في غاية الابداع الفني والمعماري.

٣ ـ **قصر هشام**: بناه الخليفة هشام بن عبد الملك شمال اريحا، وهو عبارة عن حمام وغرف للاستراحة، وتعود أهميته لما يحتويه من زخارف فنية ومجسمات بشرية.

٤ ـ **قصر الحير الغربي**: يقع في البادية على بعد ٦٠ ميلا الى الجنوب الغربي من تدمر، وينسب بناؤه الى الخليفة هشام بن عبد الملك. وهو أشبه بالحصن له سور عال مزود بالأبراج.

٥ ـ **مدينة القيروان**: بناها عقبة بن نافع في عهد الخليفة معاوية بي أبي سفيان سنة ٥٠هـ في تونس لتكون قاعدة حربية اسلامية، ومعسكراً ثابتا للمسلمين. وسكنتها بطون مختلفة من العرب كمضر وربيعة وقحطان، بالاضافة الى الفرس والبربر والروم.

٦ ـ **واسط**: بناها الحجاج بن يوسف الثقفي، سنة ٧٤هـ /٧٠٣م، وسميت بهذا الاسم، لأنها تتوسط الاهواز والبصرة والكوفة، وقد بناها الحجاج لتكون مركزاً

لجند الشام حتى لا يضايقوا أهل العراق. وكان نهر دجلة يقسم المدينة الى قسمين فجعل بينهما جسراً من السفن.

ثانيا: المنشآت الدينية:

اهتم الامويون بتجديد المساجد الاولى التي اسست في عصر الخلافة الراشدة مثل جامع البصرة والكوفة والفسطاط، كما اهتموا بتأسيس عدد كبير من المساجد الجامعة.

ـ تجديد المساجد:

بدأ الامويون بتجديد جامع الرسول ﷺ في المدينة، فقد قام الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨هـ /٧٠٦م بتجديد المسجد النبوي، حيث قام بتوسيعه بأن أدخل اليه حجرات زوجات الرسول ﷺ ، فأصبحت مساحته مائتي متر مربع، كذلك جُدِّد جامع البصرة الذي كان من اللبن والطين في عهد معاوية بن أبي سفيان سنة ٤٤هـ / ٦٦٥م. كما تم تجديد جامع الكوفة الذي بني سنة ١٥هـ /٦٣٦م، على يد زياد بن أبيه سنة ٥١هـ / ٦٧٠م. وزيد في مسجد صنعاء الكبير الذي بني سنة ٦هـ في عهد الوليد بن عبد الملك، وكذلك زيد في مسجد عمرو بن العاص الذي بني سنة ٢١هـ /٦٤٢م.

ـ المساجد الجامعة الجديدة:

واعظم هذه المساجد الجامع الاموي في دمشق الذي اقيم بجانب كنيسة يوحنا المعمدان، وقد عمل الخليفة الوليد بن عبد الملك على هدم الكنيسة والجامع القديم، وبناء الجامع الاموي الكبيرة سنة ٨٧هـ /٧٠٦م. ورغم انه تعرض للحريق عدة مرات وجدد عدة مرات فانه ما يزال يحتفظ حتى اليوم بتخطيطه الاسلامي الاموي. وكانت جدرانه مكسوة بزخارف من الفسيفساء الملونة والمذهبة التي تمثل مناظر طبيعية دمشقية.

وكان الخليفة عبد الملك بن مروان قد بنى سنة ٧٢هـ قبة الصخرة المشرفة في بيت المقدس، وهي من أروع العمائر الدينية الاموية. وهي بناء حجري مثمَّن الشكل تتوسطها الصخرة التي قيل ان رسول الله ﷺ أسرى عندها ليلة الاسراء، ومنها عرج الى السماء.

ويعتبر الجامع الاقصى ثالث الجوامع الهامة التي بناها الامويون في بلاد الشام. كان الخليفة عمر أنشأ في تلك الساحة مصلى من الخشب سنة ١٦هـ وما زال للآن يعرف بجامع عمر. ولكن الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان بنى الجامع الاقصى بجانب جامع عمر سنة ٦٥هـ / ٦٨٥م وقيل ان الذي بناه هو الوليد بن عبد الملك. وقد تعرض للتخريب والهدم عدة مرات لا سيما في عهد الصليبيين، وعهد الاحتلال الصهيوني الغاشم.

واقيمت في العصر الاموي مساجد اخرى جامعة نذكر منها: جامع القيروان بتونس (٥٠ ـ ١٠٥هـ / ٦٧٠ ـ ٧٢٣م)، وجامع الزيتونه بتونس ايضا سنة (١١٤هـ /٧٣٢م)، وجامع واسط (سنة ٧٤هـ /٧٠٣م)، ومسجد قصر الحلابات، ومسجد قصر الحيرة الشرقي سنة ١١٠هـ /٧٢٨م، والمسجد الجامع بالاسكندرية المعروف بجامع الألف عمود. وغيرها من الجوامع في مختلف انحاء الاقطار الاسلامية.

الحياة الفكرية والعلمية

كانت معارف العرب قبل الاسلام تتجلى في اربعة انواع هي: علم الانساب، والتاريخ، وتفسير الاحلام، والفلك وعلم التنجيم، وكان لهم دراية بالطب، ولما ظهر الاسلام اهتم بالعلم وحض على تحصيله وطلبه، وكانت عناية المسلمين في صدر الاسلام مقصورة على العلوم الدينية، وهي: القرآن وتفسيره، والحديث وروايته، واستنباط الاحكام الفقهية والفتاوي الشرعية. ولكن في العهد الاموي بدأ الكتّاب العرب يميزون بين العلوم التي تتصل بالقرآن وأطلقوا عليها اسم العلوم النقلية او الشرعية، وبين العلوم التي أخذها العرب عن غيرهم من الامم، واطلقوا عليها العلوم العقلية. وقد صنفها بعض المؤرخين الى ثلاثة مجموعات هي: العلوم الدينية، والدراسات الادبية، والدراسات العلمية.

اولاً: الدراسات الدينية

احتلت المكان الاول لارتباطها بالاسلام. وقد كان القرآن محور الدراسات الدينية، وفيه من البلاغة وأساليب التعبير مالم يكن له شبيه، ولم ينزل دفعة واحدة، بل بالتدريج على مدى عشرين عاماً، وكانت آياته وسوره تدون على رقاع من الجلد والعظام او سعف النخيل، ويحفظوها في صدورهم.

وقد تم جمع القرآن للمرة الاولى في عهد ابي بكر بإشارة من عمر بن الخطاب بسبب استشهاد عدد كبير من حفاظ القرآن في حروب الردة، فجمع على صحف حفظت عند ابي بكر وبعد وفاته وضعت عند حفصة زوجة النبي . وفي خلافة عثمان بن عفان كان الجمع الثاني للقرآن بسبب اختلاف المسلمين في قراءة القرآن، فامر عثمان سنة ٣٠هـ بجمعه في مصحف واحد، وقال للنساخ: «إن اختلفتم في كلمة فاكتبوها بلسان قريش فإنما نزل القرآن بلسانهم»، ثم جمع عثمان المصاحف من الامصار وسلقها بالماء الحار، وابقى على المصحف الموحد لجميع الامصار.

● علم القراءات: يتبر أساس علوم التفسير، ويتناول أساليب قراءة القرآن نتيجة لانعدام التشكيل والتنقيط، ومن أئمة القراءات في المدينة نافع بن عبد الرحمن بن ابي نعيم المدني، وفي مكة عبد الله بن كثير، وفي الكوفة عاصم بن ابي النجود، وفي دمشق عبد الله بن عامر اليحصبي.

● علم التفسير: بدأ هذا العلم في عهد الرسول او مفسر وشارح للقرآن، ثم تولى صحابته هذه المهمة من بعده، ومن اشهرهم عبد الله بن عباس وأول من دّون التفسير في الصحف مجاهد المتوفى سنة ١٠٤هـ ، والحسن البصري المتوفي سنة ١١٠هـ ، ومحمد بن سرين ومكحول الشامي المتوفي ١١٣هـ

● علم الحديث: وهو العلم الذي يبحث في كل ما صدر عن النبي من قول او فعل او تقرير، وهو ما اصطلح على تسميته بالسنة. واول من دون الحديث في صحف عبد الله بن عمرو بن العاص. بإذن من الرسول وقد اخذ الحديث عن صحابة رسول الله، ومنهم السيدة عائشة، وعمر بن الخطاب، وابو هريرة، ثم ظهرت طبقة التابعين الذين اخذوا الحديث عن الصحابة. ولكن اول تدوين فعلي للحديث حدث في عهد الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز، ومن اشهر المحدثين في العصر الاموي سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري بالبصرة (١٦١هـ) وله كتاب «الجامع الكبير»، وابو عبد الرحمن محمد ابن المغيرة (توفي ١٣٦هـ) ومن اشهر المحدثين في العصر الاموي عبد الرحمن بن عمرو الاوزاعي (توفي ١٥٩هـ).

● علم الفقه: وهو العلم الذي يتناول احكام القرآن والسنة، بقصد استخراج الاحكام الطارئة للمسلمين في شؤون دينهم (عبادات) او دنياهم (معاملات)، وهو يرادف التشريع، ومن يقوم به يسمى فقيها. ومعرفة الاحكام التي تأتي عن طريق الاجتهاد تشترط في الفقيه معرفة تامة بعلم التفسير، وعلم القراءات، واسناد السنة الى صاحبها، وعلم الحديث.

لم يظهر الفقه كعلم اول الامر لوجود الصحابة والتابعين، وانما وجد بعد هؤلاء للاجابة على المسائل الشرعية التي ليس فيها نص قطعي او اجماع سابق، وانما اجتهاد على سبيل الالتزام. ومن اشهر الفقهاء في العصر الاموي عبد الرحمن الاوزاعي، وسفيان الثوري.

وانقسم الفقهاء الى مدرستين:

المدرسة المحافظة التي تقيدت بالنص، فراح اتباعها يجمعون المأثورات من فتاوى الصحابة وحفظها، معتمدين على قول الله تعالى: «ولا تقفُ ما ليس لك به علم»، ومن فقهائها: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن مسعود.

المدرسة الثانية التي تاخذ بالاجتهاد وابداء الراي وظهرت في العراق، وبذلك شجعت على استعمال الذكاء والاجتهاد.

ثانياً: الدراسات الادبية واللغوية:

● علم اللغة:

اللغة العربية هي اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، وهي اللغة التي سجل بها روائع الشعر العربي القديم، وكان العرب يتكلمون اللغة الفصحى بالسليقة، ولكن بعد ان اختلط العرب مع غير من شعوب البلاد المفتوحة، وبعد ان دخل الكثير من هذه الشعوب غير العربية في الاسلام، ظهرت الحاجة الى وضع قواعد للغة العربية لتحميها من اللحن والخطأ. ويعود الفضل في وضع النحو العربي من تنقيط وعلامات اعراب الى ابي الاسود الدؤلي الذي سمع قارئا يقرأ:«ان الله بريء من المشركين ورسوله[٧٧] بالكسر، فقال: ما ظننت أن أمر الناس آل الى هذا »[٧٨]، فوضع علامات الاعراب (الضمة والفتحة والكسرة). ويكون ابو الاسود الدؤلي واضع علم النحو. ومنه اخذ الخليل بن أحمد، ويونس حبيب (توفي ١٨٢هـ) ويقال انه أعجميا، وانه كان اعلم الناس بتصاريف النحو[٧٩] كذلك كان الخليل بن احمد اول من وضع معجما في اللغة العربية، وأول من استخرج العروض وحصن به أشعار العرب.

● الشعر: كان الشعر من ابرز مظاهر النهضة الادبية في العصر الاموي، لان الخلفاء الامويين شجعوا الشعراء ليدافعوا عن حقهم في الخلافة، واجزلوا لهم العطاء، فنشأ بذلك الشعر السياسي كوسيلة للدعاية والاعلام، ومن اشهرهم الاخطل وجرير والفرزدق. وكذلك ظهر الشعر الغزلي الغنائي، وكان حامل لوائه عمر بن ابي ربيعة الذي يمثل الحب الاباحي، ثم جميل بن معمر يمثل الحب البريء العذري.

● النثر والقصص: ظهر النثر كعلم في عهد الامويين، وذلك بعد تعريب الدواوين في عهد عبد الملك بن مروان. وقد تحددت نهضة النثر الفني بظهور عبد الحميد الكاتب في أواخر عهد الدولة الاموية، وقد بلغ حد الاعجاب به جداً، قيل فيه: إن صناعة الانشاء بدأت بعبد الحميد الكاتب وقد وجد نوعان من القصص:

أ - القصص العامة وهي نوع من القصص الشعبية التي تلقى في السوق والمقاهي، وتشمل سير الابطال واساطير الامم القديمة.

ب - القصص الخاصة التي كانت تلقى في المساجد والقصور، حتى اصبحت القصص وسيلة من وسائل الدعاية السياسية في عهد الدولة الاموية.

● التاريخ: لم يدون العرب التاريخ الا في العصر الاموي، ذلك انهم كانوا في العصر الجاهلي وصدر الاسلام يعتمدون على الرواية والنقل، ولكن لما ابتعدوا عن بيئتهم، وتفرقوا في البلاد المفتوحة، وعاشوا بين شعوب لا تتكلم لغتهم، ضعفت ملكة الحفظ والذاكرة عندهم فاضطروا الى التدوين وخاصة فيما يتعلق بجمع السير القديمة للرسول وصحابته. وقد ابتدأ التاريخ مع الحديث، حتى قيل انه ابتدأ فرعاً من علم الحديث، حيث جاءت الكتب التاريخية الاولى تجمع بين الحديث والتاريخ، اذ كانت تبحث في سيرة الرسول وغزواته، وتجمع اخبار هجرة المسلمين الاوائل، وتعرف هذه بكتب المغازي. ومن اقدم كتاب المغازي عروة بن الزبير المتوفي سنة ٩٤هـ ، وأبّان بن عثمان بن عفان المتوفي سنة ١٠٥هـ ، وشرحبيل بن سعد المتوفي سنة ١٢٣هـ ، وغيرهم.

ثالثا: الدراسات العلمية:

وهي العلوم اليونانية والاجنبية التي انتقلت الى العرب في عصر الامويين، التي كانت سائدة في البلاد المفتوحة مثل بلاد الشام والعراق، وقد تمثل العرب هذه العلوم والثقافات، ممّاعمل على بعث هذه الثقافات وخاصة الهيلينية. وقد كانت الرها ونصيبين وحران وجند نيسابور مراكز الدراسات اليونانية، حيث كانت مدارسها تدرس علوم الرياضيات والفلك والطب والفلسفة، وقد لعب السريان دوراً مهما في نقل هذه العلوم من اليونانية الى العربية، وقد بدأت حركة الترجمة والنقل هذه في العصر الاموي، وازدهرت في العصر العباسي.

- واهتم الامويون بالطب، حيث كان الطب عند العرب قبل الاسلام بدائيا، يختلط العلاج بالشعوذة، وفي عهد الرسول عرف الطب الوقائي، فقد قال الرسول : اذا وقع الطاعون في بلد وانتم فيها فلا تخرجوا منه، واذا كان ببلد فلا تدخلوها»، واستعمل الطب النبوي العسل، والفصد. واهتم معاوية بن ابي سفيان كثيراً بالطب حيث استعمل طبيبا نصرانيا هو ابو الحكم بن اثال الذي ترجم الكثير من كتب الطب، وابن ابجبر السكندري طبيب عمر بن عبد العزيز، كما ان خالد بن يزيد بن معاوية طلب من جماعة من اليونانيين ان يترجموا الكثير من كتب جالينوس في الطب.

واهتم الامويون بالمؤسسات الطبية لتخريج الاطباء، وكانت على نوعين، البيمارستانات او الكليات العملية للتدريب والتي اول من بناها الوليد بن عبد الملك ٨٨هـ /٧٠٦م وجعل فيها الاطباء واجرى عليهم الارزاق.

والمدارس النظرية التي تدرس العلوم الطبية النظرية.

- واهتم العرب بالكيمياء وكان خالد بن يزيد أول من تعلم الكيمياء على يد الراهب مريانوس وعمل على نقل كتب الكيمياء من اليونانية والقبطية الى العربية، وعمل خالد نفسه في الكيمياء وحاول استخلاص الذهب عن طريق هذا العلم.

الحركات الدينية والسياسية والثورات في العصر الاموي

لقد كان عصر الدولة الاموية عصر نشر الدين الاسلامي في رقعة هائلة من البلدان في مختلف القارات، وكذلك عصر توطيد اركان ودعائم الحكم الاسلامي. كما انه كان عصر نمو الحضارة الاسلامية، وهذه كلها تبعث على التقدير والاعجاب، لا سيما اذا ما علمنا انها حدثت في الوقت الذي كان الامويون يصارعون فيه أعداء أشداء، ناصبوهم العداء، وحقدوا عليهم اشد الحقد، مما جعل الدولة تعيش معظم ايامها في صراع داخلي، والعجيب ان هذه الثورات والاحزاب المعارضة لا يجمعها هدف واحد سوى العداء لبني أمية والقضاء على دولتهم، فكان منها العقائدي الديني مثل الخوارج وثوراتهم، والشيعة وثوراتهم، وبعضها كان بدافع الطموح الشخصي مثل ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث، ويزيد بن المهلب، والمختار بن ابي عبيد الثقفي، وبعضها كان سببه عرقيا مثل حركات الموالي الذين «لم يظهروا كحزب معارض له كيانه واستقلاله، ولكنهم كانوا ينضمون للاحزاب المعارضة للدولة والخارجة على سياستها، ويرون في ذلك متنفسا لهم، وسبيلا الى تحقيق آمالهم في اضعاف الكيان العربي ومحاولة القضاء عليه. وقد عملت هذه الاحزاب والثورات على تكبيد الدولة الاموية خسائر مادية ومعنوية، كان لها الاثر الفعال في ضعفها ووهنها وسقوطها.

وفيما يلي نتحدث عن أهم هذه الاحزاب والثورات المعادية:

اولاً: حزب الشيعة:

سموا بالشيعة لانهم تشيّعوا للخليفة علي بن ابي طالب كرم الله وجهه، وقالوا ان

الرسول قد اوصى بالخلافة لعلي، فظهرت عندهم فكرة «الوصاية» أي أن الخليفة يعيّن بالوصاية وليس بالانتخاب، وظهرت عندهم فكرة «العصمة» للائمة، علي ومن جاء بعده. وقد خطأوا ابا بكر وعمر وعثمان لقبولهم الخلافة مع علمهم ان عليا افضل منهم، كما انهم ألّهوا عليا، فقالوا انه حلّ فيه جزء الهي واتحد بجسده، وبه كان يعلم الغيب، وبه كان يحارب الكفار، وبه قلع باب خيبر، واول من دعا الى تأليهه هو عبد الله بن سبأ.

واهم فرق الشيعة هي الزيدية وهي اقرب الفرق الشيعية للسنة، وهي اتباع زيد بن الحسن بن علي، والامامية وهي عدة فرق اشهرها الاثنا عشرية او الجعفرية نسبة الى جعفر الصادق، والاسماعيلية التي قالت بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق الذي توفي اثناء حياة والده، وبذلك يجب ان تنتقل الخلافة الى ابنه محمد، وليس لاخيه موسى الكاظم.

● ثورة الحسين بن علي: لم يحاول الحسين بن علي القيام في وجه معاوية، ولكن لما توفي معاوية سنة ٦٠هـ تفجرت ثورة الحسين بن علي، ذلك انه كان في المدينة فرفض مبايعة يزيد بن معاوية، واستدعاه أهل الكوفة، وارسل ابن عمه مسلم بن عقيل للكوفة ليستطلع الموقف، وبايعه اهلها، فارسل الى الحسين وطلب منه القدوم. سار الحسين بن علي حتى وصل الى كربلاء، ودارت حرب غير متكافئة بين الحسين وابن زياد قائد قوات يزيد يوم العاشر من محرم سنة ٦١هـ ،قتل اثنائها الحسين رحمه الله مع سائر اصحابه، وقطعوا رأسه وارسلوه الى يزيد، ولم يكن قد بقي من ابنائه الذكور سوى علي زين العابدين.

اثار مقتل الحسين مشاعر بعض من خذلوه وتخلوا عن نصرته من أهل الكوفة، فهزتهم الفاجعة، وعضهم الندم على تقصيرهم نحوه، فلم يجدوا وسيلة يتوبون بها الى الله من هذا الذنب سوى الثأر للحسين بقتل قتلته، فسموا بذلك «التوابين» بزعامة سليمان بن صرد الخزاعي، سار على رأس ثلاثة الاف من التوابين الى الشام لقتل عبيد الله بن زياد قاتل الحسين، فالتقى الفريقان في عين الوردة ودارت معركة غير متكافئة قتل فيها معظم التوابين وزعيمهم، فانتهت بذلك حركة التوابين.

ثانيا: الخوارج:

يقال ان تسميتهم بالخوارج لانهم خرجوا على علي بعد حادثة التحكيم، ويقال لانهم خرجوا في سبيل الله، وقيل ايضاً انهم «الشّراة» لانهم باعوا انفسهم لله.

وأهم فرق الخوارج: **الازارقة** اصحاب نافع بن الازرق، وهي اقوى الفرق، كفرت عليا وجميع المسلمين، وقالت بعدم جواز الصلاة معهم والاكل من ذبائحهم او الزواج منهم. و**فرقة النجدية** أتباع نجدة بن عامر الحنفي، و**الاباضية** اتباع عبدالله بن إباض التميمي، و**البيهسيّة** اتباع ابي بيهس بن جابر، و**الصفرية** اتباع زياد بن الاصفر.

ومن خصائص الخوارج، التشدد في العبادة، والاخلاص لعقيدتهم، والشجاعة والتضحية. وقد قالوا بصحة خلافة ابي بكر وعمر، وخلافة عثمان في السنوات الاولى، وبخلافة علي حتى قبوله التحكيم، واشترطوا في بداية الامر أن يكون الخليفة عربيا، ولكن عندما دخل في مذهبهم الموالي تخلوا عن هذا الشرط وقالوا يستطيع ان يتولى الخلافة اي مسلم، حتى ولو كان عبداً حبشياً.

● ثورات الخوارج: شهر الخوارج السلاح في وجه الدولة الاموية من اول لحظة فثاروا على معاوية قبل ان يغادر الكوفة في عام الجماعة سنة ٤١هـ ، واول من ثار عليه عبد الله بن ابي الحوساء بالنخيلة قرب الكوفة، الا انه قضي عليه بسرعة وفي نفس السنة، ثم خرج حوثرة بن ذراع الاسدي فقضي عليه في نفس السنة، ثم خرج فروة بن نوفل الاشجعي، وفي سنة ٤٣هـ خرج المستورد بن جوين الطائي الذي قتل في معركة ساباط.

منذ ان ولى معاوية زياد بن ابي سفيان البصرة سنة ٤٥هـ ، ازداد الضغط على الخوارج، واتبع سياسة حازمة تجاههم، فلم تقم لهم طيلة ولايته قائمة»[٨١]. ولما تولى ابنه عبيد الله البصرة اشتد في تعقبهم ومعاقبتهم أكثر من ابيه فقتل منهم اعداداً كبيرة، مما اضطر الكثيرين منهم الى الخروج من البصرة، فانحاز قسم منهم الى عبد الله بن الزبير في مكة، الا انهم سرعان ما انشقوا على أبن الزبير لعدم تطابق آرائه مع آرائهم، وعادوا من مكة منقسمين على انفسهم.

وفي اثناء اعلان عبد الله بن الزبير نفسه خليفة في العراق، كلف المهلب بن ابي صفرة لقتال الخوارج فابعدهم عن البصرة، ثم استدعاه مصعب بن الزبير للبصرة ليشترك في محاربة المختار الثقفي سنة ٦٧هـ .

وبينما المهلب يقاوم الخوارج في الاهواز تمكن عبد الله بن مروان استعادة سيطرة الدولة الاموية على العراق بعد مقتل مصعب سنة ٧٢هـ ، فابقى المهلب على حرب الخوارج ومساعدته الى ان تمكن من القضاء على خطرهم، وذلك بأن قضى على مجموعتهم التي بقيادة عبد ربه الكبير، ورحلت مجموعة قطري بن الفجاءة الى طبرستان.

ثم قام شبيب بن يزيد بثورته في شمال العراق في عهد الحجاج بن يوسف، فغرق شبيب بينما كان يعبر احد الانهار وانتهت حركته سنة ٧٧هـ .

وظهرت حركات صغيرة للخوارج في عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ) مثل حركة بهلول بن بشر، وحركة الصحارى بن شبيب سنة ١١٩هـ ، فقضى خالد بن عبد الله القسشري على الحركتين. الا ان اخطر ثورتين للخوارج هما ثورة الضحاك بن قيس الشيباني، وثورة ابي حمزة الخارجي.

فبينما كان مروان بن الحكم يكافح لتثبيت حكمه قاد الضحاك اصحابه باتجاه الكوفة، وانضم اليه بعض الامويين (عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، وسليمان بن هشام) وكاتبه أهل الموصل للسير اليهم فكثر اتباعه حتى صاروا أكثر من مائة الف[٨٢]، الا ان الضحاك قتل في معركة شرسة عند كفر توتا من اعمال ماردين. ثم كانت ثورة المختار بن عوف الازدي الملقب بابي حمزة في حضرموت ثم استولى على مكة والمدينة، ولكنه قتل في معركة وادي القرى سنة ١٣٠هـ . وهكذا قضى مروان بن محمد على حركات الخوارج في عهده، ولكن بعد ان أنهكت قواه، وتكبد خسائر فادحة.

ثالثا : المعتزلة:

هناك آراء مختلفة حول سبب تسميتهم بالمعتزلة، نعرضها فيما يلي:

١ ـ سموا بالمعتزلة لان «واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد» اعتزلا حلقة حسن البصري.

٢ ـ سموا بالمعتزلة لانهم اعتزلوا جميع الاقوال المحدثة حول مرتكب الكبيرة.

٣ ـ سموا بالمعتزلة لقولهم ان صاحب الكبيرة «اعتزل عن المؤمنين والكافرين».

٤ ـ سموا بالمعتزلة لأنهم «اعتزلوا اصحاب معركة الجمل ومعركة صفين» فلم ينحازوا لأي منهم.

تعاليم المعتزلة : تتلخص تعاليمهم في الامور التالية:

١ ـ القول بالمنزلة بين المنزلتين: اي ان مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر.

٢ ـ رايهم في القدر: ان الله لا يخلق افعال الناس، وانما هم الذين يخلقونها، ولهذا يثابون او يعاقبون على افعالهم. وهناك دلائل قرآنية على ذلك:
«انا هديناه السبيل اما شاكرا وإما كفورا».

«فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر».

٣ ـ التوحيد ونفي صفات الله: ليس لله صفات ازلية كالقدرة والسمع والبصر، لأن ذلك تشبيه له بالمخلوق وهذا شرك، ولكن الله سميع وبصير في ذاته.

٤ ـ القول بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ولو لم يرد بهما شرع. فللشيء صفة في ذاته جعلته حسنا او قبيحا.

٥ ـ القول بخلق القرآن: اي ان القرآن هو مخلوق من الله وليس ازليا من ذاته.

رأيهم في الخلافـــة:

الخلافة في نظر المعتزلة لا تكون بالنص وانما بالاختيار، ولهذا فهم يقرون بصحة خلافة ابي بكر وعمر وعثمان وعلي، واختلفوا في أيهما افضل واحق بالخلافة: ابو بكر ام علي؟

ويرون ان احد الفريقين المتحاربين في موقعة الجمل فاسقا بقتاله، ولكن اي الفريقين هو الفاسق؟ فلا يستطيعون تحديده، ولذلك لم ينغمسوا مع أحد الفريقين واعتزلوهما.

وتبرأوا من معاوية وعمرو بن العاص وخطأوهما.

وكان للمعتزلة مدرستان احداهما في البصرة والثانية في بغداد.

وهم الذين خلقوا علم الكلام والمنطق في الاسلام، وحولوا العقيدة الاسلامية البسيطة الى عقيدة فلسفية عميقة.

رابعا : المرجئــــة:

فرقة اسلامية ظهرت بعد اختلاف المسلمين حول الخلافة، وظهور الاحزاب السياسية كالشيعة والخوارج. وهناك عدة آراء في تسميتها بالمرجئة:

١ ـ سمي اتباعها بالمرجئة لان الله آرجأ تعذيبهم على المعاصي، أي أخره عنهم.

٢ ـ وقيل لأنهم يرجئون امر المختلفين المتحاربين في موقعة الجمل وصفين الى يوم القيامة، فلا يقضون بحكم على اي من الفريقين.

٣ ـ وقيل ان الاسم مشتق من أرجأ اي بعث الرجاء والأمل، لأنهم كانوا يؤملون مرتكب الكبيرة، وقالوا لا تضر مع الايمان معصية، ولا تنفع مع الكفر طاعة.

وكانت نواتا بين الصحابة امثال ابي بكرة، وعبد الله بن عمر، اما كحزب سياسي ديني فلم تظهر الا بعد ظهور الشيعة والخوارج.

مبادؤهـــــم:

١ ـ الايمان: هو معرفة الله ورسله والاقرار بهم. فمن قال: لا اله الا الله، محمد رسول الله، فهو مؤمن. وهم يعتقدون ان الايمان يكون بالقلب، وليس شرطا ان يكون بالأعمال الظاهرة.

وهم يقولون ان الخوارج الشيعة والامويين مؤمنون، ولكن بعضهم مخطيء وبعضهم مصيب، ولا نستطيع ان نحدد من هو المصيب ومن هو المخطيء منهم، ولهذا فلنرجيء امرهم ونتركه لله الذي يعرف سرائر الناس.

٢ ـ الخلافة: يرون ان خلافة ابي بكر وعمر وعثمان وعلي صحيحة، وكذلك يرون صحة خلافة الامويين ويؤيدونها ولكن تأييدا سلبيا لا ايجابيا.

خامسا : الزبيريـــــون:

ينسب هذا الحزب السياسي الى عبد الله بن الزبير، أمه اسماء بنت ابي بكر، كان يطمح للخلافة ولكنه لم يفكر في الوصول اليها جديا الا بعد ان أعلن معاوية البيعة لابن يزيد.

صار يشجع الحسين بن علي بالقيام في وجه يزيد والمطالبة بالخلافة لاحقيته من يزيد، فقتل الحسين في معركة كربلاء سنة ٦١هـ/ ٦٨١م.

ثم ان يزيدا اخضع المدينة المنورة بالقوة واباحها للجند ثلاثة ايام، ثم حاصر مكة لاخضاع عبد الله بن الزبير وضرب الكعبة بالمنجنيق حتى تصدعت جدرانهـا بقيادة الحصين بن نمير، وتوفي يزيد اثناء القتال، فتوقف القتال وحاول الحصين اقناع عبد الله للذهاب الى الشام ليأخذ له البيعة، فرفض، فقال له الحصين: يخطيء من يقول انك من دهاة العرب»، وبايع اهل اليمن عبد الله بن الزبير، ثم استطاع مصعب بن الزبير ان يقضي على ثورة المختار بن ابي عبيد الثقفي في الكوفة، فأصبحت العراق كلهـا تحت سيطرة ابن الزبير.

وفي هذه الاثناء تسلم الخلافة الأموية عبد الملك بن مروان، واستطاع استمالة اهل العراق فهزم جيش ابن الزبير وقتل اخوه مصعب، فلم يبق له الا الحجاز، فأرسل له عبد

الملك جيشا بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي فقتله وصلبه سنة ٧٣هـ/ ٦٩٣م بعد ان ضرب الكعبة بالمنجنيق، وبذلك تم القضاء على الزبيريين.

اسباب فشل عبد الله بن الزبير:

١ ـ بخله: فقد عرف بالشح والتقتير وخاصة على الموالي فانصرفوا عنه.

٢ ـ سوء معاملته لاشراف العراق: فعندما جاء اليه اخوه مصعب بعد قضائه على ثورة المختار بوفد من اهل العراق لاكرامهم، اجابه عبد الله: جئتني بعبيد العراق وتأمرني ان اعطيهم المال؟ لا افعل. وايم الله لوددت ان اصرفهم كما تصرف الدراهم بالدنانير، كل عشرة من هؤلاء برجل من اهل الشام.

٣ ـ عدم حنكته السياسية: فقد اضاع فرصة ذهبية في استلام الخلافة دلت على عدم حنكته السياسية، وذلك عندما عرض عليه قائد جيش يزيد الحصين بن نمير أن يذهب معه الى الشام ليأخذ له البيعة.
فقال الحصين: «لقد كذب من زعم انك من دهاة العرب».

٤ ـ اتخاذ مكة عاصمة له والاعتصام بها دون ان يكلف نفسه مشقة الجهاد في سبيل الاحتفاظ بها.

٥ ـ سوء تصرفه مع آل البيت: فقد اخذ يضيق الخناق على محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس واتباعهما.

٦ ـ عجزه عن استمالة الخوارج والشيعة: مما ادخله في قتال معهم فاستنفذ ذلك قسما كبيرا من طاقته وقوته سهلت للأمويين امر التغلب عليه.

٧ ـ اهماله الدعاية والاعلام.

سادسا : ثورة عبد الرحمن بن الاشعث ٨١هـ:

هذه الثورة احدى ثورات اهل العراق ضد الدولة الاموية، التي لم يكن سببها مذهبي، وانما كانت بسبب الكراهية المتبادلة بين قائدها عبد الرحمن بن الاشعث، ووالي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي الذي كان يقول عن ابن الاشعث: «ما رأيته قط الا اردت قتله»[٨٣]. وعندما اعلن رتبيل ملك سجستان العصيان في وجه الخليفة عبد الملك بن مروان اجهز الحجاج والي العراق جيشا كبير العدد، سماه الناس جيش الطواويس[٨٤]، واسند قيادته الى عبد الرحمن بن الاشعث سنة ٨٠هـ. واثناء توغله في

اراضي سجستان، حدث خلاف بينه وبين الحجاج حول استراتيجية الحرب، فاستعان ابن الاشعث بأهل العراق واستشارهم، وبايعوه على خلع الحجاج، وقد شجعه على ذلك استجابة جند العراق، والفقهاء الذين كانوا معه، فعمل ذلك على تأجيج الثورة لمكانة هؤلاء بين الناس وثقتهم فيهم. فاهتز الحجاج لهذه الثورة، وطلب النجدة من الخليفة عبد الملك. الا ان ابن الاشعث الذي اعلن ثورته سنة ٨١هـ هزم كل الجيوش التي ارسلها الحجاج، وتقدم حتى دخل البصرة، فتركها الحجاج وسار الى الزاوية(٨٥)، حيث دارت معركة بينهما في محرم ٨٢ هـ انتصر فيها الحجاج، ولكن ابن الاشعث حقق مزيدا من الانتصارات، والتف حوله عدد كبير من اهل العراق، وتطورت ثورته تطورا خطيرا، حيث تحولت من ثورة على الحجاج الى ثورة على الخليفة عبدالملك، لأن اهل العراق ظنوا ان الفرصة قد واتتهم للتخلص من الحكم الاموي(٨٦)، ودارت بين الفريقين اخطر معركة في «دير الجماجم» في ١٤ جمادي الآخرة سنة ٨٣هـ استمرت مائة يوم، ثم دارت معركة اخرى في مسكن في شعبان من نفس السنة انهزم ابن الاشعث في المعركتين وفر هاربا الى سجستان، حيث القى بنفسه من فوق القصر فمات واخذ راسه الى الحجاج، وذلك سنة ٨٥هـ. وبذلك انتهت اخطر ثورة ضد عبدالملك بن مروان.

سابعا : ثورة يزيد بن المهلب سنة ١٠١هـ:

تشبه هذه الثورة ثورة ابن الاشعث بأن سببها هو احقاد شخصية بين الحجاج ويزيد بن المهلب بن ابي صفرة الذي عينه الحجاج واليا على خراسان خلفا لوالده المهلب الذي توفي سنة ٨٢هـ. غير ان الحجاج صمم على التخلص من اسرة المهلب نهائيا ووضعهم في السجن الى ان توفي الوليد سنة ٩٦هـ واصبح سليمان بن عبد الملك خليفة فارتفع نجمهم من جديد، الا ان الخليفة عمر بن عبد العزيز القى القبض على يزيد ووضعه في السجن الى ان هرب منه اثناء مرض عمر، وذهب الى البصرة حيث التف اهلها حوله ودفعوه لاعلان الثورة دفعا، وسرعان ما اشتدت ثورته، وانضم اليه كثير من الموالي، ومن زعماء القبائل العربية مثل ربيعة وتميم، بل وانضم اليه بعض اهل الشام. الا انه هزم في معركة «عقر» قرب الكوفة في صفر سنة ١٠٢هـ وقتل مع بعض افراد اسرته، فانتهت بذلك ثورته، وانتهت اسرته بعد ان ادت دورا كبيرا في تاريخ الدولة الاموية.

ثامنا : ثورة بني العباس وسقوط الخلافة الاموية

رغم انه لم يسبق لبني العباس المطالبة بالخلافة او السعي اليها، اذ انه لم يعرف عن العباس عم النبي ﷺ ولا عن ابنه عبد الله، ولا عن ابن هذا الاخير علي ان طالبوا

بالخلافة، وانما كانوا يقولون بأحقية علي بن ابي طالب بها، الا انهم استفادوا من الفتن والقلاقل والثورات ضد الخلافة الاموية للقيام بدعوتهم المطالبة بالخلافة، وقد ظهرت دعوتهم هذه بشكل فجائي على يد محمد بن علي بن عبد الله بن العباس مدفوعا لذلك من ابي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية وريث الدعوة الشيعية، الذي اوصى له بالامامة(٨٧) وقد كانت هذه الدعوة من اكثر الدعوات تنظيما وقوة، اذ كان المختار قد اعلنها حربا شعواء على الامويين، ولما آل أمرها الى محمد بن علي جعل هدفها القضاء على دولة بني امية، والمطالبة بالخلافة لبني هاشم، فعمل على تنظيم الدعوة بانشاء مجلس قيادي مؤلف من اثنى عشر شخصا، واكثر من ارسال الدعاة، وخاصة بين الشعوب المسلمة غير العربية الذين كانوا يعرفون «بالموالي» فكسب ولاءها وتأييدها، ولا سيما في خراسان التي كانت مهد الدعوة العباسية، حيث قام ابراهيم بن محمد بن علي بعد وفاة ابيه بالدعوة بحماس في خراسان، وعين لها قائدا شابا فارسيا من اصبهان يدعى عبد الرحمن بن مسلم، وكناه «بأبي مسلم»، الذي اظهر الدعوة لبني العباس في رمضان سنة ١٢٩هـ/ ٧٤٧م، فعقد اللواء والراية اللذين بعث بهما الامام ابراهيم ويدعى الأول الظل، والثاني السحاب، ومعناهما ان الخلفاء العباسيين يظللون الارض الى اخر الدنيا، واتخذ ابومسلم السواد شعارا حزنا على الشهداء من بني هاشم، وبدأ باحتلال الاماكن المحيطة بمدينة مرو الايرانية الى ان تمكن من دخول مرو نفسها في ربيع الآخر سنة ١٣٠هـ/ ٧٤٨م، وغلب على خراسان كلها، وعين العمال، وضرب السّكه. ثم تمكن الداعية العباسي قحطبة من دخول نيسابور والري «طهران» واصفهان، وبعد وفاته خلفه ابنه الحسن الذي استطاع الاستيلاء على مدينة واسط، فدخلها عبد الله ابو العباس بعد ان كان الخليفة الاموي مروان قد قتل اخيه ابراهيم في الحميمة، فبويع عبد الله بالخلافة في ربيع الآخرة سنة ١٣٢هـ/ ٧٤٩م وتسمى بأمير المؤمنين، واستطاع الانتصار على الخليفة الاموي مروان في معركة حامية عند نهر الزاب الأعلى قرب الموصل في جمادي الاخرة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م وهزم مروان الذي هرب الى مصر حيث قتل في قرية بوصير بالأشمونين في ذي الحجة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م. وواصل ابو العباس زحفه نحو دمشق فاحتلها، ووصل الى فلسطين، ولقب بالسفاح. وبذلك تمكنت دعوة بني العباس التي عرفت كيف تستغل اعداء الامويين من القضاء على دولة بني امية معتمدة على الشعوب المسلمة غير العربية وخاصة في خراسان، مما جعل المؤرخين يقولون: بأنّ دولة بني امية عربية، ودولة بني العباس اعجمية(٨٨).

هوامش الفصل الثاني

١ ـ د. عفيف الترك، محاضرات في التاريخ الاسلامي، ص ٤٨.

٢ ـ المرجع نفسه، ص ٤٩.

٣ ـ د. عبد المنعم ماجد، تاريخ الدولة العربية، ج٢، ص

٤ ـ ابن الاثير، الكامل، ج٣، ص ٢٦٠.

٥ ـ د. عفيف، المرجع السابق، ص٤٩.

٦ ـ ابن الاثير، اسد الغابة، ج ٤، ص ٤٠٢.

٧ ـ د. عفيف، المرجع السابق، ص ٥١.

٨ ـ المكان نفسه.

٩ ـ اليعقوبي، تاريخ ، ج٢، ص ٢٥٦.

١٠ ـ ابن الاثير، المرجع السابق، ص ٣٨٧.

١١ ـ ابو الفداء، المختصر في اخبار البشر، ج١، ص ١٨٦.

١٢ ـ اليعقوبي، المرجع السابق، ص ٢٧٦.

١٣ ـ احمد شلبي، موسوعة تاريخ الاسلام، ج٢، ط٥، ص ١١٢.

١٤ ـ البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٦٤.

١٥ ـ مفردها ثغر، وهي كل مكان في ارض العدو في بطن واد او فرجة جبل قرب أرض المسلمين، انظر، عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ج٢، ص ٣٧.

١٦ ـ المكان نفسه.

١٧ ـ يرى ابن الاثير ان القيادة كانت لسفيان بن عوف ومعه يزيد ليشتهي بالباس والنضال في سبيل الله. انظر، ابن الاثير، الكامل، ج٣، ص ٢٢٨.

١٨ ـ البلاذري، المرجع السابق، ص ١٨٩.

١٩ ـ المرجع نفسه، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

٢٠ ـ الطبري، تاريخ الامم والملوك، ج ٤، ص ١٨٥.

٢١ ـ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٨، ص ١٠٣.

٢٢ ـ البلاذري، المرجع السابق، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

٢٣ ـ الطبري، المرجع السابق، ج ٤، ص ١٧٨.

٢٤ ـ احمد شلبي، المرجع السابق، ص ١٢١.

٢٥ ـ يعتقد انها والدة كسيلة. انظر، ماجد، المرجع السابق، ص، نفح الطيب، ج١، ص ١٠٩.

٢٧ ـ احمد شلبي، المرجع السابق، ص ١٢٥.

٢٨ ـ ظهرت هذه التسمية في عهد الموحدين. انظر ابن الاثير، الكامل، ج ٤، ص ١٢٢.

٢٩ ـ عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص ٢٠٤.

٣٠ ـ حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام، ج١، ص ٢٤٧.

٣١ ـ احمد شلبي، المرجع السابق، ص ١٣٤. ماجد، المرجع السابق، ص ٢٢٧.

٣٢ ـ جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٩٩.

٣٣ ـ سورة

٣٤ ـ حسن ابراهيم، الآية المرجع السابق، ص

٣٥ ـ سورة الانبياء، آية ٢٢.

٣٦ ـ رشح الانصار سعد بن عبادة، ورشح ابو بكر عمر بن الخطاب وأبا عبيدة.

٣٧ ـ د. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، ج٢، ص ٢٨٥.

٣٨ ـ سورة طه، الآيات ٢٩ ـ ٣١.

٣٩ ـ ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٢٢.

٤٠ ـ د. السيد عبد العزيز، المرجع السابق، ص ٣٨٦ ، هامش ٣.

٤١ ـ الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ١٦ ـ ١٧.

٤٢ ـ د. عفيف، المرجع السابق، ص ١٤٧.

٤٣ ـ سيد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الاسلامية، ص ٣٦.

٤٤ ـ د. بيضون ١ ملامح ، ص ١٥٢.

٤٥ ـ الفرسخ ثلاثة اميال. بيضون، ص ١٥٢.

٤٦ ـ المكان نفسه.

٤٧ ـ د. عفيف، المرجع السابق، ص ١٤٨.

٤٨ ـ د. حسن ابراهيم، المرجع السابق، ص ٤٦٠.

٤٩ ـ د. عفيف، المرجع السابق، ص ١٤٩.

٥٠ ـ البيضة تعني المجتمع وموضع السلطان ومستقر الدعوة. انظر، الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ٢٨.

٥١ ـ سورة التوبة، آية ٢٩.

٥٢ ـ اي اعطاه شيئا قليلا.

٥٣ ـ الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ١٣٧.

٥٤ ـ ابو يوسف، كتاب الخراج، ص ٢٣.

٥٥ ـ سورة البقرة، آية ٢٦١.

٥٦ ـ سورة التوبة، آية ٦٠

٥٧ ـ صبحي الصالح، النظم الاسلامية، ص ٢٦٨.

٥٨ ـ ابو يوسف، المرجع السابق، ص ١٠٠.

٥٩ ـ الطبري، المرجع السابق، ج٤، ص ١٠٠.

٦٠ ـ الماوردي، المرجع السابط، ص ١٥.

٦١ ـ د. السيد عبد العزيز، المرجع السابق، ص ٢٥٣.

٦٢ ـ المرجع نفسه، ص ٣٩٤. نقلا عن عبد الرحمن فهمي، فجر السكة الاسلامية، ص ٢٩١.

٦٣ ـ فقد ولى ابا الدرداء قضاء المدينة، وشريحان قضاء الكوفة، وكعب بن سور قضاء البصرة...الخ.

٦٤ ـ د. السيد عبد العزيز، المرجع السابق، ص ٣٩٢.

٦٥ ـ الماوردي، المرجع السابق، ص ٢٤٠.

٦٦ ـ سورة آل عمران، آية ١٠٤.

٦٧ ـ صحيح مسلم بشرح النووي، ج٢، ص ١٠٩.

٦٨ ـ الماوردي، المرجع السابق، ص ٢٤٢.

٦٩ ـ المصدر نفسه، ص ٧٤.

٧٠ ـ المصدر نفسه، ص ٧٧ ـ ٧٨.

٧١ ـ نفس المكان.

٧٢ ـ نفس المكان.

٧٣ ـ نفس المكان.

٧٤ ـ ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص ٢٦٢.

٧٥ ـ ابو الفداء، المختصر، ج١، ص

٧٦ ـ سورة الاسراء، آية ٣٥.

٧٧ ـ ، الفهرست، ص ٤٠.

٧٨ ـ المكان نفسه.

٧٩ ـ المرجع نفسه، ص ٤٢.

٨٠ ـ د. عفيف، المرجع السابق، ص ١٦٩.

٨١ ـ محمد النجار، ، ص ٩٣.

٨٢ ـ ابن الاثير، المرجع السابق، ص ٢٤٩.

٨٣ ـ الطبري، المصدر السابق، ج٦، ص ٣٢٧.

٨٤ ـ المصدر نفسه، ص ٣٢٩.

٨٥ ـ المقصود بها زاوية البصرة. انظر، عبد الشافي محمد، العالم الاسلامي في العصر الاموي، ص ٥١٤، هامش ٢٣٦.

٨٦ ـ الطبري المصدر السابق، ج٦، ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.
ـ عبد الله بن العباس كان يلقب «بالبحر» لغزارة علمه.
ـ علي بن عبد الله بن العباس كان يلقب «بالسجاد» لتعبده.

٨٧ ـ بعد أن وضع له السم في اللبن، وشعر بدنو اجله ذهب الى محمد بن علي بن عبد الله في الحميمة بشرقي الاردن، واوصى له بالامامة، لانه لم يكن له عقب. انظر: ابن الاثير، الكامل، ج ٤، ص ١٥٩.

٨٨ ـ ماجد، المرجع السابق، ص ٢٣٨.

الفصل الثالث

الدولة العباسية

- كيف انتقلت الخلافة الي بني العباس
- اهم ميزات الدولة العباسية
- الفتوحات الإسلامية
- النظم الادارية والمالية

اهم الاحداث

- غزو التتار لبغداد

الدولة العباسية

يمكن اعتبار عهد مروان بن محمد (١٢٧ ـ ١٣٢) آخر خلفاء الامويين، بدء سقوط الدولة الاموية وانهيارها، والتمهيد لقيام الدولة العباسية. ففي ذلك العهد شبت الثورات ضد الحكم الاموي في انحاء الشام، ودبت الفوضى في العراق، وتفككت الاسرة المالكة الاموية، وانقسم العرب على بعضهم الى يمنية ومضرية، وازداد اقتتالهم ولا سيما في خراسان، فتصدعت الدولة الاموية، وبدأت طلائع الدولة العباسية في الظهور.

اصل العباسيين: ينتسب العباسيون الى عباس عم النبي، وقد مات في خلافة عثمان رضي الله عنه، مخلفاً عدة اولاد أشهرهم عبدالله الذي أصبح واليا على البصرة في عهد الخليفة علي بن ابي طالب، وقد توفي في خلافة عبدالملك بن مروان، وأعقب اولاداً عدة، اصغرهم علي، وقد، اقطعه الامويون قرية الحميمة قرب معان بالاردن، كما رزقه الله عدة اولاد، وكان اكبرهم نشاطا محمد.

انتقال الخلافة الى بني العباس:

اشتد الشيعة في مقاومة الامويين بعد معركة كربلاء، فقاموا بثورات عديدة محاولين القضاء عليهم، وتنصيب اما من آل علي، وبخاصة آل ابي هاشم بن محمد بن الحنفية (بن علي بن ابي طالب)، فاستدعاه الخليفة الاموي سليمان بن عبدالملك، ولما رأى قوة شخصيته، خشي خطره، فدس له من سمه، وعندما أحس أبو هاشم بدنو اجله سنة ٩٨ هـ تنازل عن حقه في الامامة لمحمد بن علي العباسي، وأعطاه اسماء دعاته، وسلمه رسائل يقدمها لهم.

قوى حزب العباسيين بانضمام الشيعة اليهم، فنظم محمد بن علي الدعوة العباسية، واختار سبعين داعية يرأسهم ١٢ نقيبا، اشهرهم سليمان بن كثير الخزاعي، وقحطبة بن شبيب الطائي، وطلب من الدعاة الدعوة للرضا «من آل محمد» دون ان يذكر اسم الامام خوفاً عليه من بطش الامويين، ولكي يكسب معونة الشيعة. واتخذت الدعوة ثلاثة مراكز لها:

أ ـ الحميمة: الواقعة على طريق القوافل والحج، حيث كان يسهل الاتصال بين الدعاة باسم الحجج او التجارة.

ب ـ الكوفة: مركز التشيع، ومركز الاتصال بين الحميمة والمناطق الاخرى.

ج - خراسان لبعدها عن مركز الدولة الاموية، وللانقسامات القبلية التي سادت البلاد[1].

وضح محمد بن علي بن عبد الله الوضع للدعاة برسالته التالية: «اما الكوفة وسواها فشيعة علي وولده، اما البصرة وسواهـا فعثمانية تـدين بالكف، تقـول «كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل، واما الجزيرة فحرورية مارقة، ومسلمـون في اخلاق النصارى، وأما اهل الشام فليسوا يعرفون الا آل ابي سفيان وطاعة بني امية، واما مكة والمدينة فقد غلب عليهما ابو بكر وعمر، ولكن عليكم بخراسان،فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تقسمها الاهواء، ولم تتوزعها النحل،... وبعد فاني اتفاءل الى المشرق والى مطلع سراج، الدنيا مصباح الخلق»[2]

بدأت الدعوة سرية في باديء الامر، قوامها اثنا عشر نقيبا وسبعون داعيا، وظلت سريةحتى عام١٢٩هـ حين وقع في يد الخليفة مروان بن محمد رسالةموجهة الى احد النقباء «ابي مسلم الخراساني، يأمره الامام ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بتشديد الوطأة على من يتكلم العربية في خراسان. قبض على الامام ابراهيم، ومات في السجن، فتولى الدعوة للعباسيين ابو سلمة الخلال، واتخـذ الكوفـة مركـزاً للدعوة، واتجه ابو العباس (السفاح فيما بعد) وكبار العباسيين الى الكوفة.

وكان محمد بن علي العباسي قد توفي سنة ١٢٥هـ ، فأوصى بالامامة لابنه ابراهيم، وفي سنة ١٢٨هـ تعرف الامام ابراهيم، على ابي مسلم الخراساني، فاختاره نائبا عنه في خراسان، وسرعان ما اعلن الدعوة جهاراً للعباسيين، وأمر الناس بلبس السواد شعار العباسيين.

تمكن العباسيون من احتلال مرو سنة ١٣٠ بقيادة قحطبة بن شبيب، وهـزيمة والي خراسان الامـوي نصر بن سيار، ثم تقدموا فاحتلوا نهاوند وباقي المدن في خراسان وايران.

انتقلت جيوش العباسيين عقب ذلك الى العراق، وتمكنت من احتلال المدن الكبرى واحدة تلو الاخرى، واخيرا فتحوا الكوفة، وتسلم الامر ابو سلمة الخلال، الذي تلكأ في الكشف عن زعماء العباسيين، الا أن ابا العباس السفاح تمكن من اعلان نفسه خليفة، وبايعه الناس سنة ١٣١ هـ/ ٧٤٩م.

حاول الخليفة الاموي القضاء على الحركة العباسية، فتقدم نحو العراق بجيش ضخم، فالتقى مع القوة العباسية بقيادة عبد الله بن علي عم السفاح على ضفاف نهر

الزاب الاعلى سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠م، فدارت الدائرة على الامويين وفر الخليفة الاموي الى فلسطين، ومصر.

تمكن العباسيون من احتلال شمال العراق، وحمص ودمشق، ورفعوا اعلامهم على دمشق، وارسلوا جنودهم لتعقب الخليفة الاموي، فقتلوه في قرية بوصير من اعمال الفيوم سنة ١٣٢ / ٧٥٠، وارسل رأسه الى السفاح بالكوفة[٣]. وتسلم شارات الخلافة، وبذلك انتهت الدولة الاموية.

وقد هرب بعض الامويين الى كانم باقصى المغرب، وبعضهم الآخر الى الحبشة، والاندلس[٤].

اهم ميزات الدولة العباسية

اتسمت الدولة العباسية بمميزات عدة منها:

★ دامت الدولة العباسية حوالي خمسة قرون امتدت من ١٣٢ ـ ٦٥٦هـ ، ٧٥٠ ـ ١٢٥٨م.

★ انتقلت العاصمة من دمشق الى بغداد.

★ ضعف الاسطول العباسي في البحر المتوسط (بحر الروم).

★ ازدهار الحياة الاقتصادية ولا سيما التجارية منها.

★ ضعف الخلفاء العباسيين مما ادى الى انفصال عدد من الولايات البعيدة، ولا سيما الغربية، الا ان مكانة الخليفة استمرت عالية فهو رمز الدولة.

★ استمرار ولاء الدويلات الاسلامية، المستقلة للخليفة العباسي بالاسم، وسك النقود له، والدعوة في الخطبة له، ما عدا الاندلس التي اقامت دولة مستقلة.

★ تباين مميزات الدولة العباسية في عصورها المختلفة ذلك أن المؤرخين قسموا الدولة العباسية الى خمسة عصور اتصف كل منها بسمات تختلف عن بعضها البعض، وهذه العصور هي:

١ ـ العصر الذهبي: وامتد من ١٣٢ ـ ٢٣٢هـ، وقد حكم فيه تسعة خلفاء، وهم السفاح، المنصور، المهدي، الهادي، الرشيد، الامين، المأمون، المعتصم، الواثق، وتميز هذا العصر بما يلي:

امتاز هذا العصر بقوة الخلفاء، فكان مصدر كل قوة كما كان مرجع الاوامر المتعلقة بادارة الدولة، وكان الخليفة مستبدا وفقاً لقول ابي جعفر المنصور «انما انا سلطان الله في ارضه».

اتسمت الدولة بقدرتها على مواجهة الاعداء في الخارج، وحماية الحدود، ووحدة البلاد، فكان المسافر يخرج من خراسان الى مراكش دون حاجة الى تأشيرة.

سيطر الفرس على المراكز الهامة في الدولة، وبخاصة الوزارة قبل ان تتم نكبة البرامكة ايام هارون الرشيد.

امتاز هذا العصر بازدهار الحضارة الاسلامية وتقدم العلوم، ولا سيما في عهد المأمون.

اشتدت حركات الشيعة، والمعتزلة.

ب ـ العصر التركي: ٢٣٢ ـ ٣٣٤هـ ، وقد حكم فيه ١٣ خليفة اولهم المتوكل وآخرهم المستكفي، وقد اتصف هذا العصر بالمميزات التالية:

- استبداد القادة الاتراك بالسلطة،وضعف الخلفاء، فكانوا العوبة في ايديهم، يعينونهم متى شاءوا ويعزلونهم متى ارادوا، ويسملون عيونهم او يمثلون بهم، بل ويقتلونهم احياناً(٥).

- وقد بدأ ظهور قوة الاتراك عندما قام الخليفة المعتصم بتكوين جيش من الاتراك، (وهم من الموالي الذين اشتراهم من اسواق النخاسة) واسكنهم مدينة سامراء لكثرة تعدياتهم على الناس في بغداد، الا ان تسلطهم لم يتجسد الا بعد الخليفة المتوكل الذي اصبح كاسير في ايديهم.

- كثرة هجرة الترك الى بغداد، فعندما سمع الترك المقيمون على الحدود الشمالية بتحكم بني جلدتهم في الدولة هاجر عدد كبير منهم الى العاصمة حيث بلغوا مليون نسمة.

- تقلص سلطة الوزير، وظهور وظيفة امير الامراء فقد ابتدعها الخليفة الراضي الذي قلدها لابن رائق الذي كان يلي واسط والبصرة ليحد من نفوذ كبار القواد، ولكن القادة تنازعوا هذا المركز فازدادت الفوضى، وتقلصت سلطة الوزير.

- اشتداد الفوضى في الدولة العباسية لتنازع اعضاء البيت العباسي على الخلافة، وصراع القادة الاتراك على السلطة، وظهور القرامطة في العراق وسوريا والجزيرة العربية، وقيام ثورة الزنج.

● تقلص رقعة الدولة العباسية، واستقلال بعض الولاة في ولاياتهم، حتى لم يبق بيد الخليفة زمن الخليفة الراضي الا بغداد، فقامت الدولة الحمدانية في الموصل، والدولة الصفارية في سجستان، والطولونية في مصر، والادارسة في شمال افريقيا.

● تدخل النساء في امور الدولة. اصبحت النساء يتدخلن في شؤون الدولة، فكانت ام الخليفة المقتدر تشترك في ادارة الدولة، وتصدر الاوامر والمراسيم باسمها، فاصبح لها هيبة حتى ان الوزراء كانوا يرتعدون لمجرد سماع صوتها، وكانت تجلس في ايام الجمع للمظالم يساعدها عدد من الاعيان والقضاة(٦)، وتسلمت ام الخليفة المستعين السلطة فترة من الزمن، أما ام موسى القهرمانية فكانت ذات سلطة واسعة حتى انها عزلت الوزير علي بن عيسى لتأخره في استقبالها(٧).

● ازدياد نفوذ العبيد الخدم في الدولة، استكثر الخلفاء من العبيد وتحببوا اليهم لكي يخلصوا لهم ويقوموا على حمايتهم، واسندوا لبعضهم رئاسة الجيش.فقد اسند الخليفة المقتدر رئاسة الجيش الى خادمه مؤنس.

● اشتداد غزوات الدولة البيزنطية، ولا سيما محاولة غزو سوريا والجزيرة، وكاد البيزنطيون يحتلون سوريا لولا صمود الدولة الحمدانية.

ج - العصر البويهي ٣٣٤ - ٤٤٧هـ/ ٩٤٥ - ١٠٥٥م

حكم في هذا العصر اربعة خلفاء هم المطيع والطائع والقادر والقائم، ولم يكن لهم من السلطة الا الاسلم، وكانت امور الدولة ومواردها بيد البويهيين، وتميز هذا العصر بما يلي:

- كان البويهيون شيعة وقد جردوا الخلفاء من كل سلطة فقبعوا في قصورهم وتركوا امور الدولة للبويهيين، فقام نزاع على السلطة بين البويهيين والجنود الاتراك، فانتشرت الفوضى، وانعدم الامن، حتى ان احد لصوص بغداد «البرجمي» شكل عصابة فرضت الضرائب على الناس مقابل حمايتهم من اللصوص الذين كانوا ينهبون الاموال، ويقتلون الرجال، ويخطفون الاطفال.
- تأخر الحياة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة لانعدام الامن وانتشار الفوضى.
- انتصار المذهب الشيعي في الدولة، لأنه كان مذهب الحكام البويهيين في بغداد، وقيام الدولة الفاطمية الشيعية في افريقيا، وبذلك اصبح ثلاث خلفاء في العالم الاسلامي،

العباسي في بغداد، الفاطمي في القاهرة، الاموي في الاندلس.

- استقلال اجزاء كثيرة من الدولة، فقامت الدولة الغزنوية في افغانستان، وغربي الهند، وقامت الدولة الفاطمية في افريقيا الشمالية ومصر وسوريا.
- اشتداد غزوات البيزنطيين على سوريا، فاحتلوا شمال سوريا سنة ٩٦٨هـ، وفرضوا الجزية على دمشق سنة ٩٧٥هـ.

العصر السلجوقي ٤٤٧ ـ ٥٤٧هـ/ ١٠٥٥ ـ ١١٥٢م

حكم في هذا العصر ستة خلفاء هم القائم والمقتدي والمستظهر والمسترشد والراشد والمقتضي، واقتصرت سلطتهم على الشؤون الدينية. وقد تميز هذا العصر بما يلي :

- سيادة المذهب السني، فأصبح مذهب الدولة الرسمي، فقد دعمه السلاجقة السنيون حكام البلاد الجدد، ففتحوا المدارس اشهرها المدرسة النظامية، لنشر المذهب السني، كما انشأوا المساجد والربط والخانقاوات والزوايا والمدارس النظامية لتدريس الاسلام خاليا من الشوائب ولا سيما المذهب السني.
- اعاد السلاجقة توحيد الدولة الاسلامية وبخاصة ايام ملكشاه، فامتدت دولته من الصين شرقا الى البحر المتوسط غربا ومن بحر العرب جنوبا الى بحر قزوين شمالا.
- اعاد السلاجقة مجد الاسلام العسكري بطرد البيزنطيين من الثغور والاراضي السورية، واحتلال اسيا الصغرى، وارغام الامبراطور البيزنطي على دفع الجزية.
- قيام الحروب الصليبية، ونجاح الصليبيين في تكوين امارة في انطاكيا، وطرابلس، والرها، ومملكة في بيت المقدس الصليبية.

عصر انتعاش سلطة الخلفاء العباسيين ٥٤٧ ـ ٦٥٦هـ / ١١٥٢ ـ ١٢٥٨م.

حاول الخليفة المقتفي ان يستقل بادارة البلاد عندما ضعف السلاجقة اثر موت السلطان مسعود سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٢م، فكون جيشا واستقل بادارة بغداد، اما باقي أجزاء الدولة فقد استقل بها بقايا السلاجقة، والاتابكة، وكان اقوى الاتابكة شاه خوارزم في الشرق، وعماد الدين زنكي في الموصل وحلب، ثم ابنه نور الدين الذي وحد بلاد الشام ومصر، والغى الخلافة الفاطمية على يد قائده صلاح الدين الايوبي.

ويمتاز هذا العصر بنجاح نور الدين في توحيد بلاد الشام ومصر، والقضاء نهائيا على الدولة الفاطمية، وانتصار صلاح الدين في معركة حطين سنة ١١٨٧م، وعودة الهيبة الدينية للمذهب السني.

بقي العالم الاسلامي منقسما الى دويلات مستقلة مما مهد الطريق الى نجاح المغول في احتلال بغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م.

الفتوحـــات الاســـلامية :

بقيت الحدود بين الدولة العباسية والدول المجاورة ميدانا لنشاط حربي محدود، فقد توقفت الفتوحات الاسلامية، واصبح هدف العباسيين حماية الحدود، وتخويف العدو، والرد على ما قد يقوم به من نشاط، وذلك للاسباب التالية:[٨]

- اتساع رقعة الدول العباسية اتساعا يستلزم جهدا كبيرا للسيطرة عليها، وتأمين حدودها.
- عدم اهتمام العباسيين انشاء اسطول قوي في البحر المتوسط.
- مناوأة أهل الشام للعباسيين، لأنهم استمروا في ولائهم للأمويين.
- كثرة الحركات الداخلية، ومحاولات بعض القادة الاستقلال عن الدولة، فانشغل العباسيون في القضاء على هذه الحركات والمحاولات.

وقد شملت الفتوحات المحدودة الجبهات التالية :

أ ـ الجبهـة الشـمالية :

استمرت الغارات المتبادلة بين العباسيين والبيزنطيين حفاظا على الحدود، ففي عام ١٣٧هـ اغتنم امبراطور الدولة البيزنطية قسطنطين الرابع اوضـاع البلاد غـير المستقرة، واستولى على مدينة ملطية في آسيا الصغرى، فوجه اليه الخليفة المنصور حملة قوية اعادت المدينة، واستمرت الحرب المحدودة بين الطرفين الى ان قبل امبراطور الروم الصلح سنة ١٥٥هـ على ان يؤدي الجزية للمسلمين[٩].

نقض البيزنطيون الصلح سنة ١٦٢هـ، وهاجموا مـدينة مـرعش الاسلاميـة، واحرقوها، فخرج اليهم الخليفة المهدي ووضع حدا لاعتداءاتهم.

وفي عام ١٨١هـ غزا هارون الرشيد بلاد الروم ووصل الى ابواب القسطنطينية، فوافقت الامبراطورة ايريني على دفع جزية سنوية مقدارها ٩٠ الف دينار، الا ان نقفور

استولى على السلطة ونصب نفسه امبراطورا، وطرد ايريني سنة ١٨٧ ونقض الصلح مع المسلمين، وعقد معاهدة مع شارلمان لتقوية مركزه، ارسل نقفور رسالة الى هارون الرشيد جاء فيها: «من نقفور ملك الروم الى هارون ملك العرب، اما بعد، فان الملكة التي كانت قبلي اقامتك مقام الرخ، واقامت نفسها مكان البيدق، فحملت اليك من اموالها ما كنت خليقا بحمل امثاله اليها، ولكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فاذا قرأت كتابي، فاردد ما حصل قبلك من اموال، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك، والا فالسيف بيننا وبينك» رد الرشيد الكتاب وكتب على ظهره«بسم الله الرحمن الرحيم من هارون الرشيد امير المؤمنين الى نقفور كلب الروم، لقد قرأت كتابك، والجواب ما تراه دون ان تسمعه، والسلام».. وقام بغزو بلاد الروم حتى وصل هرقله، ففتحها، مما اجبر نقفور على دفع الجزية، الا ان نقفور نقض العهد، فعاد الرشيد ثانية واقتحم هرقله، والطوانه، فدفع نقفور البيزنطي جزية مقدارها ٥٠ الف دينار سنة ١٩٠هـ.

هدأت الحرب بين المسلمين والبيزنطيين فترة من الزمن الى ان قام الامبراطور البيزنطي تيوفيل سنة ٢٢٣هـ بالاغارة على زبطره، وملطية، واسر الرجال والنساء المسلمين وسمل عيونهم، وقطع اذانهم، فاستغاثت احدى النساء المسلمات بالمعتصم «وامعتصماه»، وما ان علم الخليفة المعتصم باستغاثة المرأة حتى قاد جيشا قوامه ٢٠٠ الف جندي فاقتحم انقره في ٦ رمضان سنة ٢٢٣هـ، واحتل عمورية مسقط رأس الامبراطور تيوفيل، واسر عشرات الالاف، وقد مدح ابو تمام الخليفة المعتصم بقصيدة مطلعها.

السيف اصدق انباء من الكتب　　　في حده الحد بين الجد واللعب

وكان فتح عمورية خاتمة الفتوحات الاسلامية التي قام بها العباسيون.

ب ـ الجبهة الشرقية :

وجه الخليفة المهدي حملة الى الهند سنة ١٥٩هـ فتحت باريد وحصن شمالا في خراسان، كما قامت بعض القبائل العربية بنشر الدين الاسلامي شمال القوقاز وبين ساحل بحر قزوين وساحل البحر الاسود وشبه جزيرة القرم، فاسلم الشيشان والجركس والداغستان، ما بين سنتي ١٦٠ ـ ٢٠٠هـ، وكانوا يعبدون النجوم والاشجار.

ج ـ جبهة البحر المتوسط :

قام المسلمون بحماية سواحل الدولة العباسية في البحر المتوسط، كما قاموا

بمحاولات لفتح جزر البحر المتوسط وجنوب ايطاليا.

فتح جزيرة كريت: قاد ابو حفص عمر بن شعيب احد المهاجرين الاندلسيين اسطولا من اربعين سفينة سنة ٢١٢هـ، واستولى على الجزيرة دون مقاومة، واسس مدينة كنديا، ودام حكم ابي حفص للجزيرة الى منتصف القرن الرابع الهجري حين تمكن البيزنطيون من استرجاعها.

فتح جزيرة صقلية: طلب القائد البيزنطي اوفيمي مساعدة المسلمين الاغالبة لدى تمرده على دولته، فانجده اسد بن الفرات بحملة بحرية الى شواطيء صقلية سنة ٢١٢هـ/ ٨٢٧م، ثم اتجه الى سر قوسه ولكنها قاومته، فاحتل مدينتي جرجنت، وقصريانه في السنة التالية، وما ان وصلت نجده بقيادة محمد بن الاغلب حتى احتل المسلمون مدينة بلرم، وفي سنة ٨٧٨م استسلمت مدينة سرقوسه للمسلمين، وقد حكم المسلمون الجزيرة حكما عادلا، فاهتموا بالتجارة والزراعة والصناعة، واقاموا المدارس، ولكن المسلمين لم يتدخلوا في شؤون السكان الداخلية.

فتح جنوب ايطاليا: وقعت حرب بين امارة نابلي واحدى الدوقيات اللومباردية، فطلبت مساعدة حاكم «بلرم» المسلم، فارسل اسطولا لنجدتها، وما لبث المسلمون ان استولوا على برنديزي سنة ٨٤٠م، فتدخلت البندقية، ولكن المسلمين هزموها، واحتلوا ميناء باري سنة ٨٤١م، كما هاجموا روما سنة ٨٤٦م، الا ان النزاع القبلي اضعف مكانة العرب وحد من نشاطهم العسكري، واوقف فتوحاتهم، بل وادى الى فشلهم في مواجهة الفتح النورماندي لجنوب ايطاليا وجزيرة صقلية في اواسط القرن الحادي عشر.

النظم الادارية والمالية

النظــام السياســي :

الخلافــــة :

انتقل الحكم الى العباسيين اثر هزيمة الامويين في موقعه الزاب عام ١٣٢/ ٧٥٠م، وسرعان ما استبد الخلفاء العباسيون بالسلطة، واحتجبوا عن الرعية، واتخذوا الوزير والسياف وتلقب الخليفة بلقب امام، وارتدى برده الرسول ﷺ على اعتبار انه نائب المسلمين.

سار الخلفاء على العهد بالخلافة لاولادهم، ولاكثر من واحد، فقد عهد هارون الرشيد لاولاده الامين والمأمون والمعتصم. فقامت الفتن وكثرت المنازعات وضعفت الدولة، ضعف مركز الخلافة بعد المتوكل وأصبح الخليفة العوبة في يد القادة العسكريين.

الـــوزارة :

اخذ العباسيون نظام الوزارة عن الفرس الساسانيين، واصبح الوزير ساعد الخليفة الايمن، ينوب عنه في حكم البلاد جامعا في شخصه السلطتين المدنية والحربية.

واذا رشح شخص لتقلد الوزارة حمل اليه كتاب الخليفة، وسرعان ما يمثل بين يدي الخليفة بعد أن يرتدي لباس التشريفة، ثم يمتطي الحصان الى دار الوزارة، فاذا ما وصل ترجل وسط مظاهر الاحتفال، ثم يقرأ سجل تعيينه.

وقد اطلق على مجلس حكومة الخليفة اسم ديوان العزيز، وهو اشبه بمجلس الوزراء حاليا، وكان الوزير (رئيس الديوان) يمثل رئيس الوزراء في الوقت الحاضر، ويتبعه رؤساء الدواوين الاخرى.

وكان ابو سلمة الخلال اول الوزراء العباسيين واخرهم مؤيد الدين بن العلقمي، ومن اشهر وزراء العباسيين يحيى البرمكي الذي صار بيده الحل والعقد في كل شؤون الدولة، ثم خلفه ابنه جعفر الذي عظم نفوذه في عهد الرشيد، وقد غضب عليه الرشيد، وقتله لمحاولة استئثاره بالسلطة.

انقسمت الوزارة في عهد العباسيين الى قسمين :

ا - وزارة التنفيـــذ :

حيث ينفذ الوزير اوامر الخليفة ولا يتصرف في شؤون الدولة من تلقاء نفسه، فلا يبرم شيئا الا بموافقة الخليفة.

ب - وزارة التفويض :

وفيها يعهد الخليفة بأمور الدولة كلها الى الوزير، وله حق التصرف في شؤونها دون الرجوع اليه، «لقد كتب الخليفة الى يحيى البرمكي قلدتك امر الرعيه واخرجته من عنقي اليك، فاحكم في ذلك ما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، واعزل من رأيت، وامض الامور على ما ترى» ثم سلمه خاتم الخلافة.

ضعفت الوزارة بموت الخليفة الراضي سنة ٣٢٩هـ/ ٩٤٠م، وذلك لاضطراب امور الدولة، وتسلط الاتراك السلاجقة وبني بويه على الدولة، وتلقبهم بلقب سلطان او

امير الامراء، فاصبح الوزير اشبه بكاتم سر خاص للخليفة، في حين تركزت السلطة في يد امير الامراء.

كان الوزير يشرف على الجهاز الاداري للدولة، ورئاسة الجيش، وتنظيم مالية البلاد، وكانت الصلاحيات تختلف باختلاف قوة الخليفة، فقد بلغ الوزير الاوج في عهد الخليفة هارون الرشيد، فقد قلد وزيره يحيى بن خالد البرمكي أمر الرعية، وشؤون الدولة.

ضعفت مكانة الوزير في العصور العباسية التي تسلط بها القادة الاتراك والبويهيون والسلاجقة على امور الدولة، ولم يبق للوزير الا الاسم، وسيطر امير الامراء على الحكم مباشرة.

الحجابة :

اتخذ العباسيون الحجاب، وارتفعت مكانة الحاجب، واصبحت دون مرتبة الوزير، واصبح يستشار في كثير من امور الدولة، واستبد البعض بالنفوذ دون الوزير، وازداد عدد الحجاب ليحولوا دون مقابلة الناس الخليفة بسهولة، فاحدث العباسيون حاجبين، احدهما ينظم دخول العامة، وآخر ينظم مقابلة الخليفة في دار خاصة.

الكتابة :

كان مركز الكاتب هاما، فكان يراس ديوان الرسائل الذي يعد من اهم واخطر دواوين الدولة العباسية، وكانت مهمة صاحبه، اذاعة البراءات والمراسيم، وتحرير الرسائل السياسية، وختمها بخاتم الخلافة بعد اقرارها من قبل الخليفة ووضعها في الصيغة النهائية، كما كان يتولى مكاتبة الملوك والامراء، وكان الكاتب يجلس مع الخليفة في مجلس القضاء للنظر في المظالم.

وكان الوزير يتولى ذلك احيانا، بل ان الخليفة كثيرا ما كان يتولى ذلك بنفسه، فقد أُثر عن الخليفة المنصور العباسي انه لما جاءه كتاب محمد بن عبد الله بن الحسن العلوي، اجابه بنفسه، وقال لكاتبه «اذا تقارعنا على الاحساب فدعني واياه».

اعتاد الخلفاء ان يختاروا كتابهم من رجال الادب، الذين عرفوا بسعة العلم، ورصانة الاسلوب، لحرصهم على أن تدون الرسائل باسلوب بليغ، واشتهر من الكتاب في العصر العباسي الاول، يحي بن خالد البرمكي، والفضل بن الربيع في عهد الرشيد، والفضل والحسن ابنا سهل في عهد المأمون، والحسن بن وهب في عهد المعتصم والواثق، واشتهر في العصور العباسية اللاحقة محمد بن عبد الملك الزيات.

النظام الاداري

الولايات وادارتهـــا:

كان نظام الحكم في العصر العباسي الاول مركزيا، وبذلك تقلص نفوذ الولاه، وكان يوجد الى جانب الولاة موظفون، كل حسب اختصاصه، فهناك صاحب البريد، والقاضي، وصاحب المال، وكانت صلاحيات صاحب البريد تشمل نقل الرسائل ومراقبة الولاة، اذ كان مرتبطا بالخليفة ويرسل اليه يوميا دسعر الحبوب، وكل ماكول،وكل ما يقضي به القاضي، وبما يعمل به الوالي، وبما يرد بيت المال من الضرائب والمال، وكل حدث.

ولم تختلف التنظيمات الادارية عما كانت عليه زمن الامويين الا من حيث اختلاف تقسيم الولايات.

ولما ضعفت الدولة العباسية استبد العمال (الولاة) واستقل بعضهم، وجمعـوا الاموال على حسب هواهم.

أنواع الولايات. الولايات نوعان عامة وخاصـــة، والعامــة او لديه استكفـاء او استيلاء.

أ ـ الامارة العامـــة:

امـــارة التفويـض والاستكفـاء: وهي التي يفوضهـا الخليفة الى احـد رجاله الاكفاء، فيفوض للوالي امارة منطقة ويجعله مفوضا في كل الامور، مثل تدبير الجيوش وتقليد القضاة، وجباية الصدقات، واقامة حدود الشرع وحمـاية الدين، والامـامة في الصلاة، والجهاد وقسمه الغنائم في المقاتلة، ، (اذا كانت المنطقة المشار اليها متاخمة للعدو).

وكان الوالي اذا لمس ضعفا في الحكومة الركزية استقل بالأمـر، مثل استقـلال الاغالبة في افريقيا، وبنو طاهر في خراسان، وابن طولون في مصر.

امارة الاستيلاء: ويراد بها ان يعقد الخليفة لأمير على اقليم اضطرارا بعد ان يستولي عليه الامير بالقوة، فكان الخليفة يشتبه في امارته، ويفوض اليه تدبير سياسته، فيكون الامير مستبدا بالسياسة والتدبير، ومن هذه الامارات الحمدانية، والاخشيدية، والبويهية.

وكانت هذه الامارات تدعو للخليفة على المنابر وتضرب السكة باسمه، وترسل اليه مالا ينفق عليه، وكان الحكم وراثيا.

ب ـ الامارة الخاصـــة:

وهي التي تكون سلطة الوالي فيها عسكرية وادارية فقط، اذ كان الخليفة يعين في هذه الامارات القضاة، وجباه يجمعون الخراج لحساب بيت المال المركزي، والامارات الخاصة كانت قليلة في الدولة العباسية، ولكنها كثيرة في الدولة الاموية.

الدواوين:

تعقدت الحياة، وتشعبت الامور الادارية في العهد العباسي، فانشئت دواوين جديدة تناسب تطور الحياة، ومن اهم هذه الدواوين:

★ ديوان العزيز وهو مجلس الخليفة، يرأسه الوزير.

★ ديوان الزمام: ويشبه صاحبه وزير المالية اليوم اذ يجمع الواردات والنفقات، ويوازن بينهما، كما يشرف على دواوين الازمة في الدولة، وكان (زمام الازمة) يشرف على كل الدواوين للدولة ويشبه ديوان الحسابات العامة اليوم.

★ ديوان الغلمان والموالي: ويسجل فيه عبيد الخليفة ومواليه.

★ ديوان الجهبذة، ويسجل فيه ما يجبى من أموال من أهل الذمة.

وهناك دواوين اخرى كثيرة كانت معروفة ايام الامويين، مثل ديوان الخراج، والخاتم، والرسائل والبريد والشرطة و.. الخ...

النظام القضائي:

اتسعت الدولة العباسية، وعين القضاة في كل المدن، وحصلت تطورات هامة في القضاء ايام العباسيين اهمها.

★ اتساع سلطة القاضي، اذ كانت تضاف اليه احيانا الشرطة والمظالم والحسبة، وتنصيب الاوصياء، والاوقاف.

★ نشوء المذاهب الاربعة، وهي الحنفي (أهل الرأي والقياس)، المالكي (أهل الحديث)، ومذهب الشافعي (جمع بين الحديث والرأي) والحنبلي (أعتمد على الحديث) وقد اصبح القاضي ملزما بان يصدر احكامه وفقاً لاحد هذه المذاهب الاربعة.

★ تدخل الساسة في القضاء.

★ احداث منصب قاضي القضاة، وكان يقيم في بغداد وله نواب عنه في الاقاليم، واول من لقب بهذا اللقب «ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم» صاحب كتاب الخراج في عهد هارون الرشيد.

★ فساد القضاء في العهد الاخير من الدولة العباسية اذ اصبح على القاضي ان يقدم مبلغاً من المال لذوي السلطة.

ولاية المظالم: اعتنى العباسيون بالمظالم عناية كبيرة في العصر الاول، واتخذوا بيتا له شباك حديد على الطريق، تطرح فيه المظالم، وكان الخليفة المهدي مثلا يدخله وحده فيأخذ ما يقع فيه من شكاوي وينظر فيها بنفسه، وفي العصر العباسي الثاني فوض الخلفاء احد اعيان المسلمين النظر في المظالم.

الحسبة:

عرفت الحسبة في العهد الراشدي والاموي، ولكن المؤرخين اجمعوا على انه عُين موظف مخصوص للحسبة في العهد العباسي، اذ جاء في تاريخ الطبري ان الحسبة عرفت أيام الخليفة المنصور «ان رجلا كان يقال له ابو زكريا، يحي بن عبد الله، ولاه المنصور حسبة بغداد والاسواق عام ١٥٧هـ».

والحسبة منصب ديني، كثيرا ما كانت تجمع الى القضاء، يقول ابن خلدون «ان الحسبة خادمة لمنصب القضاء، وكان القاضي في مصر والمغرب والاندلس يولي فيها باختياره من يقوم عليها. وكانت اعمال المحتسب تشمل نواحي ادبية واخلاقية ودينية وعمرانية، منها:

مراقبة التجارة وارباب الحرف، من اطباء ومعلمين، وبائعي حلوى وخبازين ويمنعهم من الغش او التلاعب بالاسعار.

مراقبة الاخلاق العامة، كمنع الرجال من لبس الحرير، ومنع اللاعبين بالنرد، ومنع التعرض للنساء..

مراقبة العبادات: مراقبة المسلمين في صلواتهم، ومنعهم من الافطار في رمضان.

مراقبة الابنية والدور، وهدم الابنية التي تبرز في الطرقات، ومنع فتح النوافذ المشرفة على الجيران، وهدم البيوت المتداعية.

ويقوم المحتسب باعمال اخرى كالرفق بالضعفاء، ومنع السادة من ضرب عبيدهم، واجبار اصحاب البهائم الرفق بها، والسهر على الاطفال اللقطاء.

وكان المحتسب يتلف البضائع الفاسدة، ويمنع التاجر الغشاش من العمل، وكان الغشاش يركب على جمل او على حمار ويطاف به في الاسواق ليعرفه الناس.

البريد:

لم تعرف الدولة الاسلامية البريد بمعناه اليوم، بل كان البريد عندهم خدمة خاصة بالدولة، فكان لها في كل ناحية عامل بريد يرسل اليها بنظام رسائل وتقارير عن الاحوال العامة، وعن موظفي الدولة، وكيف يقومون بعملهم، وكان لعمال البريد خيل وسعاة لارسال رسائلهم الى مركز الخلافة مباشرة.

وكانت لخيل البريد طرق ممهدة محروسة، وعلى مراحل منها قامت مراكز البريد، وفيها خيل ورجال لمتابعة السير ريثما تستريح الخيول القادمة ورجالها، وهكذا كانت الرسائل تصل بسرعة معقولة، وخاصة من عواصم الاقاليم الى مركز الدولة.

وكان معظم البريد منصباً على عمال الدولة، وموظفيها وشؤونها المالية دون تدخل في شؤون الناس، وكان البريد يصل الى ديوان الرسائل، المسؤول عن شؤون البريد في جميع الدولة.

وكان البريد ينقل بوسائل عدة منها:

النقل البري، ويعتمد على السعاة في نقل البريدويستخدمون الخيول لايصال البريد بسرعة.

النقل الجوي، ويعتمد على الحمام الزاجل.

النقل المائي، ويعتمد على السفن.

وقد ارتقى البريد ايام العباسيين، ويبدو انهم حرصوا على ايصال الرسائل بسرعة، فقد كان البريد يصل في ثلاث ساعات من طرابلس الى الاسكندرية، وكان للبريد محطات تسمى السكك كانت تزود بالخيل في كل سكة من سكك البريد على بعد ثلاثة أميال او ستة أميال[١٠].

الشرطة:

ازدادت سلطة صاحب الشرطة في العهد العباسي، حتى أُعطي ايقاع العقوبات في

الجرائم، وكانت اعمال الشرطة تشمل:

حفظ النظام، ومنع الفوضى في الاماكن العامة، ومراقبة اللصوص والاشرار.

مراقبة الحانات لمنع المخالفات.

تنفيذ اوامر السلطان، والقضاء، لاستحضار المجرمين لمحاكمتهم.

ادارة السجون، واتخاذ سجل تذكر فيه أسماء المساجين وسبب سجن كل منهم.

وقد جاء في كتاب سلوك المالك في تدبير المماليك الذي الفه ابن الربيع للخليفة المعتصم، الصفات التي يجب توفرها في صاحب الشرطة، فقال «ينبغي ان يكون حليما مهيبا دائم الصمت طويل الفكر، بعيد الغور... وان يكون شديد اليقظة ظاهر النزاهة... قليل التبسم غير ملتفت الى الشفاعات... واذا افرج عن احد من السجن ثم عاد بجرم فليجعل الحبس قبره... وان تكون عقوبة الخاص والعام واحدة كما امرت الشريعة».

النظــام المــالي :

حاول العباسيون ضبط الاموال، والحد من النفقات وزيادة الموارد، والاعتناء بشؤون الزراع لايجاد توازن بين الدخل والنفقات، والحد من الازمات المالية التي كانت تواجه الدولة الاموية في اواخر عهدها.

وكــانت مـوارد بيت المــال هي نفس المـوارد التي كــانت معـروفــة في الدولة الاموية، وتشمل :

- الخراج، والضرائب التي تجبى من ارباب الحرف والصناعات، ومن التجار، وكذلك الاعشار.
- الجزية التي يدفعها اهل الذمة.
- الزكاة على المال والزروع والمعادن والتجارة.
- الفــيء الغنيمــة.
- نظام الالتزام، يقول المقريزي(١١) ان خلفاء بني العباس كانوا يقطعون من ارض مصر النفر من خواصهم، ويصرف منه اعطية الجند، وسائر الكلف، ويحمل ما يفضل الى بيت المال، لقد كان خلفاء العباسيين يقطعون بعض اعيان دولتهم قطائع من الارض يعمرونها، ويسكنونها مكافأة لهم على خدماتهم الجليلة.

- المال الذي يؤخذ من تركة من يموت دون ان يترك وارثا له، حيث يؤوله ميراثه الى بيت المال، وكان هذا مقصورا على المسلمين[١٢]

- مصادرات الامراء والوزراء وكبار رجال الدولة[١٣].

لقد عني الخلفاء العباسيون بشؤون الزراع، فالغى الخليفة ابو جعفر المنصور الضريبة التي كانت على الحنطة والشوفان، واحل محلها نظام المقاسمة، وهو دفع الضرائب بنسبة خاصة من المحصول.

وقد اصبح العباسيون يجبون على الارض بالطرق التالية:

- المحاسبة وهي اما ان تكون نقدا أو نوعا او هما معا.

- المقاسمة: وهي ضريبة تؤخذ من المحصول.

- المقاطعة: وهي ضريبة تجبى وفق اتفاقات معينة بين الدولة والسكان، وكثيرا، كان البعض يعفى من دفع الضرائب.

لقد زاد دخل الدولة العباسية في عهود اليسر، وكانت خزائن العباسيين تفيض بالاموال، حتى بلغت ايام هارون الرشيد ما يقرب من ٤٢ مليون دينار، عدا الضرائب العينية التي تؤخذ من المحصول، وقيل ان الرشيد كان يستلقى على ظهره، وينظر الى السحابة المارة، ويقول اذهبي حيث شئت، فسياتي خراجك.

وقد ناط هارون الرشيد بالقاضي ابي يوسف صاحب الامام ابي حنيفة ان يضع كتابا يبين فيه الطريقة المثلى لتنظيم جبايه الخراج وغيره من الموارد، فوضع «كتاب الخراج» تناول فيه موارد بيت المال، وطرق جبايتها، والواجبات التي يقوم بها بيت المال وقسم موارد الدولة الى ثلاثة اقسام:

- خمس غنائم الحرب والصدقات.

- الخراج، والعشور.

- الجزية على اهل الذمة.

وكان المال الذي يجمع ينفق على مصالح الدولة من ارزاق القضاة والولاة وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين، والجنود وكري الانهار واصلاح المجاري، وحفر الترع والنفقة على السجون، وغيرها من الخدمات التي تقدمها الدولة، كشراء الاسلحة، وتوصيل الماء الى الاراضي البعيدة.

تناقص دخل الدولة العباسية في العصر العباسي الثاني، لكثرة الفتن الداخلية، وانفصال عدد من الولايات واستقلالها، وكثرة النفقات والفساد، فتعرضت ميزانية الدولة الى الافلاس مرات عديدة، واضطر الحكام الى فرض ضرائب جديدة على السكان، وقامت ازمات مالية، وتعرض النقد الى الضعف، فقل وزن الدينار الذهبي الذي كان يسك في بعض الدول، ولكن الحكام كانوا حريصين على اعادة الامور الى نصابها كلما سمحت لهم الفرصة.

النقود الإسلامية :

كانت المعاملات تقوم على اساس الدينار الذهبي والدرهم الفضي، وقد اختلفت اوزان الدنانير الذهبية، الا انها لم تزيف على الرغم من الازمات المالية المتعاقبة، لأن الناس كانوا يجتهدون في الحصول على الدنانير للادخار، فكانوا يفحصونها فحصا دقيقا قبل شرائها، وكان الدينار الزائف يختفي من السوق بسرعة، وكانت الدنانير الذهبية اساس التعامل في مصر وما يليها غربا حتى الاندلس، اما الشام وما يليه شرقا فكان اساس التعامل فيها الدرهم الفضي.

لقد كانت الدراهم تغش احيانا لأن الفضة لا بد ان تخلط بالنحاس او البرونز حتى يصلب قوامها وتصلح للمعاملة، فكان المشرفون على دار السكة ينقصون من كمية الفضة في الدراهم احيانا، ولهذا اختلفت قيم الدراهم الفضية بالنسبة للدنانير.

الاحداث الهامة :

قامت احداث هامة في الدولة العباسية، منها :

الثورات والحركات الداخلية :

قامت حركات انفصالية في الدولة كادت تعصف بها، منها:

أ - ثورة الزنج :

قدم رجل فارسي اسمه علي بن محمد من البحرين البصرة اثناء خلافه المهتدي سنة ٢٥٤هـ وادعى انه علوي، واخذ يدعو الى تحرير الزنوج، وتحسين احوالهم، ومساواتهم مع الاحرار، وتسليمهم السلطة، فاستمال الزنوج، وانضم اليه حوالي ١٥ الف استولى بهم على البصرة، والاهواز، والابله وعبادان، وعاث فسادا في الارض، فحرق الابله وارهب الناس، واصبح مصدر خطر على الخلافة، وقوي امره اثناء انشغال الخليفة

في قتال يعقوب الصفار. الذي حاول الاستقلال بولايته، فاحتل واسط، واقام عاصمة له قرب البصرة سماها المختارة، وهاجم البصرة أثناء صلاة الجمعة، وذبح حوالي ٣٠٠ الف من سكانها، واشعل فيها النار.

استمرت حركة الزنج حوالي ١٤ عاما، تمكن خلالها من قهر عدة جيوش للخليفة، وفي عام ٨٨١م هاجم الخليفة الموفق مدينة المختارة برا وبحرا، واستمر في حصارها سنتين استطاع خلالها فتح المختارة والقضاء على الحركة.

ب ـ القرامطـــه :

ظهـرت فرق عـديدة من الشيعـة في القرن الرابـع الهجري، وتعتبـر الحركـة الاسماعيلية التي اسسها عبد الله بن ميمون القداح[١٤] من مدينة الاهواز اشهر هذه الحركات، وقد انقسمت الى عدة فروع منها القرامطة، الذين يعتقدون ان اسماعيل بن جعفر الصادق الإمام السابع هو آخر الائمة، لذلك يقدسون رقم ٧.

انتشرت دعوة القرامطة على يد حمدان قرمط سنة ٨٩٠م، وقد سمي قرمط لتقريبه خطواته[١٥]، اسس قرمط جمعية سرية في الكوفة تدعو الى:

- انكار الرسل والشرائع، واستباحة كل ما يميل اليه الطبع.
- الاشتراك في النساء والمال.
- المساواة والغاء الرق.

وكان من ابرز أعوان قرمط صهره عبدان الذي الف كتابا شرح فيه طريقة المريد الذي ينظم الدعوة، وجعلها ٩ درجات تبدأ بالشك بالدين، ثم الاعتقاد بالامام المستتر، والاعتقاد بأن القرآن حجاب لمعنى باطني فيه، وتنتهي هذه الدرجات الى جعـل الفرد إباحيا لا يعترف بجميع الاديان.

استقطب القرامطة الصناع والعبيد وغيرهم، ونظموهم في نقابات ربما كان اخوان الصفا احدى هذه النقابات، وقد نجح القرامطة في اثارة اعراب سوريا، فانتشرت دعوتهم في سوريا، وعاثوا فيها فسادا بعض الزمن. الى ان تمكن الخليفة المكتفي من القضاء عليهم، واسر احد زعمائهم الذي يطلق عليه صاحب الخال.

أسس القرامطة امارة مستقلة في الاحساء والبحرين في القرن العاشر الميلادي، وجعلوا عاصمتهم المؤمنية (الهفوف اليوم)، واغاروا بزعامة ابو سعيد الجنابي عـلى

العراق، ونهبوا بعض مدنه، واستولوا على البصرة والكوفة، وهددوا بغداد فاضطر الخليفة سنة ٣٠٥هـ/ ٩١٦م الى دفع الجزية.

وعندما تولى أبو طاهر الجنابي، هاجم مكة سنة ٩٣٠م وقتل جميع الحجاج في الكعبة ورمى بعضهم في بئر زمزم، وردمه عليهم، وخلع باب الكعبة، واخذ الحجر الاسود، والكسوة، ونهب دور اهل مكة، ولما علم امام الفاطميين وزعيم جميع طوائف الاسماعيلية عبد الله المهدي وبخه، وامره باعادة الحجر الاسود، وما سلب من السكان، فاعيد الحجر الى مكانه.

وفي سنة ٣٥٣هـ فتح القرامطة عُمان، وفرضوا الجزية على دمش، الا ان زعيم القرامطة الحسن الاعصم فتح دمشق سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٤م، وهاجم مصر، فانهزم امام جنود المعز الفاطمي، وانكفا الاعصم الى البحرين بعد ان طرده الفاطميون من سوريا، ولم تقم للقرامطة بعد ذلك قائمة، فضعفت شوكتهم، وانتقلت مبادؤهم الى الحشاشبين الذين اغرقوا سوريا والعراق في بحر من الدماء في القرن الحادي عشر[١٦]، ومن ابرز ضحاياهم مودود، واق سنقر صاحبا الموصل، وقد تنازل هؤلاء عن قلعتهم بانياس للفرنجة[١٧].

وقامت عدة حركات فكرية هدامه، رائدها هدم الدولة الاسلامية واعادة الدولة الفارسية ، منها :

- الروانديه: اعتقد جماعة من خراسان بتناسخ الارواح، وادعوا ان الخليفة المنصور هو ربهم، واجتمعوا حول قصره، فسجن المنصور زعماءهم، فهجموا على القصر، وكادوا يقتلون المنصور، ولكنهم ابيدو عام ١٤١هـ.
- المقنعية: ظهر المقنع هاشم بن حكيم الخراساني. وهو قصير القامة، اعور، دميم المنظر، لبس القناع لاخفاء قبحه، ادعى ان روح الله حلت بآدم ثم انتقلت الى نوح ثم الى ابي مسلم الخرساني، ثم اليه. نادى بالشركة بالنساء والاموال، والاباحية، واطلق عليهم الزنادقة، ثم الملحدين. وقد ظهرت هذه الحركة ايام الخليفة المهدي، وقضي على معظم اتباعها عام ١٦١هـ.
- الخرمية : قاد هذه الحركة رجل فارسي يدين بمذهب مزدك، هو بابك الخرمي، وقد اباح جميع المحرمات، وادعى الالوهية، واعتقد بتناسخ الارواح، وقد قضي على الحركة سنة ٢٠١١هـ في شرق ارمينا.[١٨].

وقامت حركات مشابهة كحركة الافشية والمازيار زمن المعتصم «حسن ابراهيم تاريخ الاسلام ٢/ ص ١٠٤».

وهناك ثورات اخرى عديدة كثورات الشيعة، والعلويين، وقد استغل الفرس حب الناس لآل البيت، فأخذوا يشكلون فرقا شيعية وحركة تتستر بالتشيع، ولكن هدفها هدم الاسلام.

وقامت حركات اسلامية لتعزيز فهم اسلامهم مثل المعتزلة: وهي فرقة اسلامية، هدفت الى الدفاع عن الاسلام بالحجة والمنطق، ويعتبر واصل بن عطاء زعيمهم، وقد تصدى المعتزلة للمذاهب الالحادية والزندقة التي انتشرت في العباسي فقربهم الخليفة المأمون حتى كان احدهم.

وسميت المعتزلة بهذا الاسم لاعتزال واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري.

انقسام الدولة العباسيــة:

حاول كثير من الولاة الانفصال عن الدولة العباسية والاستقلال بولاياتهم، وفيما يلي لمحه عن معظم الدول المستقلة عند ضعف الدولة في العصور المختلفة:

العصر التركي:

استقلت الدول التالية:

أ ـ الادارسة: تكونت على يد ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن سنة ١٧٢هـ/ ٧٨٨م، اذ تمكن ابنه ادريس من بناء مدينة فاس واتخذها عاصمة له سنة ٨٠٨م، وشملت جميع مراكش، وبقيت حتى سنة ٩٣٠م.

ب ـ الاغالبه: تنسب الى ابراهيم بن الاغلب، والى افريقيا سنة ٨٠٠ الذي كلف بمقاومة الادارسه. وقد دامت دولته حوالي مئة عام، وكان مركزها مدينة العباسية في ضواحي القيروان، وقد تمكن الاغالبة من فتح صقلية.

ج ـ الطولونية في مصر ٢٥٤/ ٨٦٨ ـ ٢٩٣/ ٩٠٥ تنسب الى طولون والد مؤسسها احمد، ومن اشهر حكامها خمارويه الذي زوج ابنته قطر الندى الى الخليفة المعتضد سنة ٨٩٢م.

د ـ الدولة الاخشيدية ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م ـ ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م كون محمد بن طفج الملقب

بالاخشيد دولة في مصر، وخلفه ابنه، الا ان كافور العبد الحبشي استأثر بالسلطة الى ان استولى الفاطميون على مصر.

العصر البويهي :

من اشهر الدول المستقلة في هذا العصر:

أ ـ الحمدانيون: اسس الدولة حمدان حمدون الشيباني، وكان لهذه الدولة فضل في مقارعة البيزنطيين فترة من الزمن، ومن اشهر القادة سيف الدولة الذي حارب البيزنطيين اكثر من اربعين مرة في القرن العاشر الميلاد، وقد قامت في شمال الشام.

ب ـ الخلافة الفاطمية ٢٩٢هـ/ ٩٠٩م ـ ٥٦٧هـ/ ١١٧١م

وهم فرع من الاسماعيلية، ينتسبون الى محمد الحبيب بن جعفر بن محمد المكتوم بن اسماعيل وهنا يلتقون بالشيعة الاسماعيلية، ظهرت دعوة الفاطميين في اواخر القرن التاسع، وكان اول خليفة فاطمي عبد الله المهدي ٢٩٧هـ/ ٩١٠م ـ ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م.

تأسست الدولة في شمال افريقيا وامتدت الى مصر واستمرت الى ان قضى عليها صلاح الدين الايوبي ٥٦٧هـ/ ١١٧١م عندما مات الخليفة العاضد.

وهناك دويلة البويهيون، والدولة الغزنوية في الشرق.

العصر السلجوقي :

ومن اشهر الدول في هذا العصر :

أ ـ الدولة الايوبية التي اسسها صلاح الدين سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م واستمرت حتى سنة ٦٤٨/ ١٢٥٠. وسنتحدث عنها فيما بعد.

ومن الدول المستقلة الدولة الاموية في الاندلس والتي قامت على يد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام اثر نجاح العباسيين في اقامة دولتهم، وقد استمرت الدولة قوية فترة من الزمن، الا ان الدولة ضعفت وانقسمت الى عدة دويلات، فاستغل الاسبان ضعف هذه الدويلات، ودعوا الى حرب صليبية تجمع لها المتطوعون من فرنسا والمانيا وانجلترا وايطاليا، واخيرا تمكن الاسبان من توحيد صفوفهم والقضاء على آخر دولة اسلامية وهي غرناطة ١٤٩٢، وبسقوطها زال نفوذ العرب والاسلام من اسبانيا، اذ لجأ الاسبان الى طرد المسلمين او قتلهم او تنصيرهم بالقوة.

غزو التتار

المغول والتتار شعبان من الشعوب التركية القديمة، ويرجع نسبهما الى اصل واحد، يعيش في اقليم منغوليا شمال الصين، وهو أقليم واسع مقفر، قليل المياه والزراعة، كثير المراعي، لذلك عاش المغول الذين عرفوا بالتتار حياة بداوة وتنقل.

نجح تموجين في جمع شتات القبائل المغولية تحت زعامته في القرن الثاني عشر، والف دولة بدوية واحدة عرفت بدولة المغول او التتار، واتخذ لنفسه لقب ملك العالم «جنكيزخان»، وجعل عاصمته قرة قروم، واصدر نظاما للدولة عرف باسم «الياساء» وهي كلمة تركية معناها «القانون الاجتماعي»(٥٨)، يقر فيه القيادة لاله واحد، وينظم الزواج، والعمل والجيش.

غزو المغول للمشرق الاسلامي:

تعرض المشرق الاسلامي لثلاث غزوات مغولية ادت الثالثة الى القضاء على الخلافة العباسية، وتفصيل ذلك:

أ - الغزوة الاولى:

غزا جنكيز خان الصين الشمالية، وشرقي اوروبا، والتقت حدوده مع ملك الدولة الخوارزمية الاسلامية في مناطق تركستان، فاقام علاقة حسنة معها، وعقد اتفاقا تجاريا لتبادل البضائع وحماية القوافل، ولكن بعض الولاة الخوارزميين اعتدوا ذات مرة على بعض التجار المغول سنة ٦١٨/١٢٢١، وصادروا اموالهم، وقتلوهم على انهم جواسيس.

استشاط جنكيز خان غضباً، واجتاحت جيوشه بلاد ما وراء النهر وخراسان سنة ٦١٨/١٢٢١ بوحشية، فاحتلوا سمرقند، ثم بخارى وقتلوا سكانهما، كما تقدموا الى مرو وقتلوا جميع سكانها البالغ عددهم ٧٠٠ الف نسمة واخرجوا سكان نيسابور الى الصحراء وقطعوا رؤوسهم، واهلكوا سكان خوارزم غرقاً وحرقاً وهدماً، اما شاه خوارزم فقد مات مكسور الخاطر في احدى جزر بحر الخزر التي فر اليها.

ب - الغزوة الثانية:

توقف الغزو المغولي بموت جنكيز خان سنة ١٢٢٧م، وعندما تولى السلطة مانجو خان عاود المغول غزو ايران وارمينيا، والاناضول والعراق بين سنة ١٢٣٠م و ١٢٤٢م، وانتصروا على جيش الخليفة المستنصر، ونهبوا المنطقة، وفرضوا الاتاوات على امراء الجزيرة وسلاجقة الروم.

ج ـ الغزوة الثالثة وسقوط بغداد:

ما أن قضى المغول على طائفة الحشاشين حتى أرسل قائدهم هولاكو انذاراً من مدينة همذان الى الخليفة المستعصم ٦٤٠/١٢٤٢ ـ ٦٥٦/١٢٥٨ يطلب فيه ان يقدم نفسه، ويسلم حاضرة ملكه[٢٠] ويهدم اسوار بغداد. حاول الخليفة توعد هولاكو، فكتب اليه «اسلك طريق الود، وعد الى خراسان، وان كنت تريد الحرب، فلا تتوان لحظة، ولا تعتذر، ان لي الوفاً مؤلفة من الفرسان والرجال على اتم استعداد لخوض غمار الحرب[٢١].

لقد رفض الخليفة الاقرار بالطاعة للمغول، لان امامته للمسلمين ستسقط، لو فعل، ولكنه وافق ان يرسل الاتاوات الى المغول، غضب هولاكو لرسالة الخليفة، وقرر الزحف الى بغداد.

اختلف المؤرخون في الاسباب التي دعت هولاكو الزحف الى بغداد، وقد اجمع معظمهم على ان سبب ذلك هو قيام فتنة دينية بين اهل السنة والشيعة، وان وزير المستعصم مؤيد الدين محمود العلقمي الشيعي المذهب طلب النجدة من هولاكو، وحرضه على المسير الى بغداد[٢٢]

احاط المغول مدينة بغداد سنة ١٢٥٨، فقاوم السكان الغزاة أكثر من اسبوعين، الا أن التمزق بين الشيعة والسنة اضعف المقاومة، كما أن الخليفة المستعصم لم يتخذ الاحتياطات اللازمة لمواجهة المغول، مما مكن المغول من اقتحام اسوار المدينة بعد قصفها بصخور المنجانيقات الضخمة،عندئذ اذعن الخليفة،وخرج لمقابلة هولاكو ومعه اولاده واصحابه، فطلب هولاكو من الخليفة ان يأمر جنده بوضع سلاحهم، والخروج من المدينة لاحصائهم، ومن ثم سيطلقون.

استقر هولاكو في قصر المأمونية شرق بغداد، وخرج الجند من بغداد، فلما اجتمعوا خارج المدينة، امر هولاكو بقطع رؤوسهم، واستباحة المدينة، فاقبل المغول على بغداد بالنهب والسبي والقتل والاحراق لاربعين يوماً، فنهبت الذخائر، والتحف، ومن بينها حوض في ساحة قصر الخلافة مملوء بسبائك الذهب، ونقضت قباب المساجد لانتزاع الذهب، واحرقت القصور، ودمرت المدارس، ودور العلم، والبيمارستانات والخانات والدور والقيت ذخائر الكتب والتراث في نهر دجلة.

وانتهت مدينة بغداد، واندثرت معالم المدينة، فامتلات الشوارع والازقة بالجثث

التي قدر عددها بحوالي ١,٨ مليون جثة[٢٣] وسرعان ما فر المغول من المدينة خوف الوباء الذي انتشر.

وهكذا لحق الدمار بغداد التي ظلت خمسة قرون عاصمة العالم الاسلامي الاولى، ومركز التجارة الاكبر، وموئل الفكر، والثقافة والعلماء، وكانت لسقوط بغداد نتائج منها:

★ انتهاء الخلافة العباسية في بغداد

★ اصابة الحضارة الاسلامية بضربة قاسية لم تنهض بعدها.

★ كانت بغداد القمة الفاجعة في سلسلة الاعمال التدميرية التي قام بها المغول ضد العالم الاسلامي الشرقي خلال اربعين سنة.

اتجه هولاكو الى سوريا، فعاث فساداً في حلب ودمشق، والموصل، وماردين وحران، وخرب قلاعها، وذبح سكانها، ثم تقدم الى مصر ولكن المماليك هزموه في معركة عين جالوت في فلسطين سنة ١٢٦٠، وتقهقر المغول الى دمشق وحلب، فتعقبتهم الفرق المملوكية حتى اخرجتهم من الاراضي الشامية والجزيرة.

هوامش الفصل الثالث

١ ـ د. احمد شلبي، موسوعة التاريخ الاسلامي، ج٣، ص٣٢.

٢ ـ المقدسي، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص ٢٩٣.

٣ ـ د. علي ابراهيم حسن، التاريخ الاسلامي العام، ص ٣٣٤.

٤ ـ د. عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، ص ٣٣٦.

٥ ـ د. علي ابراهيم حسن، المرجع السابق، ص٤٣٦

٦ ـ سيد امير علي، مختصر تاريخ العرب، ص ٢٥٨

٧ ـ ابن الاثير، الكامل، ج٨، ص ٣٧.

٨ ـ د. احمد شلبي، الخلافة العباسية، ص ٢٥٣

٩ ـ د. حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي، ج ٤، ص ١٩٧.

١٠ـ المرجع نفسه، ج٤، ص ٣٤٤.

١١ـ المقريزي، الخطط، ج١، ص ٩٧.

١٢ـ د. علي ابراهيم، المرجع السابق، ص ٥٨٣.

١٣ـ د. حسن ابراهيم، المرجع السابق، ج٢، ص ٤٨١.

١٤ـ د. احمد كمال الدين حلمي، السلاجقة في التاريخ والحضارة، ص ١٦٧.

١٥ـ محمد كرد علي، خطط الشام، ص ٢٢/٢.

١٦ـ د. احمد كمال الدين، المرجع السابق، ص ١٧٩.

١٧ـ محمد حلمي احمد، مصر والشام والصليبيون، ص ٧٨

١٨ ـ الخضري، الدولة العباسية ص ٢٢.

١٩ ـ حسن ابراهيم المرجع السابق ١٣٧/٤.

٢٠ ـ د. علي ابراهيم حسن، المرجع السابق، ص ٤٧٢.

٢١ ـ د. حسن ابراهيم، المرجع السابق، ج٤، ص ٢٥٥.

٢٢ ـ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص ٢٠١.

٢٣ ـ المصدر نفسه، ص ٢٠٢.

الفصل الرابـــع

العصر المماليكي في مصر والشام

- الدولة الأيوبية في مصر
- حروبهم مع الفرنسيين
- قيام دولة المماليك في مصر
- المماليك والتتار
- السلطان قطز
- موقعة عين جالوت
- توحيد مصر والشام
- المماليك والصليبيون
- الظاهر بيبرس والاستيلاء على انطاكية
- طرد الصليبيين من بلاد الشام

الدولة الايوبية في مصر

صلاح الدين يؤسس الدولة:

عاش الايوبيون في كنف عماد الدين زنكي وابنه نور الدين. وكان صلاح الدين قائد جيش نور الدين في مصر، ولما توفي نور الدين اختلف مع أمراء الملك الصالح اسماعيل ابن نور الدين الذي كان عمره احد عشر عاما اذ تعاون مستشارو الملك الصالح اسماعيل مع الصليبيين لدى مهاجمتهم بانياس، فبادر صلاح الدين الى فتح بلاد الشام، وبذلك اسس الدولة الايوبية فشملت مصر والشام.

أعلن صلاح الدين الجهاد بعد تثبيت دولته، واستدعى الجيوش من مصر ودمشق وحلب والجزيرة سنة ٥٨٣ /١١٨٧ واقتحم طبرية، ثم زحف نحو حطين، فالتقى مع القوات الصليبية، فانتصر صلاح الدين، واستسلم ملك بيت المقدس الصليبي، وارناط صاحب الكرك، ومعظم القادة الصليبيين.

اصبحت بلاد الشام بعد معركة حطين تحت رحمة المسلمين فشرعوا يفتحون المدن الصليبية الواحدة بعد الاخرى فاستولوا على الناصرة، وقيسارية وحيفا، والعفولة وصفورية، والمجدل، ويافا [١] ، ثم بيت المقدس، وعامل صلاح الدين الصليبيين معاملة حسنة [٢] ، فسمح لملكة بيت المقدس الالتحاق بزوجها، وبطريرك بيت المقدس الخروج بأموال الكنيسة في المدينة.

صلح الرملة:

بلغ أوروبا خبر تحرير المسلمين لبيت المقدس، فقاموا بحملة صليبية ثالثة، بقيادة ريتشارد قلب الاسد ملك انكلترا، وامبراطور المانيا، وملك فرنسا، سنة ٥٨٦، ١١٩٠ وقد تمكنت الحملة محاصرة عكا، واجبارها على الاستسلام، على أن تخرج حامية عكا من المدينة، ولكن الصليبيين غدروا بالحامية وقتلوهم جميعاً [٣] .

فشل ريتشارد في احتلال بيت المقدس، فاضطر الى عقد صلح الرملة سنة ٥٨٨ / ١١٩٢ مع صلاح الدين لثلاث سنوات وثمانية اشهر تكون اللد والرملة مناصفة بين المسلمين والصليبيين، وتكون القدس للمسلمين والساحل للصليبيين.

مرض صلاح الدين سنة ٥٨٩/١١٩٣ ومات، فبكاه العالم الاسلامي، وخلف سبعة عشر ولدا وبنتاً واحدة، ولم يترك في خزائنه سوى ٤٧ درهما [٤]، ولم يخلف داراً ولا عقاراً، وهو الذي استولى على املاك وخزينة الدولة الفاطمية.

تولى العادل السلطنة:

انقسم البيت الايوبي بعد صلاح الدين، وتنازع ابناؤه السلطة، الا ان العادل تمكن من اعادة وحدة البلاد، ورفع راية الجهاد، ومواجهة الصليبيين، وكان العادل الساعد الايمن لصلاح الدين، وهو أخوه الاصغر.

استمر الملك العادل في الحكم حتى سنة ٦١٥/١٢١٨ تاركا ثلاثة ابناء هم الكامل والمعظم والاشرف، وقد تنازعوا السلطة فيما بينهم، فاغتنم الصليبيون الفرصة وهاجموا دمياط، الا أن المسلمين تمكنوا من تحريرها بعد ثلاث سنوات.

الملك الكامـــل:

تولى السلطنة بعد ابيه سنة ٦١٥/١٢١٨، الا أن أخويه نازعاه السلطة، فاستعان بامبراطور المانيا فردريك السادس ضد اخويه على أن يسلمه مدينة بيت المقدس مقابل ذلك. وفي سنة ٦٢٥/١٢٢٨ وصل فردريك السادس الى عكا بحوالي ٥٠٠ جندي، واستعطف الملك الكامل ان يسلمه بيت المقدس، وقال له «لولا اخاف انكسار جاهي ما كلفت السلطان شيئا من ذلك» [٥] رق قلب الملك الكامل وعقد معه صلح يافا سنة ٦٢٦/١٢٢٩ جاء فيه [٦]..

- مساعدة الملك الكامل ضد الايوبيين.
- تسليم بيت المقدس وبيت لحم وصيدا للصليبيين على ان يبقى المسجد الاقصى بيد المسلمين.

عاد الامبراطور فردريك السادس الى بلاده بعد ان حقق سلماً ما عجز عن تحقيقه ريتشارد قلب الأسد [٧] اذ استولى على بيت المقدس وتشرد سكانها المسلمون، فتوجه بعضهم الى دمشق وبعضهم الى مصر، والبعض الآخر الى الكرك. اتهم المسلمون الملك الكامل بالخيانة [٨]، اذ استعظموا عليه تسليم بيت المقدس دون قتال، ونعته الخطباء والائمة من على المنابر بالمنبوذ [٩].

الملك الصالح ايوب:

توفي الملك الكامل سنة ٦٣٥/١٢٣٨، فاستولى ابنه الملك الصالح على دمشق سنة

١٢٢٨/٦٣٦، واتجه الى مصر لانتزاعها من اخيه العادل الثاني لانشغالة باللهو عن مصالح العباد فاستولى عليها ٦٣٧/ ١٢٤٠.

انقسم الايوبيون فيما بينهم، فقد استولى الملك الصالح اسماعيل على دمشق، وشكل حلفاً ثلاثيا منه، ومن ملك الاردن الناصر داود، والملك المنصور صاحب حمص وعرض على الصليبيين منحهم الحرم القدسي الشريف بما فيه المسجد الاقصى وقبة الصخرة اذا وقفوا الى جانبهم ضد الصالح ايوب ملك مصر، وبالفعل سلم الملك الناصر داود الاماكن المقدسة الاسلامية بالقدس للصليبيين سنة ١٢٤٣/٦٤١[١٠] كما اتفق مع فرسان الداوية الصليبيين على منحهم جزء من مصر بعد الاستيلاء عليها.

استرداد بيت المقدس:

استنجد الصالح ايوب بالخوارزمية لمواجهة التحالف الثلاثي الايوبي والصليبي، وسرعان ما اقتحموا طبرية، ونابلس، ثم استولوا على بيت المقدس سنة ٦٤٢/ ١٢٤٤. تقدمت القوات الصليبية تدعمها قوات التحالف الثلاثي نحو غزة، والتقت مع الجيش المصري المسلم المدعوم بالخوارزمية، ودارت معركة طاحنة هزم فيها الصليبييون بين غزة وعسقلان، وتعرف المعركة باسم معركة غزة.

وهرب قادة التحالف الثالث من الايوبيين، فاستولى الملك الصالح ايوب على الساحل، وارسل الاسرى الى مصر ودقت البشائر بالقاهرة عدة ايام[١١]، وتابع المصريون تقدمهم، فاستولوا على دمشق سنة ٦٤٣/ ١٢٤٥[١٢]، وطبرية، والاغوار، وبذلك عادت وحدة مصر والشام في دولة واحدة، وبلغت دولة الصالح ايوب مكانة عالية.

مرض الصالح ايوب في الوقت الذي هاجمت فيه القوات الصليبية دمياط، ولم يمهله المرض طويلا، اذ توفي سنة ٦٤٨/ ١٢٤٩.

السلطان توران شاه:

كتمت زوج الملك الصالح ايوب شجر الدر وفاة زوجها، واستمرت تقوم بمهامه الى ان وصل ابنه توران شاه من حصن كيفا فخلف اباه في السلطنة، وساهم في مواجهة الخطر الصليبي.

تولى تورانشاه السلطة سنة ٦٤٨/ ١٤٥٠، وكان سيء التدبير والسلوك ذا هوج وخفه[١٣]، فقد احضر معه من حصن كيفا اصحابه، ووزع عليهم الوظائف، وحرم منها اصحابها من المماليك البحرية، ويبدو انه حسد المماليك على المكانة التي حققوها في معركة

المنصورة فارسكور، فاحس انهم يزاحمونه السلطة، واراد ان يتخلص منهم، كما لم يحفظ الجميل لزوج ابيه شجر الدر ونسي انها صانت له الملك، وارسلت تستدعيه على عجل بتولي السلطة فاتهمها بانها اخفت ثروة ابيه، وهددها، فداخلها منه خوف كثير، وتآمرت والمماليك عليه، وفي سنة ٦٤٨ / ١٢٥٠ هجم المماليك على توران شاه، فحاول الاحتماء ببرج من الخشب، فاشعل المماليك النار فيه، فالقى نفسه في النيل طلبا للنجاة، فلاحقه المماليك بالسهام فمات جريحا غريقا محترقا[١٤] وبمقتله انتهى حكم الايوبيين في مصر، اذ أختار المماليك للحكم السلطانة شجر الدر ارملة الصالح ايوب فكانت أول سلطانة للمماليك.

الحروب بين الايوبيين والفرنسيين

شارك الفرنسيون في الحملات الصليبية الى المشرق الاسلامي، فقد انطلقت الحملة الاولى من شمال جنوب فرنسا في القرن الحادي عشر الميلادي، وعندما فتح عماد الدين زنكي الرها في سنة ١١٤٤، استجاب الملك الفرنسي لويس السابع لدعوة البابا القيام بحملة صليبية لاحتلال دمشق والقضاء على عماد الدين.

انطلق لويس السابع سنة ٥٤٢/١١٤٧، نحو الشرق فاتجه الى بيت المقدس، ثم اتجه وامبراطور المانيا لاحتلال دمشق مع أن صاحبها كان حليفا للصليبيين، ولكن الصليبيين فشلوا في احتلال دمشق، واضطروا الى رفع الحصار عن دمشق لدى سماعهم بتقدم نور الدين زنكي صاحب حلب لدعم حامية دمشق.

الحروب بين الايوبيين والفرنسيين:

التقى الايوبيون والفرنسيون في عدة معارك، فقد تصدى الايوبيون لحملات الصليبيين بشجاعة وارادة قوية، نجح فيها الايوبيون في دحر المعتدين في نهاية المطاف، ومن الحملات التي شارك فيها الفرنسيون:

أ ـ الحملة الصليبية الثالثة:

بعد انتصار صلاح الدين في معركة حطين سنة ٥٨٣/١١٨٧، وفتحه بيت المقدس في السنة التالية انطلقت دعوات صليبية محمومة تنادي بطرد المسلمين من بلدهم بيت المقدس، فاستجاب الصليبيون لهذه الدعوات، وقاموا بحملة صليبية ثالثة سنة ٥٨٧/١١٩١ على رأسها ملوك اوروبا في ذلك الزمان[١٥] منهم ملك فرنسا فيليب اوغسطس وامبراطور المانيا فردريك بربروس، وملك انكلترا ريتشارد قلب الاسد.

سار الامبراطور الالماني في جيش لجب في اتجاه القسطنطينية، وعبر آسيا الصغرى الا انه غرق في نهر «سالف» وتشتت اتباعه.

اما الحملتان الفرنسية والانجليزية فقد التقتا في صقلية، ثم بارح الفرنسيون صقلية سنة ٥٨٧ / ١١٩١، فوصلوا الى عكا، ثم وصل الانجليز بعد ايام، وحاصر الجميع عكا، واضطر المسلمون الى الاستسلام بعد ان ايقنوا باستحالة نجدتهم وفك الحصار عنهم، وقد اتفق على تخرج حامية عكا المسلحة سالمة مقابل تسليمهم المدينة، الا ان الصليبيين نكثوا بعدهم وقتلوا جميع افراد الحامية البالغ عددهم ٣٠٠٠ مقاتل.

اختلف الملك الفرنسي والانكليزي بعد انتصارهم في عكا، فعاد الملك الفرنسي الى بلاده.

ب ـ الحملة الصليبية السابعة:

رأى لويس التاسع ملك فرنسا ان اعادة بيت المقدس لا يتم الا بهزيمة مصر، ولذلك جهز حملته سنة ٦٤٧ / ١٢٤٩ لغزو مصر، وقد جهزها بما تحتاج اليه من عتاد ومؤن واسلحة وجسور، وبذور للزرع وادوات للفلاحة مع المهندسين والفنيين والاطباء وغيرهم[١٦] اقلع الاسطول الفرنسي متجها نحو الساحل المصري.

وكان السلطان الايوبي الصالح ايوب قد احس بعد انتصاره في معركة غزة سنة ٦٤٢ / ١٢٤٤ أن الصليبيين سيحاولون غزو مصر ثانية، لذلك ركز اهتمامه على تحصين الثغور المصرية لتكون قادرة على مواجهة الخطر الصليبي، وبخاصة مدينة دمياط، وزودها بكل ما يؤمن احتياجاتها للدفاع، وعهد الى حامية قوية من فرسان بني كنانة بحمايتها.

ما أن وصل لويس التاسع دمياط حتى ارسل الى الملك الصالح رسالة يقول فيها «نحن نسوق المسلمين كسوق البقر، ونقتل منهم الرجال، ونرمل النساء، ونستأسر البنات والصبيان، ولو حلفت بكل الأيمان ما ردني من الوصول اليك» وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي يملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون اليك باسياف القضا..» وصلت الرسالة الى السلطان الصالح ايوب وهو يعاني آلام مرض الموت، فاغرورقت عيناه، ولكنه اجاب لويس التاسع بحمية قائلاً[١٧] «وصل كتابك، وفهمنا خطابك، وها قد أتيتك بالخيول والرجال، فلو رأت عيناك ايها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا.. لكان منك ان تعض على انامك بالندم».

نزلت القوات الفرنسية البالغة خمسين الفاً على الضفة الغربية المواجهة لمدينة دمياط المحصنة جيداً، فتصدى الجيش المسلم لهـا، الا أن كفة الفرنسيين رجحت، فانسحب الايوبيون ليلا الى الضفة الشرقية، ثم اتجه الى الجنوب صوب اشموم طناح حيث كان يعسكر السلطان الصالح أيوب، وما أن رأت الجيش الايوبي منسحبا حتى لاذت حامية دمياط بالفرار وهجر الاهـالي المدينـة، دون أن يتلفوا المـؤمن والاسلحة ومراكب التعدية[١٨]. اتجه الفرنسيون نحو دمياط فوجدوا ابوابها مفتوحة، ولا احـد يحميها، فخشوا ان يكون في الامر مكيدة للايقاع بهم، وعندما تحققوا من خلوها من الجيش دخلوها، واستولوا على جميع ما فيها من غنائم، وحولوا المساجد الى كنائس، وسكن الصليبيون منازل المسلمين.

غضب السلطان لانسحاب الجيش الايوبي، وسقوط المدينة دون قتال، فامر بشنق الهاربين فشنقوا، وكان بينهم خمسين اميرا من الجيش،ما عدا قائد الجيش الامير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ الصديق القديم للامبراطور فردريك والذي سلمه بيت المقدس ايام الملك الكامل بموجب اتفاقية يافا سنة ١٢٢٦، ويتهم المؤرخون المعاصرون الامير فخر الدين بالتفريط في دمياط، اذ انه فرّ من دمياط لدى سماعه أن الملك الصالح ايوب قد توفي، مما جعل يسرع بالانسحاب لتحقيق اطماعه في الملك تاركا دمياط لقمه سائغة للصليبيين[١٩].

بقي لويس التاسع نحو ستة اشهر في دمياط ينتظر المدد، وقد مكن هذا التأخير المصريين من الاستعداد وجمع الجيوش لملاقاة الصليبيين، كما بادر الملك الصـالح بالتوجه الى المنصورة حتى يستعد لملاقاة الصليبيين وصدهم عن احتلال القاهرة، الا ان المرض اشتد عليه بحيث لم يقو على النهوض من الفراش، وظل ينظم شؤون الدفاع وهو على فراش الموت، وفي تلك الاثناء اخذ المسلمون والعربان يشنون غارات متتابعة على الصليبيين، واسر ما يمكن اسره من جنـود الصليبيين، وقد ازعجت هذه الغارات لويس التاسع ففرض حراسة مشددة على المعسكر الصليبي يتناوبها الجند طوال الليل.

وصل المدد للصليبيين بقيادة الفونس دي باتيه، وشرع الصليبيون في الزحف على القـاهـرة في ١٢٤٩/١١/٢٠، وفي تلك الاثنـاء تـوفي السلطان الصـالح ايـوب في ١٢٤٩/١١/٢٣، اخفت شجر الدر وفاة زوجها، الا على الامير فخر الدين، وارسلت في احضار توران شاه ابن السلطان الصالح ايوب ليتسلم الحكم، الا ان الخبر تسرب الى الصليبيين، فقرروا اغتنام هذه الفرصة، وزحفوا على القاهرة فاخذ الامير فخر الدين

ينظم هجمات مفاجئة ضد الصليبيين لعرقلة زحفهم، غير ان الصليبيين وصلوا الى جزيرة دمياط مقابل المنصورة، ثم تقدم الصليبيون وتصدى لهم الامير فخر الدين، وسرعان ما استشهد، وتفرق المسلمون يمينا وشمالا، وكادت ان تكون الهزيمة بالكلية.

اندفع الفونس دي باتيه نحو المنصورة، ووصل الصليبيون الى باب قصر السلطان، واوشكوا ان يدخلوه الا أن المماليك بقيادة بيبرس اعادوا تنظيم صفوفهم، وحملوا على الصليبيين حملة واحدة، ازالتهم عن مواقعهم وشتت جمعهم، وتفرقوا بين الازقة والشوارع، فوقعوا في مازق، فاينما اتجهوا كان الاهالي يقذفونهم بالحجارة والآجر من الشرفات، والجند المسلم يعمل فيهم السيف ولم ينج من الصليبيين الا القليل، وفي هذا الوقت وصل لويس التاسع بقلب جنده، فالتحم مع الجيش الاسلامي بمعركة قاسية تراجع المسلمون الى المنصورة.

وصل الملك المعظم توران شاه، فاخذ يشرف على الاعمال الحربية بنفسه، وارتفعت معنويات المسلمين، وعندئذ ادرك لويس التاسع استحالة الزحف على القاهرة وبدأ يفكر بالعودة الى دمياط، وزاد موقف الصليبيين سوءا لقلة الغذاء، ولكن السلطان توران شاه قطع الطريق على الصليبيين في العودة الى دمياط، واستولى المسلمون على السفن الصليبية، واصبح الصليبيون «محبوسين لا يستطيعون المقام ولا الذهاب».

حاول لويس التاسع الانسحاب ولكنه فشل، ففاوض توران شاه الانسحاب من دمياط مقابل تسليمه بيت المقدس، ولكن توران شاه رفض طلب لويس، حينئذ بدأ الصليبيون الانسحاب، فعبر المماليك خلفهم يهاجمونهم من كل ناحية [٣٠] وما أن وصل الصليبيون فارسكور حتى احدق بهم المسلمون يتخطفونهم طول الليل قتلا واسرا [٣١]، ثم هاجم المسلمون الصليبيين، فوقع الجيش الصليبي باجمعه تقريبا بين قتيل واسير، ومنهم لويس التاسع، فسيق مكبلاً الى دار ابن لقمان.

حاول توران شاه الضغط على لويس التاسع للتنازل عن ممتلكات الصليبيين في الشام، ولكن الملك الفرنسي اجاب بانه لا سلطان له على الصليبيين وممتلكاتهم في الشام، واخيرا عقد صلح بين توران شاه ولويس التاسع لمدة عشر سنوات يقضي بانسحاب لويس التاسع من دمياط، وان يدفع مبلغاً من المال، وان يطلق سراح الملك الفرنسي، ولكن توران شاه قتل، ولم تنفذ بنود الصلح.

لم يكد المماليك يتخلصون من السلطان المعظم نورانشاه حتى وجهوا اهتمامهم من جديد للصليبيين الذين كانوا لا يزالون يحتلون دمياط، فقتلوا عدداً من الاسرى، وهددوا لويس التاسع، واخيرا وافق المماليك على اطلاق سراح الملك الفرنسي وامرائه بشرط الا يقصد سواحل الاسلام مرة اخرى وانسحاب الفرنسيين من دمياط، واطلاق الاسرى المسلمين والصليبيين.

غادر لويس التاسع دمياط ٦٥٨/ ١٢٥٠ الى عكا، فسر الصليبيون في الشام، واخذ ينظم صفوف الصليبيين في الشام، وحاول ان يستفيد من الخلافات بين الايوبيين في الشام والمماليك في مصر، واهتم بتخصيص حيفا، وعكا وقيسارية، كما اغار على بانياس. بقي لويس التاسع في الشام اربع سنوات يحصن المدن ويبني الاسوار، ويعيد لم شمث الصليبيين، وعقد المخالفات مع اعداء المسلمين، فقد عقد حلفاً مع سنان شيخ الجبل زعيم الاسماعيلية بالشام كما تقرب من التتار الذين كان خطرهم على العالم الاسلامي يزداد يوماً بعد يوم، وفي سنة ٦٥٢/ ١٢٥٤ عادة لويس التاسع الى بلاده[٢٢]

قيام دولة المماليك في مصر

المماليك لغة جمع مملوك، وهو العبد الذي لا يملك حريته، بل كان ملكا لغيره، وتطلق دولة المماليك او سلطنة المماليك على المماليك الذين اشتراهم الملك الصالح نجم الدين ايوب ليكونوا له جندا وحرسا، لانه لم يكن محبوبا من الاكراد الذين يشكلون جيش الدولة الايوبية[٢٣]، والعجيب ان المماليك كانوا يعتزون بهذه التسمية ولا يرضون عنها بديلا، ويرون فيها مجدهم[٢٤]، وفي ذلك يقول ان خلدون واراد الملك الصالح الاكثار من العصابة لحماية الدولة واقامة رسوم الملك وان ذلك يحصل باتخاذ المماليك والاكثار منهم كما كانوا في الدولة العباسية في بغداد..

بدأ الايوبيون يشترون العبيد والاعتماد عليهم في الاحتفاظ باماراتهم بعد وفاة صلاح الدين، واخذ كل امير يستخدم جيشا من العبيد لتحقيق مطامعه على حساب امير اخر، فكان المماليك هم الوسيلة التي وجدها ابناء صلاح الدين واحفاده لدعم نفوذهم، ولذلك اكثروا من شرائهم، واهتموا بتدريبهم وتنشئتهم ليكونوا سندا لهم، ولم يأت القرن الثالث عشر حتى ازداد نفوذ المماليك في الدولة الايوبية، واصبحت لهم كلمة مسموعة في الاحداث والمنازعات، وبلغ من ازدياد نفوذهم السياسي في الدولة الايوبية

انهم دبروا مؤامرة مكنتهم من خلع العادل الثاني واحلال الصالح نجم الدين ايوب محله في السلطنة، وفي هذا أحسّ السلطان الصالح ايوب بفضل المماليك عليه، واهميتهم له في توطيد سلطانه والاحتفاظ بملكه، فاكثر من شراء المماليك، وعني بهم عناية جعلت نفوذهم يتضخم في ايامه.

كان معظم المماليك الذين اشتراهم الصالح ايوب من الجنس التركي، وقد جلبوا من بلاد الخزر والقوقاز وسواحل البحر الاسود، وقد بنى لهم قلعة بجزيرة الروضة بالنيل، ولذلك قيل لهم المماليك البحرية او التركية[٢٥].

وكانت تربية المماليك وتدريبهم تمر بمراحل متعددة، فكان تجار الرقيق يجلبون اعدادا منهم، ويعرضونهم على السلطان، فكان يختار احسنهم قامة وصحة، ومن يبدو عليه الذكاء والشجاعة، فاذا تمت عملية الشراء رتب لهم من الفقهاء والعلماء من يلقنونهم الدين والعلوم، ومن ثم يُدَرَّبون على فنون الحرب والقتال، واخيرا ينتقلون لخدمة السلطان في حرسه الخاص او ديوانه او جيشه.

انقلاب الحكم في مصر :

برز المماليك اثناء حملة لويس التاسع على مصر، فعندما تمكن الصليبيون من احتلال دمياط، لهروب حاميتها من بني كنانة، بعد فرار الجيش الايوبي بقيادة الامير فخر الدين، ضعفت الثقة بالجيش، وشك السلطان الصالح ايوب باخلاص العرب والجيش، فاعدم الفارين، وشاءت الظروف ان يموت السلطان الصالح ايوب اثناء عدوان لويس التاسع على البلاد، فاخفت زوج السلطان شجر الدر وفاة الصالح ايوب، واخذت تسير الامور بنفسها وعندما هاجم الفرنسيون (لويس التاسع) المنصورة واستشهد الامير فخر الدين قاد المماليك مواجهة المعتدين، فاصبح لهم نفوذ كبير في الدولة والجيش فغشاهم الطمع، وعرفوا كيف يستغلون الفرص، فهابهم كبار الدولة، وايدتهم شجر الدر (وهي من اصل مملوكي)، وكانوا شجعانا اقوياء لا يهابون المخاطر، فتقدموا في صفوف الجيش[٢٦].

ومنذ ان وصل تورانشاه الى المنصورة، وتسلم زمام الحكم لاحظ ما للمماليك البحرية من نفوذ، وتأييد في الجيش، بعد ان حالفهم التوفيق في معركة المنصورة، فسولت له نفسه ابعادهم والتخلص منهم خشية ازدياد نفوذهم، واخذ يقرب خاصته، فلم يرق للمماليك ذلك، ومما زاد الطين بله ان تورانشاه لم يقتصر على اغضاب المماليك البحرية فقط، بل اغضب شجر الدر بمطالبتها بمال ابيه، ونسي فضلها في منع انهيار الجيش،

والدولة وتدبيرها شؤون الحكم حتى وصوله، وقد اتفقت مصلحة شجر الدر والمماليك، واتفقوا على التخلص من تورانشاه عندما تسنح الفرصة.

في ٢٧ محرم ٦٤٨هـ/٢ ايار ١٢٥٠م اجتمع بيبرس البندقداري وقلاوون الصالحي واقطاي الجامدار وعز الدين التركماني وغيرهم، وهجموا على السلطان في خيمته في فارسكور فضربه بيبرس بسيفه قطعت اصابع يده، ففر تورانشاه الى البرج الخشبي الذي كان قد اعده لراحته، فاضرموا النار في البرج، فالقى بنفسه في النيل طالبا النجاة، فرموه بالنشاب، وهو يستغيث.. «ما اريد هلالككم، دعوني ارجع الى حصن كيفا يا مسلمين». وعلى اثر مقتله اجتمع امراء المماليك واتفقت كلمتهم على تولية شجر الدر ملكة على مصر بوصفها ارملة السلطان ايوب وحلفوا لها، واستحلفوا جميع العساكر المصرية والشامية، وعلى تنصيب عز الدين ايبك قائدا للجيش اتابكا للعسكر.

وهكذا انتهى حكم الايوبيين في مصر بمقتل تورانشاه، وتولت شجر الدر السلطة، اذ تعتبر اولى سلاطين المماليك[٢٧] الذين حكموا من سنة ١٢٥٠ ـ ١٥١٧، وفي عهدها عقد صلح مع لويس التاسع فانسحب وجيشه من دمياط على ان يدفع ٤٠٠ الف دينار.

عز الدين ايبك :

لم يألف المسلمون ان تحكمهم امرأة فضلا عن الموقف الذي مرت به البلاد عندئذ، اذ كان الصليبيون يحتلون دمياط مما تطلب وجود رجل قوي في الحكم، الا ان اهل دمشق خرجوا على طاعتها وبايعوا صاحب حلب الملك الناصر يوسف حفيد صلاح الدين، كما غضب الخليفة المستعصم، وارسل الى مصر يقول[٢٨] «ان كانت الرجال قد عدمت عندكم فاعلمونا حتى نسير اليكم رجالا» وكانت المدة التي مارست الحكم فيها شجر الدر حوالي ٨٠ يوما فقط، برهنت خلالها كفاءة وبعد نظر في ادارة الدولة، ما يعجز عنه كثير من الحكام، الا ان المماليك واجهوا مشاكل عديدة، وقد استقر الرأي على ان تتزوج شجر الدر من الامير عز الدين ايبك التركماني، ولم يلبث ان اعلن ايبك سلطانا للبلاد عام ١٢٥٠م.

طالب ملوك الايوبيون في سوريا بتنصيب احد الامراء البيت الايوبي مع ايبك في السلطنة، فرضخ عز الدين، واختير موسى بن يوسف بن الملك الكامل، ولقب بالملك الاشرف موسى، وكان عمره ست سنوات، حاول الناصر يوسف ملك حلب توحيد الايوبيين في سوريا وغزو مصر لطرد المماليك، فقاد جيشا وصل به الى العباسية شرق القاهرة،

والتقى مع المماليك، فانهزم الايوبيون، واسر قائدهم وعدد كبير من الايوبيين سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، ودخل ايبك القاهرة منتصرا ومعه الأسرى من الايوبيين الذين سجنوا في القلعة[٢٩].

تفاوض عز الدين ايبك والملك الفرنسي الاسير، طالب لويس التاسع باطلاق اسرى الافرنج الموجودين في السجون المصرية مقابل مقابل عدم التحالف مع الملك الناصر يوسف الايوبي[٣٠]، فافرج عز الدين ايبك عن ثلاثة الاف اسير فرنجي، وكاد ان يسلمه فلسطين بموجب المعاهدة التي عقدت مع الملك لويس التاسع على أن يدعمه لمهاجمة دمشق، ولكن المعاهدة لم تنفذ لوساطة الخليفة المستعصم بالله وجعل نهر الاردن الخط الفاصل بين الدولة الايوبية في الشام والمملوكية في مصر. وسرعان ما ازال اسم الملك الاشرف موسى من الخطبة معه، وقبض عليه[٣١]فكان موسى آخر من خطب له من الايوبيين بالسلطنة في مصر، وبه انقضت دولتهم في الديار المصرية، وثبت مُلْك الدولة المملوكية.

تفرد عز الدين ايبك بالسلطنة، وعين الامير سيف الدين قطز نائبا له، فتحداه الامير فارس الدين اقطاي، وشكل خطرا عليه كاد يعصف بسلطانه، فدبر مؤامرة ضده بمساعدة قطز، وقتل اقطاي غدرا اثناء مروره ببعض دهاليز قلعة الجبل[٣٢] خاف أعوان اقطاي فغادروا مصر الى الشام، فصفا الجو لعز الدين ايبك، وحاول ان يحد من سلطة شجر الدر، فدب الخلاف بينهما، (بين ايبك وشجر الدر)، وبلغ ذروته عندما حاول ايبك ان يخطب ابنة صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، فاخذتها الغيرة، وأوعزت لخدمها بقتله في الحمام، وتم ذلك في ٢٣ ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ.

مقتل شجر الدر :

تولى سلطنة مصر الملك المنصور نور الدين ابن عز الدين أيبك، وكان في الخامسة عشر من عمره، ولما تم له الامر قبض على خدم شجر الدر الذين قتلوا والده وصلبهم على باب القلعة، اما شجر الدر فقد نقلت الى البرج الاحمر قيد التوقيف، ثم سلمت الى ام الملك المنصور، فضربتها الجواري بالقباقيب حتى ماتت، والقيت جثتها شبه عارية في خندق، ثم دفنت بتربتها الخاصة بها سنة ٦٥٥هـ.

وعندما استولى هولاكو على بغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، ثم استولى على حلب، انهارت المقاومة الايوبية، ولم تلبث دمشق ان سقطت في يد التتار سنة ٦٥٨هـ[٣٣]، ثم

تقدمت فرقة تتارية الى غزه في طريقها الى مصر، استغل قائد الجيش قطز الموقف اي خطر المغول الداهم وصغر سن السلطان، فعزله وتولى قطز السلطنة، ورضي به الامراء الكبار سلطانا ولقبوه المظفر[٣٤]

المماليك والتتار (المغول)

زحف المغول من اواسط اسيا، وتمكن هولاكو من احتلال فارس، والقضاء على الدولة الخوارزمية، وخضع له السلاجقة الروم[٣٥] كما قضى على حركة الحشاشين باحتلاله جميع القلاع التي اتخذتها الباطنية اوكارا لهم سنين طويلة، وقد سر المسلمون لسقوط هذه القلاع وبخاصة قلعة الموت الواقعة بين نيسابور وهرات.

غزا المغول العراق سنة ١٢٥٧، وحاول جيش الدولة العباسية التصدي لهم. فانقض عليه المغول، وانكسر البغداديون واخذتهم السيوف، وغرق بعضهم في الماء وهرب الباقون[٣٦]. واحتل المغول بغداد، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله، ثم سيطروا على البصرة والنجف وغيرهما من مدن العراق، أما الموصل فقد قدم صاحبها بدر الدين لؤلؤ فروض الطاعة والولاء لهولاكو. وعندما تقدم المغول الى الشام اسرع الناصر يوسف الايوبي صاحب حلب ودمشق الى خضوعه للمغول، فأرسل ابنه العزيز سنة ٦٥٦/١٢٥٨ بتحف الى هولاكو ملك التتر، وصانعه لعلمه بعجزه عن ملاقاة التتر[٣٧]. اعتبر هولاكو مجيء العزيز اهانة له، وطلب من الناصر يوسف ان يدخل في طاعته، فما كان من الناصر يوسف الا ان استنجد بالمماليك، ولم يجروء الذهاب الى حلب بل مكث في دمشق.

بدأ المغول غزو الشام في أوائل سنة ١٢٥٩، فاستولى هولاكو على آمهر، ونصيبين، وحران، والرها، في حين قاومته سروج فذبح اهلها، ثم اتجه الى حلب فحاصرها بعد ان قاوم الحلبيون الغزو، ثم احتلها، وقتل اعدادا كبيرة، واسر النساء والاولاد وباعهم في ارمينيا.

أثار سقوط حلب الذعر في جميع بلدان الشام، فاسرع كثير من حكام المسلمين في الشام الى الاستسلام للمغول والدخول في طاعة هولاكو. وقد رفض حصن حارم ان يستسلم وقاوم الغزاة، فامر هولاكو بقتل جميع افراد حاميته مع نسائهم واطفالهم[٣٨]، تخاذل ملوك الايوبيين وقدموا الطاعة لهولاكو ومنهم صاحب حمص، وحماة، اما الناصر يوسف صاحب دمشق فقد هرب وترك دمشق خالية من حاميتها، ولم يكن منتظرا ان

تقاوم بعد ان فر ملكها منها الى غزة[٣٩] فقام اعيان دمشق بتسليم مفاتيح أبواب المدينة ومعها أنواع التحف والهدايا، فأمنهم هولاكو، الا ان قلعة دمشق قاومت الغزاة اربعين يوماً.

احتل المغول بلاد الشام في اسابيع قليلة، ووقع الناصر يوسف في يد كتبغا اثناء هروبه من دمشق، فقتل، اما الملك السعيد بن الملك العزيز عثمان فقد ساعد المغول فولى بانياس والصبيبة[٤٠]، ولم يخجل الملك السعيد من مساعدة المغول فصار معهم، واعلن الفسق والفجور وسفك دماء المسلمين[٤١].

وصلت طلائع المغول الى غزة، وطلبوا من سلطان المماليك الاستسلام، الا ان السلطان قطز نازلهم في معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠، وهزمهم، وحرر جميع الاراضي الشامية من المغول كما مر معنا، بل واوقف زحفهم وتوسعهم في الاتجاه الجنوبي الغربي، والواقع ان العداء لم ينقطع بين المماليك والمغول منذ موقعة عين جالوت، اذ ظل المغول يتحينون الفرص للثأر، ويغيرون على اطراف دولة المماليك بالشام والجزيرة. فقد تابع ابغا ابن هولاكو سياسة ابيه العدائية تجاه المسلمين، وسياسته الودية مع الصليبيين في الشام وارمينية الصغرى، الا ان المماليك وقفوا للمغول بالمرصاد، وحالوا دون تحقيق اهدافهم باحتلال بلاد الشام.

حاول ابغا المغولي الاغارة على البيرة الواقعة على الفرات عام ٦٦٣/ ١٢٦٥، الا ان بيبرس شتت شملهم، لذلك فكر ابغا بالصلح مع المماليك، وارسل الى بيبرس «فانت لو صعدت الى السماء او هبطت الى الارض ما تخلصت منا فالمصلحة ان تجعل بيننا صلحاً»[٤٢]، ولكن بيبرس رفض طلب الصلح الى ان يسترد جميع الاراضي التي اغتصبوها من المسلمين.

حاول ابغا مهاجمة الساجور سنة ٦٦٨/ ١٢٦٩، والبيرة عام ٦٧٠/ ١٢٧٢، ولكنه هزم شر هزيمة، ثم انشغل المغول بمشاكلهم الداخلية فترة من الزمن الى ان ظهر تيمور لنك، وكان احد عصابة سرقة الاغنام وقد تمكن من الوصول الى الملك بعد قتله ملك المغول. استولى تيمور لنك على تبريز سنة ٧٨٨/ ١٣٨٦، ثم زحف الى ماردين، وفي سنة ٧٩٥/ ١٣٩٣ دمر بغداد وقتل معظم سكانها، ثم ارسل تيمور لنك رسالة تهديد الى السلطان برقوق يطلب فيها التسليم، فقتل برقوق الرسل. وفي سنة ٧٩٦/ ١٣٩٤ احتل المغول ماردين الا ان نائب حلب هزم المغول وأسر عدداً منهم.

أعد السلطان برقوق جيشا قويا لمنازلة المغول، فتمكن هذا الجيش من هزيمة المغول، وطردهم من بغداد سنة ٧٩٦ / ١٣٩٤، وقد تولى القيادة احمد ابن اوليس، فاصبح نائبا عليها. وكان تيمورلنك قد اتجه الى المشرق الاقصى، فاطمأن برقوق وعاد الى مصر، الا ان تيمورلنك عاد الكرة على بغداد فاستولى عليها سنة ٨٠٢ / ١٣٩٩، ثم اتجه الى حلب فاحتلها بعد مقاومة عنيفة، ولم يتمكن من احتلال القلعة الا بعد أمن الحامية، ولكنه عاد فغدر بها كما دمر حلب.

وتركها خالية من سكانها، وسرعان ما توجه السلطان المملوكي فرج لمواجهة المغول فوصل دمشق في سنة ٨٠٣ / ١٤٠١، فارتفعت معنويات السكان، الا ان السلطان كتب الى تيمورلنك يطلب الصلح، فاستغل تيمورلنك هذا الضعف، وزحف على الغوطة فسلمت له دون قتال، وسرعان ما انسحب السلطان فرج الى مصر تاركا دمشق تلقي مصيرها، فقد خدع اهالي دمشق بوعود تيمورلنك لهم بالامان، فاستسلمت المدينة، وسرعان ما انتقم من المدينة، فقسم المدينة على امرائه، واجرى كل امير انواع العذاب بالسكان من ضرب وحرق وتنكيل، ثم اشعل فيها النار في يوم عاصف، فاصبحت دمشق اطلالا بالية[٤٣]. وقد ادى غزو تيمورلنك لبلاد الشام ان اقفرت البلاد من السكان بعد قتل معظمهم، كما اختفت الكثير من الصناعات لان تيمورلنك اخذ معه الصناع والفنانين، ونتيجة لهذا الوضع انعدم الامن في آسيا وغربها. فضعفت التجارة، وانتقل النشاط التجاري الى الطريق البحرية عبر البحر الاحمر ومصر.

لم يمكث السلطان فرج اذ قتل لتقاعسه عن قتال المغول، فتولى السلطة المؤيد شيخ فقام بحملتين على الاطراف الشمالية لبلاد الشام لارغام الدويلات التركمانية على الحدود «قرمان وذو القادر ورمضان» العودة الى التبعية للدولة المملوكية.

السلطان قطز (١٢٦٠ ـ ١٢٧٧)

السلطان المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله المعزي تسلطن بعد ان خلع ابن استاذه الملك المنصور علي بن الملك عز الدين ايبك سنة ٦٥٧[٤٤] وذلك بعد ان عظمت الاراجيف بقطع التتار الفرات نحو بلاد الشام، وفي الوقت الذي كان فيه السلطان المنصور يقضي وقته في اللعب وركوب الحمير[٤٥]، وصلت أخبار استيلاء المغول على

بغداد ومقتل الخليفة المستعصم بالله، واتجاههم الى دمشق، فعم القلق مصر، واحس الجميع باقتراب الخطر منهم[٤٦].

دعا قطز وكان نائبا للسلطان لاجتماع كي يتدارسوا الموقف، وكيفية تدبير الاموال اللازمة، فاجاز العالم عز الدين ابن عبد السلام مساعدة العامة باموالهم بعد نفاذ ما في بيت المال، وتقديم الامراء والحكام ما يملكون الا من السلاح الفردي لكل منهم، ولم يتكلم السلطان في الاجتماع، اذ كان مستهترا بامور الدولة لصغر سنه، لا يهتم الا بأموره الخاصة[٤٧] مما دعا والدته للتدخل في شؤون الحكم، فلهج الناس بخلع المنصور فعزل قطز الملك المنصور وتولى السلطة، ولما اعترض البعض على ذلك قال «اني ما قصدت الا ان نجتمع على قتال التتار، ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فاذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالامر لكم، اقيموا في السلطنة من شئتم»[٤٨].

أخذ قطز يعمل لمواجهة المغول، ولما اكتملت استعداداته، اندفع بجيشه اللجب لمواجهة المغول، فهزمهم في عين جالوت، وقتل كتبغا قائد المغول في ساحة المعركة، وأسر ابنه في يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨/ ١٢٦٠.

وبعد هذا النصر اوفد قطز قوة بقيادة بيبرس لملاحقة المغول الى اطراف البلاد الشرقية، وتمكن المماليك من بسط سيطرتهم على بلاد الشام بعد تطهيرها من المغول واعاد قطز الامن الى نصابه، وأحسن الى الملك المنصور محمد الايوبي صاحب حماه واقره على حماه وبارين، كما امر بشنق الذين عاونوا المغول ومنهم الملك السعيد صاحب بانياس الصبيبية[٥٢] لقد سمح قطز لبعض امراء بني ايوب ان يعودوا الى ولاياتهم في حمص وحماه، بعد ان اعترفوا بالتبعية لسلطنة المماليك في مصر، وتعهدوا بدفع الجزية والدعاء للسلطان قطز على المنابر، وبعد ان قضى قطز بعض الوقت في دمشق ينظم امور الشام اتجه الى مصر، فدقت بشائر النصر بقدومه، وأخذت البلاد تستعد لاستقبال القائد المنتصر، ولكن مشيئة الله شاءت ان لا يعود قطز الى مصر، فقد قام الامير بيبرس باغتياله لانه لم يوله حلب، اذ كان قطز قد وعد الامير بيبرس بتعيينه واليا على حلب، الا انه فوض امرها الى علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ للخدمات الجلى التي قدمها اثناء حرب تحرير بلاد الشام من المغول.

ويبدو أن بيبرس حنق على عدم بر قطز بوعده، فاتفق مع بعض المقربين على اغتياله، وقد سنحت الفرصة اثناء عودة قطز الى مصر، فقد توقف قطز لقضاء بعض

الوقت في القنص والصيد على الطريق بين القصير والصالحية في الصحراء، فبينما هو يسير، اذ فرّت ارنب بين يديه، فساق عليها ولحق به بيبرس وصحبه، ولما ابتعدوا قليلاً عن الموكب، تقدم امير من السلطان وشفع عنده في انسان فاجابه الى ذلك، ثم تظاهر بتقبيل يده عرفانا للجميل، وانحنى لاجل ذلك، وقبض على يد قطز الممدودة له، فانقض عليه بيبرس واجهز عليه.

أعلن بيبرس مقتل قطز، فاستدعى الامراء والعسكر، فبايعوه بالسلطنة وحلفوا له (٥٠) وهكذا ذهب الملك المظفر قطز في اوج انتصاره، ولم يكن قد مضى على تسلمه عرش السلطنة سوى احد عشر شهر و ١٣ عشر يوما، ونقلت جثته ودفنت في القصر في ارض الشام.

موقعة عين جالوت:

تولى حكم مصر السلطان قطز سنة ٦٥٧هـ وكان عليه ان يواجه الخطر المغولي الذي داهم المشرق الاسلامي، فاحتل بغداد، ومدن الجزيرة وشمال الشام، وتقدم نحو مصر حتى وصل غزة، كما كان عليه التعامل مع الصليبيين الذي يتربصون في بلاد الشام بحزم.

اتصل قطز بحكام الايوبيين في الشام لتوحيد صفوف المسلمين، ولم شمتهم في مصر والشام لصد العدوان المغولي، فاستجاب له من أبت عليه عقيدته الاسلامية الاستسلام للمغول، او الاستكانة، وبدأ الجميع تنظيم الصفوف، وما ان وصلت طلائع المغول جنوب الشام حتى أرسل هولاكو كتاب تهديد ووعيد الى قطز، وطلب منه الاستسلام، وقال له (٥١).

«يعلم الملك المظفر قطز وامراء دولته انا نحن جند الله في ارضه، خلقنا من سخطه .. وقد سمعتم اننا فتحنا البلاد، وطهرنا الارض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب، فاتعظوا بغيركم، وسلموا الينا امركم» (٥٢).

أستدعى قطز الامراء وقرأ عليهم الرسالة، وشاورهم في الامر، فاقترح بعض الامراء الاستسلام، واقترح البعض مغادرة البلاد الى شمال افريقيا، ولكن قطز لم يأبه للتهديد وقال «ان الراي ان نتوجه جميعاً الى القتال، فاذا ظفرنا فهو المراد، والا فلن نكون ملومين امام الخلق» ثم قام بقتل رسل المغول، وعلق رؤوسهم على باب القاهرة (زويله) واستعد للحرب .. وقد حاول بعض الامراء المتخاذلين ان يثنوه عن ذلك، فاخذوا نصيبهم

من التقريع والاهانة، وقال لهم «يا أمراء المسلمين لكم زمان تاكلون اموال بيت المال، وانتم للجهاد كارهون، انا متوجه للقتال، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع الى بيته، فان الله مطلع عليه، وخطيئة المسلمين في رقاب المتأخرين».

وكان العلماء وعلى رأسهم عز الدين بن عبد السلام، قد حث الناس على قتال العدو، واجاز ان يأخذ الحكام من الرعية ما يستعينون به على الجهاد اذا لم يبق في بيت المال شيء وشريطة ان يبيع الامراء الالات النفيسة والذهب الذي يملكونه لانفاقه في الجهاد، وليساووا مع العامة»[٥٣].

اثارت كلمات قطز وفتوى عز الدين بن عبد السلام حماس المسلمين، فاخذ قطز يستعد للقاء المغول، وارسل قوة بقيادة بيبرس لاستطلاع اخبار المغول، فلما وصلت غزة انسحب المغول، وزحف قطز بجيش لجب الى طبرية في فلسطين.

اتفق قطز ان يبقى الصليبيون على الحياد، وهددهم اذا خانوا العهد وتعرضوا لجيشه، فسيقضي عليهم. وشاء الله ان يموت الخاقان الاكبر ملك المغول في تلك الاثناء، فترك هولاكو الشام عائدا الى قرة قروم لاختيار الخاقان الجديد تاركا الجيش المغولي بقيادة كتبغا.

وصل قطز الى عين جالوت قرب بيسان في فلسطين، فرتب الجيش، ووضع كمينا لمفاجأة المغول[٥٤] وعندما علم كتبغا بوصول قطز عين جالوت قرر منازلة المسلمين على مضض، اذ كان راغباً الانتظار حتى يعود هولاكو، التقى الجيشان الاسلامي والمغولي، ودارت معركة حامية الوطيس سنة ٦٥٨/١٢٦٠، حمل فيها المسلمون بصدق على المغول، وسرعان ما فاجأهم الكمين المسلم، فخرج من كل جانب، فاضاع صوابهم، واضطربت صفوف المغول، ولاذوا بالفرار تاركين معظم الجيش قتلى على الارض بما فيهم قائدهم كتبغا[٥٥].

ويعلل المؤرخون انتصار قطز على جيش المغول الذي ارعب العباد، الى العوامل التالية:

* صدق المسلمين في قتالهم وقوة ايمانهم.
* خطة قطز القتالية البارعة، وحسن استخدامه للكمين الذي فاجأ الجيش المغولي.
* وقوف الصليبيين على الحياد.

* ضعف معنويات الجيش المغولي لغياب قائده العام هولاكو، وتردد كتبغا في منازلة المسلمين.

* طول خطوط مواصلات المغول، وبعدهم عن حاضرة بلادهم في قلب آسيا.

نتائج موقعة عين جالوت:

تعتبر موقعة عين جالوت من المواقع الفاصلة في التاريخ وترتب نتائج هامة منها:

* قضت على الخرافة القائلة ان المغول قوم لا يغلب، فكانت المعركة نهاية الغزو المغولي للعالم، وبدء تراجعه الى الوراء، فانقذ اوروبا والعالم من الدمار.

* اعادت المعركة وحدة مصر والشام، وخلصت بلاد الشام من المغول، وانسحبوا نهائيا

* ارتفع شأن المماليك في نظر العرب في مصر والشام، واعطى دفعة قوية للمماليك جعلتهم يتولون قيادة البلاد بموافقة العرب في الوقت الذي فقد فيه ملوك الايوبيين اي حق شرعي في الملك لتواطئهم مع المغول وخيانتهم[٥٦].

* انقذت عين جالوت معالم الحضارة الاسلامية الباقية في مصر من الدمار الذي حل بالمشرق الاسلامي على يد المغول ولا سيما في تركستان وبغداد والشام.

* اصبحت القاهرة مركز اشعاع الثقافة العربية الاسلامية يؤمها العلماء والادباء.

* اعادت الهزيمة الرشد الى المغول ففكروا في الاسلام واعتنقه الكثير منهم[٥٧].

توحيد مصر والشام

استطاع صلاح الدين الايوبي توحيد مصر والشام في دولة واحدة، ولكنه قسم دولته بين ابنائه على ان يكون ابنه الافضل سلطانا على الدولة، فدب الشقاق بين الابناء وسائر افراد الاسرة الايوبية، الا ان الملك العادل (اخ صلاح الدين) اعاد وحدة الدولة مرة ثانية، وغدا سيد البلاد الى ان توفي سنة ٦١٥/١٢١٨. ووقع الملك العادل في خطأ اخيه صلاح الدين حين قسم البلاد بين ابنائه، فتنازعوا البلاد الى ان جمع شملها الملك الكامل بعد أن سلم بيت القدس الى الامبراطور فردريك السادس ٦٢٦/١٢٢٨.

عاد الايوبيون الى النزاع، فانقسمت البلاد الى دويلات صغيرة ولكن الملك الصالح أيوب استطاع توحيد مصر والشام تحت سلطانه سنة ٦٤٣/١٢٤٥، وبذا بلغت الدولة ما كانت عليه من قوة وسلطان في عهد جده الملك العادل، وعندما مات الملك الصالح ايوب تولى السلطة ابنه توران شاه، وسرعان ما قتل فانفرط عقد الدولة الايوبية، واقام المماليك دولة في مصر في حين استقل الايوبيون في بلاد الشام[٥٨].

وفي سنة ٦٥٦/١٢٥٨ انهى المغول الدولة العباسية، واحتلوا دمشق، فتصدى لهم السلطان قطز وهزمهم في عين جالوت، ثم طهر البلاد من رجسهم، وبذلك اعاد وحدة مصر والشام مرة أخرى، واستمرت دولة المماليك تشمل مصر والشام والجزيرة العربية، وبرقة منذ سنة ٦٥٩/١٢٦١ الى سنة ١٥١٦ حتى فتح العثمانيون بلاد الشام ومصر وانهوا دولة المماليك. وكانت دولة المماليك تضم بالاضافة الى مصر والشام بلاد الحجاز واليمن.

ويقسم المؤرخون الدولة الى قسمين:

أ ـ دولة المماليك البحرية ١٢٥٠ ـ ١٣٨٢

وقد غلب فيها العنصر التركي، ومن اشهر سلاطينهم قطز، والظاهـرة بيبرس، وقلاوون، والاشرف خليل.

ب ـ دولة المماليك البرجية ١٣٨٢ ـ ١٥١٧

وقد غلب فيها العنصر الشركسي، ومن اشهر سلاطينهم برقـوق، وقايتبـاي، وقانصوه الغوري.

وكان للمماليك فضل في حماية مصر من الغزو المغولي وتطهير بلاد الشام من التتار اثر معركة عين جالوت كما تمكنوا من التصدي للصليبيين وتصفيتهم نهائيا من بلاد الشام سنة ١٢٩١ على يد الاشرف خليل[٥٩] بل ومهاجمتهم في جزيرة قبرص وطردهم من ارواد سنة ١٣٠٢، وتمكن المماليك من مقارعة البرتغاليين، وحالوا دون نفوذهم الى البحر الاحمر.

ولا شك ان المماليك نجحوا في احياء الخلافة العباسية في القاهرة بعد سقوط بغداد سنة ١٢٥٨ وتدعيم المذهب السني ونشره في النوبه، وترسيخ هذا المذهب[٦٠] بفتح المدارس والزوايا والخوانق والرباطات والمساجد لتعليم الناس مباديء هذا المذهب السمح، وما زالت البلاد الاسلامية تزخر بما خلفه المماليك من القلاع والحصون لمقاومة المعتدين والمساجد والمدارس والمستشفيات لبناء حياة افضل للشعب اسسها العقيدة السليمة.

المماليك والصليبيون

تباينت العلاقات بين المماليك والصليبيين فقد بدأ المماليك بتصفية قواعد الصليبيين بعد تثبيت اقدامهم في حكم مصر والشام، فقد نجح قطز في اقناعهم الوقوف على الحياد اثناء معركة عين جالوت مع المغول سنة ١٢٦٠.

وعندما تولى بيبرس السلطة حرص ان لا يواجه عدوية التقليديين الصليبيين والمغول في آن واحد، فقد كان ينفرد في كل عدو على انفراد، كما حرص على محالفة بعض القوى المعادية لكل من الصليبيين والمغول، اذ عقد حلفا دفاعيا مع الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس سنة ٦٦٠/١٢٦٢ لعدائه الشديد للصليبيين في الشام، كما تحالف مع مغول القفجاق المسلمين او القبيلة الذهبية عند بحر قزوين الذين اصبحوا على عداء شديد مع مغول فارس الوثنيين[٦١].

استمرت المواجهة بين السلطان بيبرس والصليبيين اكثر من عشر سنوات، بدأها السلطان سنة ٦٦١/١٢٦٢ بمهاجمة الناصرة، وعكا، الا ان المواجهة الفعلية لم تبدأ الا سنة ٦٦٣/١٢٦٥ عندما استولى بيبرس على قيسارية، ويافا وعتليت وارسوف، ثم احتلال صفد وهونين وتبنين والرملة في السنة اللاحقة.

ولم يغفر بيبرس لملكة ارمينية الصغرى في كيليكيا او لامارتي انطاكية وطرابلس تحالفهما مع المغول ضد المسلمين، فقد ارسل جيشا بقيادة الامير قلاوون سنة ٦٦٥/١٢٦٦ استولى على بعض القلاع شمالي طرابلس، ثم وجه حملة كبيرة ضد ارمينية الصغرى سنة ٦٦٥/١٢٦٦ اثناء زيارة ملكها مغول فارس، دمرت طرطوس واحرقت العاصمة سيس. وتوج بيبرس جهوده ضد الصليبيين بالاستيلاء على انطاكية سنة ٦٦٧/١٢٦٨، فكان ذلك ايذانا بانهيار البناء الصليبي في الشام، بحيث لم يبق للصليبيين سوى عكا وطرابلس.

لم تقتصر حركة الجهاد الاسلامية على ارمينية والصليبيين بالشام، وانما امتدت الى قواعد الصليبيين في جزيرة «قبرص» ذلك أن ملك قبرص كان كثيرا ما يعتدي على السفن الاسلامية، ويساعد الصليبيين بالشام، ويمدهم بالسلاح والرجال، لقد ارسل بيبرس حملة بحرية سنة ٦٦٨/ ١٢٧٠ لغزو قبرص، ولكنها لم تكلل بالنجاح بسبب العواصف التي هبت على السفن الاسلامية.

عاود بيبرس محاربة الصليبيين فشن عليهم حربا مدمرة سنة ٦٦٩/ ١٢٧١ ادت الى احتلال صافيتا، وحصن الاكراد، وحصن عكا، وسرعان ما وصلت حملة صليبية الى بلاد الشام بقيادة الامير ادوارد الانجليزي، فعقد بيبرس حملة مع الصليبيين لمدة عشر سنوات.

اغتنم بيبرس الهدنة مع الصليبيين فاغار سنة ٦٧٤/ ١٢٧٥ على مملكة ارمينية الصغرى، ودمر سيس، واذنة، وطرطوس.

تابع السلطان قلاوون خطى بيبرس في القضاء على الصليبيين، وسرعان ما بدأ المماليك يتأهبون للاجهاز نهائيا على الصليبيين بالشام بعد ان اضعفتهم المنازعات الداخلية، فانتهز السلطان قلاوون فرصة انشغالهم بتلك المنازعات، وارسل حملة استولت على اللاذقية سنة ٦٨٦/١٢٨٧، وهو آخر بلد كان قد تبقى للصليبيين من امارة انطاكية. وشاء سوء حظهم في تلك الظروف ان يموت بوهيموند السابع امير طرابلس دون وريث، فتنازع زعماء الامارة، واستنجدوا بالسلطان قلاوون.

اسرع قلاوون الى استغلال هذه الفرصة فقاد حملة كبيرة سنة ١٢٨٩ تمكنت من احتلال طرابلس، وبيروت وجبلة، وبذلك لم يبق للصليبيين الا عكا وصيدا وصور. ويبدو ان السلطان قلاوون اجل احتلال عكا لمناعة اسوارها، فاتجه الى دمشق بعد عقد هدنة مع الصليبيين لعشر سنوات.

وبينما كان الصليبيون يتسابقون لطلب ود قلاوون وصلت جموع صليبية من ايطاليا سنة ٦٨٩/ ١٢٩٠ افسدت العلاقات بين المسلمين والصليبيين، اذ نقض الصليبيون الهدنة، واعتدوا على المسلمين خارج أسوار عكا، وعندما شاهد قلاوون ملابس ضحايا المسلمين المضرجة بالدماء، استشاط غضباً، واقسم على أن ينتقم من المعتدين، وفيما كان السلطان قلاوون يستعد بمهاجمة عكا انتقل الى الرفيق الاعلى سنة ٦٨٩/ ١٢٩٠.

خلف الاشرف خليل السلطان قلاوون، فنظم البلاد، وتغلب على الصعاب التي واجهته لدى توليه السلطة، ثم اخذ يعيد تنظيم جيشه استعدادا لقيادة الحملة التي كان المنصور قلاوون قد اعدها للثأر من الصليبيين في عكا، وعندما علم الصليبيون في عكا ان السلطان الاشرف خليل بصدد الخروج اليهم، حاولوا ان يثنوه عن عزمه، فارسلوا اليه سفارة يعتذرون اليه، ويسألونه العفو، ولكن السلطان لم يقبل عذرهم، فانطلق بقواته صوب عكا، وحاصرها وقصفها بالمجانيق، وقد بذل الصليبيون جهدا مستميتا في الدفاع عن عكا، الا ان المسلمين تمكنوا من اقتحام المدينة سنة ٦٩٠/ ١٢٩١، حيث غرقت بعض السفن بسبب كثرة من تحمله من الفارين.

وكان سقوط عكا ضربة كبرى للصليبيين، فقد وهنت قوتهم، وتشتت شملهم، وسرعان ما استسلمت حامياتهم في صور وصيدا وانطرطوس وعتليت، وبهذا انتهى الوجود الصليبي في بلاد الشام، على يد السلطان الاشرف خليل البطل الذي طهر البلاد من رجسهم.

واذا كانت الامارات الصليبية في بلاد الشام قد انتهت سنة ١٢٩١ لكن العالم الاسلامي ظل يعاني من الهجمات الصليبية عليه، فقد احتل الصليبيون قبرص، واقامت مملكة بيت المقدس الصليبية مركزا لها في الجزيرة، وبقيت اسرة لوزينيان التي تدعي توارث تاج بيت المقدس وتشن منها الغارات على مصر، ومنها الهجوم الذي قامت به سنة ١٣٦٥ يوم احتل الصليبيون الاسكندرية على حين غرة، واستباحوها ثلاثة ايام، ونهبوها، واسروا خمسة الاف، ثم انسحبوا، كما قام الصليبيون سنة ١٣٦٧ بهجوم مماثل على طرابلس الشام.

أعاد المماليك تنظيم امورهم، واغاروا عدة مرات على قبرص، وقد انتهت تلك الغارات بدخول قبرص تحت سيادة المماليك في عهد السلطان برسباي سنة ١٤٢٦، وظلت تلك الجزيرة تابعة للمماليك الى ان خضعت مصر للدولة العثمانية سنة ١٥١٧.

الظاهر بيبرس

بينما كانت القاهرة تزدان بالزينة، لاستقبال قطز، وفيما كان الناس في فرح لانكسار المغول، فاذا بالمنادي يطوف شوارع القاهرة ويقول «ترحموا على الملك المظفر قطز، وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس». أرسل بيبرس الى الاقطار بسلطنته للاعتراف بسيادته سنة ٦٥٨/١٢٦٠، وتلقب بيبرس بالملك الظاهر، واعاد النظام في البلاد، فقد قضى على محاولة الامير علم الدين سنجر الحلبي الاستقلال في بلاد الشام، فالقى القبض عليه سنة ٦٥٩/١٢٦١. كما انهى محاولة شمس الدين أمزلي بالسيطرة على حلب، وقضى على ثورة في القاهرة تستهدف اعادة الخلافة الفاطمية.

احياء الخلافة العباسية

تحمس السلطان الظاهر بيبرس لاحياء الخلافة العباسية في مصر ليتخذ منها سنداً يسند اليه حكم المماليك. فاستدعى احد الامراء العباسيين، «أحمد بن الظاهر ابن الناصر العباسي» واستقبله بالحفاوة، ثم بايعه بالخلافة ولقب المستنصر بالله، ثم قام الخليفة بتقليد بيبرس السلطنة، وبهذا اصبح بيبرس يتولى منصبه من السلطة الشرعية الكبرى في العالم الاسلامي، وهي الخلافة. اعد بيبرس قوة من مئات الرجال وأرسلها مع الخليفة لاستعادة بغداد، الا ان الخليفة وصحبه لاقوا حتفهم على ايدي المغول اثناء محاولتهم استرداد بغداد، تولى الخلافة الامير ابو العباس احمد سنة ٦٦٢/١٢٦٣ ولقب الحاكم بامر الله ولكن سلطته كانت محدودة جداً.

بيبرس والصليبيون

وافق بيبرس على طلب الصليبيين عقد صلح معهم، على ان يطلقوا الاسرى المسلمين، الا ان فرقتي الداويه والاسبتاريه رفضتا لاستخدام الاسرى في الزراعة والبناء، كما ابتا تسليم قلعتي صفد والشقيف للمسلمين، فهاجم عكا، واحرق بساتينها سنة ٦٦٢/١٢٦٣، فرد الصليبيون بالاغارة على عسقلان وبيسان اثناء وجود بيبرس في مصر. فصمم على انهاء الوجود الصليبي، واعد العدة لذلك، ففي سنة ٦٦٤/١٢٦٥ احتل قيسارية، ثم حيفا، وبعدها السوف، ثم عاد الى مصر.

اغار امير طرابلس الصليبي على حمص، فتحركت القوة الاسلامية، واحتلت القليعات وعرقة[٦٢]، واثناء وصلت الامدادات الصليبية من اوروبا الى عكا، فكثرت غارات الداوية على المناطق الاسلامية، فتقدم بيبرس الى صفد احدى معاقل

الفرسان الداودية واجبرهم على التسليم بالامان سنة ٦٦٥/١٢٦٦ والرحيل الى عكا[٦٢]، ثم استولى على هونين والرملة، وعاد الى مصر لمرضه، فقام الصليبيون بمهاجمة القرى الاسلامية واسر بعض المسلمين وبيعهم رقيقا.

هاجم بيبرس يافا سنة ٦٦٦/١٢٦٨ واحتلها، ثم استولى على قلعة الشقيف، ثم اتجه الى انطاكية فاقتحمها، وهرب فرسان الداودية من حصن بغراس، فاحتلته قوات بيبرس، وبذلك فصلت الاجزاء الباقية من امارة انطاكية الصليبية عن امارة طرابلس، وفي نفس السنة وافق على عقد هدنة مع افرنج عكا تنص على ان يكون قضاء عكا مع الكرمل وبعض قرى حيفا وقلعة القرين Montfort وقلعة عثليت من املاك الافرنج، اما بقية الاقضية فقد قسمت مناصفة بين الصليبيين والسلطان. الا ان المعاهدة خرقت في السنة التالية عندما ارغم بعض مسلمي عكا وصور على التنصر، فقام بيبرس باجتياح ممتلكات طرابلس، واحتل قلعة صافيتا سنة ٦٦٩/ ١٢٧١ العائدة لفرسان الداودية، ثم احتل حصن عكار، وقلعة العليقة، وحصن القرين العائد لفرسان الاستبارية.

وهكذا استطاع بيبرس الاستيلاء على اغلب ممتلكات الصليبيين من الجليل الغربي الى الناحية الساحلية من قيسارية حتى يافا، وكل الناحية الجبلية الشرقية والشمالية لعكا وكافة امارة انطاكيا ما عدا اللاذقية خلال ثمانية اعوام ١٢٦٣ ـ ١٢٧١ تقريباً.

طرد الصليبيين من بلاد الشام

لم يبق في حوزة الصليبيين من المدن الرئيسة بعد ان استولى بيبرس على معظم مراكزهم الحصينة سوى صور وعكا وبيروت وطرابلس، ومع ان الخلافات كانت تزداد بينهم، الا انهم اتفقوا مع المغول لمواجهة المسلمين وغزو مصر والشام، الا ان بيبرس وقف للحلفاء بالمرصاد، فعندما حاول ابغا المغولي مهاجمة البيرة سنة ٦٦٣/ ١٢٦٥ تصدى لهم الجيش الاسلامي وشتت شملهم، ولم ينجح المغول في محاولاتهم المتكررة الاعتداء على الاراضي الاسلامية في الشام والجزيرة لسهر الجيش المملوكي الاسلامي وحرصه على حماية البلاد.

وعندما توفي الظاهر بيبرس سنة ٦٧٦، ١٢٧٧ ترك دولة قوية مهابة الجانب على رأسها ابنه الملك السعيد، الا ان امور الملك السعيد اضطربت، فقرب اليه صغار الامراء، فنفرت منه قلوب كبار الامراء، فعين ابن بيبرس الثاني سلطانا سنة ٦٧٨/ ١٢٧٩

بوصاية الامير قلاوون، ولكن قلاوون تولى السلطنة وعزل ابن بيبرس بعد ثلاثة اشهر من تولي السلطة.

قلاوون والصليبيـــون:

تولى السلطان قلاوون الحكم سنة ٦٧٨/ ١٢٧٩ وارسي هيبة بينه في النفوس، ثم عقد هدنة مع الصليبيين لمواجهة المغول الذين وصلوا الى مدينة حمص سنة ٦٨٠/ ١٢٨٢ فهزمهم وطاردهم الى اعالي الفرات، ثم عقد معاهدة لحقن الدماء بين السلطان قلاوون وملك النشر. وفي سنة ٦٨٨/ ١٢٨٩م استولى قلاوون على مدينة طرابلس، وامر بهدمها وبناء مدينة جديدة على بعد ميلين منها. وباستيلاء المسلمين على طرابلس فقد الصليبيون بيروت، وجبله وما حولها من الحصون دون مقاومة(٦٤) ولم يبق في حوزتهم بالسواحل الشامية سوى مدينة جبيل وعكا وصيدا وعتليت ثم عزم قلاوون على فتح مدينة عكا، فامر بصنع المنجنيقات والاكثار منها استعدادا لمهاجمة عكا واحتلالها، وبينما كان الاستعداد يسير حثيثاً لهذا الهجوم اذ بالأجل يوافي السلطان قلاوون سنة ٦٨٩/ ١٢٩٠ فتولى سلطنة مصر من بعده ابنه السلطان الاشرف خليل، الذي سجل في عهده نهاية الصليبيين في بلاد الشام(٦٥).

نهاية الصليبيـــين:

حاول ملك قبرص وعكا الصليبي تنظيم امور عكا، وتقوية حاميتها، وطلب من اوروبا ارسال حملة اوروبية لدعم الصليبيين في الشام، كما عقد هدنة مع السلطان الاشرف خليل لعشر سنوات على امل ان تصل الامدادات اوروبا لدعم عكا، على ان السلطان قلاوون لم يكن غافلا عن خطة ملك قبرص، فعقد معاهدة مع جنوا يعطي بعض الامتيازات التجارية للتجار الجنوبيين. شريطة الا يشترك ملك صقلية باية حملة صليبية تاتي الى سوريا.

خرق الصليبيون الهدنة بوصول حملة تضم عصابات أوروبية اخذت تعيث فاسدا في البلاد، والاعتداء على قوافل المسلمين القريبة من عكا، فخرج الاشرف خليل لتأديب المعتدين، ومحاصرة عكا سنة ٦٩٠/ ١٢٩١، فضيق الخناق عليها. واحتل المدينة، ويصف ابو الفداء(٦٦) فتح عكا فيقول «ثم امر السلطان بمدينة عكا فهدمت الى الارض، ودكت دكا، ومن عجائب الاتفاق ان الافرنج استولوا على عكا، واخذوها من صلاح الدين، ظهر يوم الجمعة ١٧ جمادي الآخرة سنة ٥٨٧، واستولى على من بها من

المسلمين ثم قتلوهم، فقدر الله عز وجل في سابق علمه انها تفتح في هذه السنة في الجمعة ١٧ جمادي الاخرة على يد السلطان الملك الاشرف، فكان فتوحها مثل اليوم الذي ملكها فيه الفرنج». وبسقوط مدينة عكا تخاذلت قوى الصليبيين في المدن الباقية لهم في بلاد الشام فانسحب صاحب صور تاركا المدينة للمسلمين، في حين قاومت مدينة صيدا المسلمين بعض الوقت، ولكنها استسلمت بعد ذلك، وسرعان ما سقطت مدينة بيروت في يد المسلمين، ثم احتل المسلمون طرطوس وعتليت اخر معقلين للصليبيين، وبعدما انتهى السلطان الاشرف من استكمال انتصاراته امر بتدمير حصني صيدا وعتليت كما فعل بمدينة عكا.

محاولات الصليبيين استعادة الارض المقدسة:

لم يسكت الصليبيون على تحرير المسلمين لبلادهم، فقد أمر البابا نقولا الرابع بدعوة المجالس الكنسية، لدراسة انجح الوسائل لاعادة الارض المقدسة، كما طلب من فرسان الداوية والاستبارية توحيد نظامها والعمل يدا واحدة ضد المسلمين، ومع ان البابا فشل في اثارة اوروبا لحملة صليبية جديدة، الا ان ظروف المماليك المضطربة، ومقتل السلطان الملك الاشرف سنة ٦٩٣/ ١٢٩٣[٦٧] وتولي ابنه الصغير السلطنة ثم عزله وتولي السلطنة الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري شجع ملك قبرص على ارسال حملة لسورية وصلت الى البترون، وانضمت اليه وحدات مسيحية مارونية من جبل لبنان، واتفق الجميع على مهاجمة مدينة طرابلس، فصدهم المسلمون، وقتلوا قادتهم، وتفرقت الوحدات المارونية ايدي سبأ، وفر الصليبيون الى قبرص من حيث اتوا.

وفي سنة ١٣٠٠ هاجم الصليبيون مدينة الرشيد المصرية، ثم اغاروا على الاسكندرية لارهاب السكان، ثم اتجهوا الى عكا ولكن المسلمين تصدوا لهم فعادوا الى قبرص. تكررت محاولات الصليبيين في مهاجمة الديار المقدسة، ولكن هذه المحاولات فشلت، وانتهت باحتلال المسلمين جزيرة قبرص في عهد السلطان برسباي سنة ١٤٢٦م. واسر ملك قبرص نفسه[٦٨].

هوامش الفصل الرابـــع

١ ـ ابن الاثير، الكامل، ج١١، ص ٥٣٩.

٢ ـ ابو المحاسن، المصدر السابق، ج٦، ص ١٠٥.

٣ ـ مجير الدين الحنبلي، الاندلس الجليل، ج١، ص ٣٨٧.

٤ ـ الاصفهاني، الفتح القسي، ص ٣٤٢.

٥ ـ المقريزي، السلوك، ج١، ص ٢٣٣.

٦ ـ فيليب حتي، تاريخ العرب، ص ٧٧٥.

٧ ـ ابراهيم ياسين الخطيب، التعليم في العهد الايوبي، رسالة ماجستير، ص ٢٤.

٨ ـ المقريزي، المصدر السابق، ج١، ص ٢٣٢.

٩ ـ ابو الفداء، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٠.

١٠ ـ المقريزي، المصدر السابق، ج١، ص ٢١٥.

١١ ـ ابو الفداء، المصدر السابق، ج٦، ص ٧٥.

١٢ ـ د. محمد حلمي محمد، مصر والشام والصليبيون، ص ٢١٥.

١٣ ـ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث سنة ٦٤٨.

١٤ ـ د. سعيد عاشور، المرجع السابق، ج٢، ص ١٠٢٨.

١٥ ـ محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص ٨٨.

١٦ ـ سعيد برجاوي، المرجع السابق، ص ٥٥٢.

١٧ ـ المقريزي، السلوك، ج١، ص ٢٣٤.

١٨ ـ المصدر نفسه، ص ٣٣٦.

١٩ ـ سعيد برجاوي، المرسجع السابق، ص ٥٥٧.

٢٠ ـ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٢٥٦.

٢١ ـ المقريزي، المصدر السابق، ج١، ص ٣٥٥.

٢٢ ـ ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٦٤.

٢٣ ـ محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص ١٢٢.

٢٤ ـ سعيد عاشور، المرجع السابق، ج٢، ص ١٠٦٢.

٢٥ ـ ابو المحاسن، المصدر السابق، ج٧ ،ص ٤٩

٢٦ ـ ابو الفداء، المصدر السابق، حوادث سنة ٦٥٦هـ.

٢٧ ـ سعيد عاشور، المرجع السابق، ج٢، ص ١٠٧٣.

٢٨ ـ المقريزي، المصدر السابق، ج١، ص ٤٢٣.

٢٩ ـ ابو المحاسن، المصدر السابق، ج٧، ص ٧٧.

٣٠ ـ ابو الفداء، المصدر السابق، حوادث سنة ٦٥٨هـ.

٣١ ـ د. عادل زيتون، المرجع السابق، ص ٣٦.

٣٢ ـ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص ٢٦١.

٣٣ ـ د. السيد الباز العريني، المرجع السابق، ص ٤٦.

٣٤ ـ محمد عبد الله عودة وآخر، تاريخ العرب الحديث، ص ١.

٣٥ ـ د. سعيد عاشور، الايوبيون والمماليك في مصر والشام، ص ٣٥٦.

٣٦ ـ ابو المحاسن، المصدر السابق، ج٧، ص ٨٢.

٣٧ ـ د. عادل زيتون، المرجع السابق، ص ٢٠.

٣٨ ـ سعيد برجاوي، المرجع السابق، ص ٥٩٧.

٣٩ ـ المقريزي، المصدر السابق، ج١، ص ٤١٧.

٤٠ ـ د. سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١٠٨٢.

٤١ ـ ابو الفداء، المصدر السابق، ج٢، ص ١١٤.

٤٢ ـ د. عادل زيتون، المرجع السابق، ص ٢٢.

٤٣ ـ د. حسين مؤنس وآخرون، الوطن العربي وحضارته، ص ٢٦١.

٤٤ ـ ابو المحاسن، المصدر السابق، ج٧، ص ٧٣.

٤٥ ـ د. عادل زيتون، المرجع السابق، ص ٢٣.

٤٦ ـ سعيد برجاوي، المرجع السابق، ص ٦١٣.

٤٧ ـ سعيد عاشور، المرجع السابق، ج٢، ص ١١٦٢.

٤٨ ـ محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص ١٣٢.

٤٩ ـ د. سعيد عاشور، المرجع السابق، ج٢، ص ١١٧٠.

٥٠ ـ ابو الفداء، المصدر السابق، حوادث سنة ٦٦٤هـ.

٥١ ـ محمد كرد علي، خطط الشام، ج٢، ص ١٠٩.

٥٢ ـ د. عادل زيتون، المرجع السابق، ص ٣٣.

٥٣ ـ ابو الفداء، المصدر السابق، حوادث سنة ٦٩٠هـ.

٥٤ ـ د. احمد شلبي، المرجع السابق، ج٥، ص ٢٥١.

٥٥ ـ محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية ، ص ١٢٤.

٥٦ ـ محمد عبد الله عودة، دور شجر الدر في قيام دولة المماليك، رسالة ماجستير.

٥٧ ـ عادل زيتون، تاريخ المماليك، ص ١.

٥٨ ـ محمد عبد الله عودة، المرجع السابق، ص ٦٦.

٥٩ ـ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص

٦٠ ـ المقريزي، السلوك.

٦١ ـ ابو الفداء، المختصر، ج٢، ص ٨٨.

٦٢ ـ سعيد برجاوي، المرجع السابق، ص ٥٨٠.

٦٣ ـ السيد الباز العريني، المماليك، ص ٤٧.

٦٤ ـ سعيد عاشور، المرجع السابق،ج٢، ص ١٤٥.

٦٥ ـ السيد الباز العريني، المرجع السابق، ص ٤٨.

٦٦ ـ ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٧٧.

٦٧ ـ د. احمد شلبي، موسوعه التاريخ الاسلامي، ج٥، ص ٢٤٨.

٦٨ ـ د. عادل زيتون، المرجع السابق، ص ٥١.

الفصل الخامس

الدولة العثمانية

- تاسيس الدولة العثمانية
- مسالة الخلافة
- مميزات الدولة العثمانية
- السلطان عبد الحميد والجامعة الاسلامية
- الدولة العثمانية وفلسطين
- جمعية الاتحاد والترقي وقضايا الصراع مع العرب في العهد الدستوري
- أسباب انحطاط وتدهور الدولة العثمانية.
- نهاية الدولة العثمانية والمؤامرة الغربية.

تاسيس الدولة العثمانية

اصل الاتـــراك:

يرجع الاتراك في نسبهم الى كومر بن يافث بن سيدنا نوح عليه السلام فهم ليسوا من الجنس السامي، وقد تفرعوا الى اقوام وشعوب فمنهم:

الروس والاعلان «ويقال ايلان» والخفشاخ وهم القفجق والهياطلة والخلج والغز الذين منهم السلاجقة ويملك والقور وتزكس واركس والطظر «ويقال الطغرغـر» وانكر والاغوز والايغوزيين والقرغيزيين.

وكانوا يقيمون في المنطقة ما بين البحر الصيني شرقا وخليج القسطنطينية غربا، وما بين بلاد الهند جنوبا وسد يأجوج ومأجوج شمالا، فهي المنطقة المعروفة باسم آسيا الوسطى.

ويرجع وجود الاتراك في منطقة آسيا الوسطى الى القرن السادس ميلادي على الاقل ويظهـر ذلك من نقوش ارخـون «٦٣٠ ـ ٦٨٠» وكانـوا خاضعــين الى الاتراك الايغوزيين حتى سنة ٨٤٠ حين خضع الايغوزيون الى الاتراك القرغيزيين الزاحفين بشكل هجرات جماعية من الغرب.

الاتراك في الشرق الادنى: وقد عرف الشرق الادنى الاتراك منذ بداية العهد الاسلامي العربي اذا كان يوجد في الخلافة الاموية عناصر تركية نزحت الى المنطقة من اواسط آسيا، وقد ساعد سقوط الدولة الساسانية في بلاد فارس على ازالة الجدار الذي كان يقف عائقا امام الهجرات التركية من اواسط اسيا الى الشرق الادنى، ولما كانت الدولة الاموية تقوم على العنصر العربي ولم يكن قد ظهر فيها اجناس اخرى فان الاتراك لم يصلوا الى اي نوع من انواع النفوذ او المكانة، ولكن عندما قامت الخلافة العباسية خلفا للخلافة الاموية كثر فيها وجود العناصر غير العربية ووصل كثير من الاشخاص الى اعلى المناصب والرتب، كما وجد منهم كبار الكتاب والمؤلفين في مختلف العلوم.

وكان الفرس هم اصحاب النفوذ في الدولة حتى اصبحت لهم اليد الطولى والمطلقة في تصريف شؤون الدولة، فرأى بعض الخلفاء العباسيين ضرورة مقاومه هذا النفوذ الفارسي بالسماح للاتراك بالاشتراك في تسيير امور الدولة لموازنة هذا النفوذ الفارسي

فاشتركوا في بناء الدولة وتسيير امورها فكان منهم الجند والامراء والمناصب الهامة، وظل نفوذهم يزداد حتى استطاعوا اقامة دول وامارات تركية مستقلة داخل الدولة الاسلامية

وكان اهم هذه الدولة على الاطلاق هي الدولة السلجوقية، ويعتقد ان دخولهم للاسلام عموما كان في القرنين التاسع والعاشر الميلادي، وذلك حين نزل الاتراك السلاجقة من تركستان في آسيا الوسطى الى المنطقة المعروفة باسم ما وراء النهر وخضعوا للدولة الغزنوية اول الأمر، ثم اعتنقوا الاسلام في تلك الفترة، الا ان الامر تطور لصالحهم واصبحوا يشكلون قوة كبيرة فاستفحل امرهم في اوائل القرن الحادي عشر فاعلنوا استقلالهم بزعامة طغرل بك الذي اصبح ملكا عليهم وكان مجيء السلاجقة الى العالم الاسلامي في القرن الادنى في وقت كانت اوصال هذا العالم مفككة كل التفكك، فالخلافة في حالة ضعف شديد يسيطر على الخلفاء عناصر فارسية وتركية، فكان هذا عاملا مساعدا لهم لمد نفوذهم غربا حتى استطاعوا الاستيلاء على بغداد سنة ١٠٥٥م وأخذوا يهاجمون الدولة البيزنطية ويستولون على اجزاء من املاكها واستطاعوا تأسيس دولة سلجوقية ضخمة.

الدولة السلجوقية:

لا شك انه كان للسلاجقة الفضل في توحيد جزء كبير من هذا العالم الاسلامي المتقطع الاوصال وبعث روح جديدة فيه لمدة من الزمن ثم اعطائه نوعا من الاستقرار النسبي كان في حاجة اليه لحياته الاقتصادية والثقافية ويعود فضل للسلاجقة على العالم الاسلامي هو وقوفهم مدة طويلة من الزمن في وجه الصليبيين ومحاولتهم صد خطر المغول - وأن كانوا فشلوا فيها.

وفي اواخر القرن الثالث عشر واوائل القرن الرابع عشر بدأت الدولة السلجوقية والدولة البيزنطية - وهما القوتان المسيطرتان على المنطقة - في الاضمحلال بسبب حروبها الطويلة مع بعضهما البعض من جهة، ولتعرض الدولة البيزنطية للغزو اللاتيني، وتعرض الدولة السلجوقية للغزو المغولي من جهة اخرى، وكان من نتائج هذا الاضمحلال وجود فراغ سياسي في آسيا الصغرى التي اصبحت تتشكل في القرن الرابع عشر على النحو التالي:

في الشمال مملكة طرابيزون المسيحية وفي الجنوب ارمينيا او سليسيا، وفي قونية دولة السلاجقة اما في الركن الشمالي الغربي فقد احتفظ البزنطيون بنفوذهم.

وهذا الفراغ السياسي في آسيا الصغرى كان من الطبيعي ان يجذب اليه عناصر قوية وكانت هذه العناصر هي الاتراك العثمانيين.

العثمانيــيـــون:

العثمانيون هم من احد الاجناس التركية الكثيرة المتاخرة الظهور، وهم ينتسبون الى مؤسس دولتهم عثمان بن طغرل بك السلجوقي من قبيلة قايي خان وقد كانت اول موجة من هجراتهم في أوائل القرن الثالث عشر باتجاه اسيا الصغرى هربا من خطر المغول بقيادة جنكيزخان، ووصلت هذه الهجرة حتى جبال ارمينيا واستقرت هناك بعض الوقت ثم عاد اغلبها الى موطنهم الاصلي في وسط آسيا وذلك بعد وفاة جنكيزخان، وكان مما شجعهم على العودة صعوبة الحياة في المناطق الجبلية التي قدموا اليها، الا ان فريقا منهم ولعله اقوى هذه العناصر واشجعها واكثرها ميلا للمخاطر انحدر في شبه جزيرة اسيا الصغرى على امل ان تنضم في صفوف السلطان علاء الدين منقباد سلطان السلاجقة الروم في قونية لينقذهم من الخطر المغولي.

ان تاريخ دخول العثمانيين في اسيا الصغرى واستقرارهم هناك وبدء تكوين امارتهم ليس معروفا على وجه التحديد، وتظل هذه الفترة الاولى من حياة الدولة العثمانية وهي مرحلة الميلاد غامضة متناقضة متضاربة لا يمكن الاعتماد عليها من الناحية العملية خاصة ان العثمانيين انفسهم لم يكتبوا تاريخهم قبل فتح القسطنطينية، وأن الاوروبيين لم يكونوا يستطيعون في اول علاقتهم مع العثمانيين ان يفرقوا بين العثمانيين وبقية العناصر التركية في اسيا الصغرى التي كانت ما تزال في بعض الامارات هناك.

وهكذا فليس امامنا سوى مجموعة الاساطير التي تنقل عن بدء العثمانيين في اسيا الصغرى ويرى المؤرخ جيبونزGibbons انه ما دامت هذه الاساطير هي المرجع الوحيد لهذه الفترة فليس هناك ما يمنع من اخذها اخذا جديا وغربلتها واستخلاص ما يتمشى منها مع المنطق ومن غربلة هذه الاساطير يمكن أن نستخلص ان السلطان السلجوقي علاء الدين لم يكن يسره كثيرا وفود هذه الجماعات العثمانية: حقيقة انها عصابات خبرت الحرب وامتازت بشجاعتها وجلدها، وحقيقة أنها كانت ستقوي من جيش علاء الدين خصوصا في نضاله المنتظر مع المغول، الا ان الواقع انه لم يكن من السهل على علاء الدين ان يدخلهم في صفوف قواته، اذ لا شك انها كانت عناصر غريبة عنه، لا يستطيع ان يطمئن اليها كل الاطمئنان لكيانها المنفصل عن جيشه، ثم انه لم يكن يامن لموقفها في حالة هزيمته او موته، وانتهى رأي علاء الدين على ان يمنحهم منطقة من

مملكته التي كانت تتداعى، وهي البقعة المعروفة باسم اسكي شهر، وهناك عليهم ان يختبروا قوتهم، ويكافحوا في سبيل حياتهم بالحرب في جهتين: الفوضى الداخلية بالقضاء عليها، والاحتفاظ بما منحهم علاء الدين ضد الاباطرة البيزنطيين المجاورين لهم في نيقيه.

ولم تكن هذه الامارة التركية العثمانية في اواخر القرن الرابع عشر اقوى الدول سياسيا وعسكريا في اسيا الصغرى، اذ كان هناك غيرها من الامارات التركية تفوقها اتساعا ومقدرة. منها: امارة صارخان وقرميان وقرمان، لكن من حسن حظ العثمانيين انهم اتجهوا بفتوحاتهم غربا نحو الدولة البيزنطية، لبسط نفوذهم في اوروبا، ففي اوروبا وبواسطة جنود جمعوا من البلقان تمكن العثمانيون من التوسع شرقا، فليس من الصحة بشيء القول الذي كان سائدا حتى اوائل القرن العشرين بأن العثمانيين جنس تركي مسلم قهر شبه جزيرة اسيا الصغرى ثم اتجه الى أوروبا واسقط الدولة البيزنطية.

وليس من المعروف على وجه الدقة فتوحات عثمان قبل سنة ١٤٠٠ لأنه ـ كما سبق لم يكتب المؤرخون العثمانيون تاريخ دولتهم قبل سقوط القسطنطينية وان الاوروبيين لم يكونوا يفرقون بين العثمانيين وغيرهم من الاتراك، غير ان من الثابت على كل حال ان عثمان كان قد تمكن في سنة ١٣٠٠ ان يخضع فريجيا وبيثينيا ذات الموقع الاستراتيجي لوقوعها بين بروسة ونيقية ويستغل عثمان الصراع بين البيزنطيين والامارات التركية الاخرى القريبة منها حول السيطرة على مجنيسيا وبلاد لقباو وغيرها من المدن في شبه جزيرة آسيا الصغرى، وقام باحتلال عك حصار سنة ١٣٠٨ وكانت عك حصار آخر حاجز أمام تقدم العثمانيين في شبه الجزيرة الضيقة التي تمتد بين نيقوميديا والبحر الاسود فأطل العثمانيون على البسفور، وفي السنوات التي تلت سقوط عك حصار تمكن العثمانيون من مد نفوذهم في ثغور وقلاع البحر الاسود الواقعة على مصب نهر سنجاريوس والبسفور، وفي سنة ١٣٠٨ سقطت ايضا جزيرة كالوليمني Katolimni في بحر مرمرة وبهذا سيطر العثمانيون على الطريق المائي بين بروسة والقسطنطينية وكذلك سقطت جزيرة هودج حصار Trcocca ، ثم احتل عثمان مدينة بروسة ولم يكن احتلال العثمانيين لهذه الاجزاء بحاجة الى حروب عنيفة، بل كان تسليما من جانب البزنطيين نتيجة لتفكك دولتهم سياسيا واجتماعيا.

ولما توفي عثمان سنة ١٣٢٦ خلفه ابنه اورخان فاختار مدينة بروسة عاصمة لدولته، ويعتبر مؤسس الدولة العثمانية واول خلفائها، لأنه انشأ ادارة داخلية، وصك النقود، وكون جيش اليولداش، وجيشا احترافيا، واصبحت دولته تتدخل في شؤون

الدولة البيزنطية، واستطاع احتلال كل من نيقية، ونيقوميديا، وميسيا، ثم جاء بعده مراد الاول فاستولى على كثير من المدن الاوروبية مثل اندري نوبل، وموناستري، ودخل البانيا وفي سنة ١٣٦٥م اختار مدينة اندري نوبل عاصمة للدولة، واستطاع الانتصار على الحلف البابوي سنة ١٣٦٢ (البابا اريان، وملك المجر وامراء بوسنة، وسيرس، وفلاشيا) واستولى على ادرنة ١٣٦٢م وعلى صوفيا سنة ١٣٨٥م، وعلى نيش ١٣٨٦م، وعلى سالونيك سنة ١٣٨٧م. واستطاع خليفته بايزيد الاول منذ ١٣٩٠ احتلال الامارات مثل صاروخان، وايدين، ومنتشة، ثم قسطمونو واماسيا، وفي سنة ١٣٩٣ احتل مدينة ترنوفو عاصمة بلغاريا، وتابع توسعاته الى ان احتل ارزيخان سنة ١٤٠٠م، الا انه وقع في الاسر في معركة انقرة سنة ١٤٠٢م ومات في الاسر. واستطاع السلطان محمد الثاني «الفاتح» فتح مدينة القسطنطينية في ٢٩ ايار سنة ١٤٥٣م فكان هذا الحدث حاسما اذ انه اذن باندثار الامبراطورية البيزنطية المسيحية، وقيام الدولة العثمانية الاسلامية، واعتبره المؤرخون نهاية للعصور الوسطى وبداية للعصور الحديثة. واخذ العثمانيون يتابعون هجوماتهم على اوروبا فاسرعت دولها للتفاوض معهم وعقد المعاهدات. واستطاع السلطان سليمان القانوني احتلال بلغراد سنة ١٥٢١م ورودس والمجر، وهكذا اصبحت الدولة العثمانية صاحبة السيادة في معظم اجزاء اوروبا، ووصلت قمة توسعها في تلك الجهات، اذ وصلت الى حدود روسيا وبولندا شمالا وفينا وايطاليا غربا.

العوامل التي ساعدت العثمانيين على تحقيق توسعهم:

يمكن تحديد العوامل التي ساعدت العثمانيين على مد نفوذهم وبسط سيطرهم على مناطق شاسعة من اوروبا الى عدة عوامل:

١ - الحرب عند العثمانيين:

لم يكونوا يفتحون المدن عنوة او قهرا، بل كانوا يتبعون طريقة الحصار زمنا طويلا. وفي هذه المرحلة الاولى: مرحلة الانتقال من البداوة الى الحضارة سهلت عليهم طرقهم في الحرب احراز النصر، فهم ليسوا في حاجة لزمن طويل للاستعداد لهجومهم ولذلك كان من الصعب على العدو تحديد الوقت الذي يقوم العثمانيون فيه بالهجوم وتحديد المنطقة التي يهاجمونها، والى جانب ذلك فقد تعودوا على الاغارة والرحيل والتخلص من الحمل الثقيل الذي يعيق الكر والفر.

٢ ـ اسلام العثمانيين:

دخل العثمانيون شبه جزيرة اسيا الصغرى وهم في حالة الوثنية، ولا شك أن وجودهم في وسط اسلامي وهو سلاجقة الروم كان اكبر عامل في اعتناقهم للدين الاسلامي. فكانت عملية اسلامهم سهلة، وتمت دون ان يثار حولها ضجة، وكان لاعتناقهم الاسلام اثر كبير، فقد جمع شمل العناصر المتفرقة في شبه جزيرة اسيا الصغرى تحت راية واحدة، وخلق لها قضية واحدة يتحمسون لها.

٣ ـ زوال النفوذ البيزنطي من اسيا الصغرى:

مهدت الامارات التركية التي كانت املاكها قريبة من بحر ايجة السبيل للعثمانيين لبسط نفوذهم في هذه المنطقة، ولما حاول ميخائيل بن الامبراطور اندرونيكس انقاذ املاك امبراطوريته في اسيا الصغرى فشل بسبب تمرد العناصر السلافية في جيشه والى المساعدة التي جاءته من الغرب وبالذات من فردينا «صاحب اراغون» الذي اراد التخلص من العناصر المشاغبة في جيشه فرأى في طلب اندرونيكس فرصة للتخلص منها فارسلها له، فدخل افرادها مع الجنوبيين واليونانيين في حروب اهلية وعاثوا فساداً، فعملت على زيادة ضعف الامبراطورية البيزنطية وشغلتها بحروب اهلية، وشغلت الاباطرة عن توجيه همهم لحماية املاكهم في اسيا الصغرى التي بدأت تسقط في ايدي العثمانيين.

التوسع العثماني في الشرق العربي

اسباب تحول الفتوحات العثمانية من الغرب الى الشرق

في اوائل القرن السادس عشر اي عهد السلطان سليم الاول تغيرت الاستراتيجية للدولة العثمانية فتوقف زحفها نحو الغرب، واتجهت بفتوحاتها نحو الشرق في قلب الشرق العربي وقد سبق أن لاحظنا ان الدولة العثمانية كانت حتى ذلك الوقت دولة متكاملة تكونت اساسا في اوروبا وكان جل اعتمادها على ابناء البلقان حتى ان الانكشارية التي كانت عماد الجيش العثماني تكونت من ابناء الاوروبيين وان الممتازين من ابناء المسيحيين الذين جمعوا من ضريبة الدم وجهوا نحو تربية ثقافية علمية وفنية واعدوا لتولي المناصب الكبرى في الدولة العثمانية من الغرب نحو الشرق.

١ - فيرى بعضهم ان الدولة العثمانية

قد بلغت مرحلة التشبع في فتوحاتها الغربية بنهاية القرن الخامس عشر فكان عليها في اوائل القرن السادس عشر ان تبحث عن ميادين اخرى لفتوحاتها وتوسعها وقد انتقل مركز الثقل من الغرب الى الشرق حتى ان موقف الدولة العثمانية في الغرب كان موقفا دفاعيا اكثر منه هجوميا فهذا الرأي يتفق مع المنطق التاريخي اذ انه من المعروف ان لكل دولة مدى معين في التوسع ودولة مثل الدولة العثمانية مركزها في القسطنطينية من المعقول ان يقف مداها عند المجر.

٢ - ويرى فريق آخر

انه حتى لو صحت هذه النظرية فان الاحداث التي دارت داخل الشرق العربي او حوله في اوائل القرن السادس عشر هي التي جذبت الدولة العثمانية الى الدخول في ميادين الشرق العربي فيرى جماعة من هذا الفريق وعلى رأسهم المؤرخ الشهير آرنولد توينبي ان سياسة الدولة الصفوية في ايران من محاولة بسط المذهب الشيعي في العراق وآسيا الصغرى هي التي دفعت الدولة العثمانية الى الاتجاه نحو الشرق العربي لحماية آسيا الصغرى بصفة خاصة والعالم السني بصفة عامة.

٣ - بينما ترى جماعة

اخرى ان المقصود بأحداث المشرق هو الزحف الاوروبي والبرتغالي على حدود الشرق العربي ومنافذه البحرية فكان قدوم العثمانيين للمنطقة بقصد الوصول الى هذه الحدود والمنافذ قبل البرتغاليين وحماية الشرق الاسلامي من الخطر البرتغالي.

ومن المعقول، بل والمنطقي ان تكون هذه العوامل الثلاث مجتمعة هي التي أثرت على استراتيجية الدولة العثمانية، وأجبرتها على تحويل وجهة فتوحاتها من الشرق الى الغرب.

وكان الشرق الادنى قبل دخول العثمانيين مباشرة ينقسم الى قسمين:

١ - القسم الغربي ويشمل ايران والعراق، وهو الذي تعرض لغارات المغول وعانى الكثير من الخراب والفوضى والاضطراب.

٢ ـ القسم الشرقي ويشمل مصر والشام، وهو الذي نجا من هذه الغارات بفضل الدولة المملوكية.

وقد تمكن العثمانيون في عهد السلطان سليم الأول من احتلال هذه المنطقة على اثر ثلاث معارك حاسمة، كانت الاولى في غالديران سنة ١٥١٤م حيث تمكن السلطان سليم من الحاق الهزيمة بالجيش الصفوي بقيادة اسماعيل الصفوي، واحتل شمال العراق وديار بكر وجزء من اذربيجان، واخضع ايران للحكم العثماني. وكانت المعركة الثانية في «مرج دابق» في آب سنة ١٥١٦م انتهز فيها المماليك وانتحر قونصوه الغوري، واستولى السلطان سليم العثماني على حلب وحماة وحمص، ودخل دمشق، واستولى السلطان سليم العثماني حلب وحماة وحمص، ودخل دمشق، وخطب باسمه في صلاة الجمعة، وقدم له امراء الشام الولاء والطاعة.

اما المعركة الثالثة فكانت «الريدانية» في كانون الثاني سنة ١٥١٧م انتصر فيها العثمانيون بقيادة السلطان سليم على المماليك بقيادة طومان بساي، ودخلوا القاهـرة. وبذلك اصبحت منطقة الشرق الادنى كلها خاضعة للحكم العثماني.

مسالة الخلافة: يري معظم المؤرخين ان الخليفة العباسي المتوكل على الله تنازل عن الخلافة للسلطان العثمـاني، وان السلطان العباسي قـدم للسلطان سليم شعائـر الخلافة وهي عبارة عن:ـ بردة الرسول وبعض شعرات من لحيتـه، وسيف عمر بن الخطاب. غير ان الادلة التاريخية لا تؤيد هذه الاقوال، وتبين ان هذه الرواية تكونت بعد فتح مصر وبعد وفاة السلطان سليم، والادلة على ذلك كثيرة منها:

١ ـ ان المؤرخ ابن الياس الذي كان معاصراً لاستيلاء العثمانيين على مصر، ودون كثيراً من الوقائع والامور بتفاصيل وافية، ولكنه لم يذكر شيئاً عن امر الخلافة، فتكلم كثيراً عن السلطان سليم وابنه سليمـان، وفي كل مـرة يسمي «المتوكـل» بالخليفة، ويسمي «سليم وسليمان» بالسلطان ولم يشر الى تبدل أمر الخلافة.

٢ ـ اليوميات التي كتبت في التاريخ التركي في عهد السلطان سليم التي سجلت كل ما فعله السلطان سليم لا يوجد فيها اية كلمة عن قضية الخلافة.

٣ ـ التواريخ العثمانية: واقربها الى عهـد السلطان سليم هو المعـروف باسم «تـاج التواريخ» وكاتبه هو شيخ الاسلام الذي رافق السلطان سليم خلال سفـره الى مصر، فهو لا يذكر شيئا عن مسالة الخلافة.

٤ ـ زوال مكانة الخلافة: كانت الخلافة قد فقدت مكانتها منذ مدة طويلة وأصبح الخليفة مجرداً من كل سلطة فعلية او أسمية. وكان يعين من السلطان، ويقصى عن منصبه بامر من السلطان، فقد عين السلطان سليم «المتوكل» خليفة، وأمر السلطان العثماني بعزل الخليفة حمزة وتعيين اخ المستنجد بالله الجمالي مكانه، وهذا يعني ان السلاطين العثمانيين لم يكونوا يعيرون الخلافة اي اهتمام.

ولم يبدأ اهتمامهم بها الا منذ اواخر القرن الثامن عشر حين تعرضت اجزاء من الدولة للاحتلال الاوروبي، وذلك من اجل كسب ولاء المسلمين حتى الذين يعيشون في دولة مسيحية. وازداد اهتمامهم بالخلافة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني نظراً لحاجته لكسب دعم وتأييد المسلمين في مقاومة الخطر الاوروبي، والقضاء على الحركات السياسية المعارضة، وليضفي على نفسه نوعاً من القداسة، وتجعله في مأمن من النقد والتجريح.

ـ خضوع بقية الاقطار العربية للحكم العثماني:

لقد كان من النتائج المباشرة لسقوط مصر في ايدي العثمانيين سقوط الحجاز في ايديهم تلقائيا، لان مصر كانت هي صاحبة السيادة والنفوذ في الحجاز منذ العصور الوسطى. فرأى شريف مكة «بركات» ان من الحكمة ان يقبل بسيادة الدولة العثمانية القادرة على مناوءة الخطر البرتغالي في البحر الاحمر، ولحاجته لاوقاف مصر، مادام ذلك لن يغير من نظام الشرافة في الحجاز، فارسل ابنه «ابو نمي» الى القاهرة حاملا للسلطان سليم تهاني والده، ومفاتيح الحرمين الشريفين.

ثم دخل اليمن تحت السيادة العثمانية سلميا كالحجاز، حيث اعلن اسكندر الجركسي طاعته للسلطان سليم، وتزيابزي العثمانيين، وسمي بالاسكندر المخضرم، لانه تولى الولاية في العهدين المملوكي والعثماني. ونظراً للخلافات والصراعات في اليمن ارسل العثمانيون اول حملة عسكرية بقيادة سليمان الرش سنة ١٥٢٧م حيث عملت على توطيد دعائم الحكم العثماني واقرار السلام في اليمن. ثم تجدد الصراع مع الامامية الزيدية فكانت الحملة العثمانية بقيادة سنان باشا سنة ١٥٦٨م الذي أستطاع بسط النفوذ العثماني على عدن وصنعاء وتعز وزبيد، فأعتبر ذلك الفتح الثاني لليمن.

واضطر العثمانيون للانسحاب من اليمن سنة ١٦٣٦م، ولم تستطع الدولة العثمانية أعادة سيطرتها على اليمن الا في الربع الاخير من القرن التاسع عشر بقيادة مختار باشا سنة ١٨٧٢م.

اما بالنسبة لدول المغرب العربي، فقد تم الحاق الجزائر بالدولة العثمانية سنة ١٥١٨م على يد خير الدين بربروسا (ذي اللحية الحمراء) الذي استطاع ان يفتح تونس سنة ١٥٢٤م ثم استعادها الاسبان سنة ١٥٣٥م على يد الملك الاسباني شارل الخامس، وظلت تونس تسقط تحت الحكم العثماني تارة وتحت الاحتلال الاسباني تارة اخرى، الى ان تمكن سنان باشا ـ الذي فتح اليمن ـ من استعادتها نهائيا سنة ١٥٧٤م. اما مراكش فإنها لم تدخل تحت الحكم العثماني.

مميزات الدولة العثمانية

تمكن السلاطين العثمانيون من احتلال البلاد العربية في مدة لا تتجاوز الاربعين عاماً بسهولة، وبدون مقاومة تذكر، فلم يكلفهم ذلك حروبا طاحنة ولا خسائر فادحة، وذلك لانه لم يكن عليهم الا ان يقهروا جماعة الحكام المماليك ليجدوا ترحاب الاهالي ومعاونتهم للفاتحين الجدد. ولا شك في ان اعتقاد العرب المسلمين بالخلافة العثمانية قوى نفوذها وسهل حكمها تسهيلا كبيرا، فكانت هذه النظرة الدينية للدولة العثمانية سببا في تسهيل مهمة الدولة في ترسيخ اقدام حكمها في هذه الاقطار، وخضوع اهلها للدولة خضوعـا طوعيا لكونها دولة اسلامية تدافع عن «بيضة الاسلام».

وعلى الرغم من الايجابيات التي كانت للحكم العثماني في مراحله الاولى في الحفاظ للمجتمعات على مقوماتها الرئيسية، وحماية البلاد العربية من خطر الاستعمار الاوروبي مدة طويلة من الزمن، الا ان خوف الدولة من هذا الاستعمار جعل الحكومة العثمانية تفرض على المنطقة عزلة شديدة حالت بينها وبين العالم الخارجي، ولم تكن هذه العزلة سياسية واقتصادية فحسب، بل حضارية ايضا، فلم يصل الشرق عنصر واحد من عناصر الحضارة الغربية التي كانت تسير بخطى سريعة في طريق التقدم فيما بين القرنين السادس عشر واواخر القرن الثامن عشر.

ويمتاز الحكم العثماني في البلاد العربية بعدة مميزات بعضها يوضح مدى اهتمام الدولة العثمانية بهذه الولايات، وبعضها يوضح نظرة السكان العرب تجاه السلطان العثماني والعلاقة التي تربطهم به، ويمكن اجمال هذه المميزات بما يلي:ـ

١ ـ انه حكم غير مباشر. حيث كانت الحكومة تكتفي بجمع الضرائب والاموال من الاهالي على اساس «نظام الالتزام»، وهو توزيع الاراضي على الملتزمين بتحصيل الضرائب، مقابل قيام الدولة بحفظ الامن في الداخل والدفاع عن الولايات من

الاخطار الخارجية التي قد تتعرض لها من قبل جماعة غازية او دولة استعمارية، ولم تكن تتصور ان من واجبها توفير الرعاية الصحية، والاعتناء بتوفير الوسائل التعليمية ووسائل الحياة الملائمة، وبناء الاقتصاد الداخلي، بل تركت ذلك كله لاهل البرّ والتقوى ينشؤون المدارس، ويبنون المستشفيات، ويقيمون المساجد، ويشيدون المشاريع الاقتصادية والخيرية.

وكان الملتزم يورث هذا الحق لذريته، واصبح الملتزم يجبر الاهالي على العمل في اراضيه الخاصة التي لا يدفع عنها ضرائب، وتسمى «الوسية» ثم اصبح الملتزم مسؤولا عن استتاب الامن وادارة القرى في دائرة التزامه.

٢ ـ ارهاق كاهل الاهالي بالضرائب المتنوعة والباهظة بشكل تعسفي دون ان يستطيع احد ان يرفع صوته بالاحتجاج، مما كان سببا في خلق القلاقل والفتن والثورات.

٣ ـ انه كان حكما عسكريا بحتا، حيث كان الجيش اداة الحكم في الاويات، اذ اعتمدت الدولة منذ البداية على الجيش في احتلال اقطار المشرق العربي تباعاً، وكان يظهر على انه حكم عسكري يقوم على حامية من الجنود ظهرت وكأنها جيش احتلال اجنبي. ودفعها اهتمامها بالناحية العسكرية واعتمادها على الجيش في ادارة شؤون الحكم في الولايات، وتدعيم اركانها الى انشاء جيش جديد يدعى «الجيش الانكشاري» من الاطفال الاسرى. وكان الجنود لذلك يتمتعون بامتيازات هامة، حيث كان السلطان يقطع بعض المناطق الصغيرة للجنود المحاربين، والمناطق الكبيرة للامراء وكبار قادة الجيش، مما جعل منهم اقطاعيين من الدرجة الاولى، وكانت هذه الاقطاعيات تسمى «زعامة» او «تيمار»، وكان هذا النظام يؤمن للسلطان زراعة الارض، واستغلالها من جهة، ويريح الدولة من دفع المرتبات من جهة ثانية.

٤ ـ ولعل اهم ميزة يمتاز بها هذا الحكم هي كونه حكما اسلاميا يقوم على مبدأ «التضامن الاسلامي»، حيث راى العثمانيون ان العامل الديني الاسلامي أكبر أساس لبقائهم في الولايات العربية، خاصة وان الاسلام دين الغالبية العظمى لسكانها، حتى في الجيش ادرك السلاطين اهمية وتأثير العامل الديني، حيث عملوا على تنشئة الجنود الانكشارية تنشئة اسلامية مبنية على روح الجهاد من اجل الاسلام، فأعطتهم قوة روحية فائقة.

واعتبر العرب فتح العثمانيين لسوريا ومصر انقاذاً لهما من جور المماليك ولهذا سارع شريف مكة بتسليمه مفاتيح الكعبة، وارتبط العرب بالعثمانيين واندمجوا معهم برابطة الدين، مما ضمن ولاء العرب وطاعتهم للسلطان العثماني، وأخر انفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانية فترة اطول من باقي الولايات الاوروبية.

٥ ـ انه حكم رجعي، فقد بقيت القوانين التي سنها السلطان سليم الاول والسلطان سليمان القانوني هي المعمول بها لدى السلاطين العثمانيين من بعدهما، وقد حاول بعض السلاطين منذ عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ ـ ١٨٦١م) اعادة تنظيم البلاد، واصلاح حالتها، وتجديد قوانينها، فأصدر مرسومين سلطانيين، عرف الاول باسم «منشور الكلخانة» سنة ١٨٣٩م ينصب على حقوق التبعية في «امنيّة» الروح والعرض والمال، في وقت كثرت فيه عمليات الاغتيال والسلب والاعتداء على اعراض النساء، وعرف الثاني باسم «التنظيمات الخيرية» سنة ١٨٥٦م وقد كان تأكيداً للمنشور الاول بالاضافة الى تامين المساواة التامة بين المسلمين وغير المسلمين، ومزجهم في التابعية العثمانية، وجعلهم كأمة واحدة، كما الغي الاقطاعيات ونظم التيمار او الزعامات، غير ان الحكومة لم تستطع تطبيق هذه المباديء الاصلاحية في اراضي الدولة العثمانية بما فيها البلاد العربية التي فرضت عليها ـ وخاصة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ـ سياجاً من العزلة التامة عن بقية الدول المتقدمة والمتطورة، فظلت ترزح تحت كابوس الثالوث الوبائي: الجهل، والفقر، والمرض.

٦ ـ تباين الحالة التعليمية والثقافية في الاقطار العربية: حيث كان من نتائج التنظيمات الاصلاحية انتشار المدارس العسكرية في بعض الولايات العربية مثل العراق، حيث تخرج عدد من الضباط العسكريين كانت لهم ادوار بارزة في أحداث الدولة في مطلع القرن العشرين، بينما بلاد اليمن والحجاز لم تصلها هذه المدارس، وظلت تنهل من الثقافة الاسلامية، في حين ان سوريا ولبنان كثرت فيها مدارس الارساليات التبشيرية التي كان لها اثر فعال في نشر الثقافة الاوروبية في بلاد الشام، وفي هذا دليل واضح على التباين في ثقافة ابناء العرب في الاقطار العربية المختلفة، وقضى على اندماج الملل والطوائف المختلفة.

٧ ـ عدم قدرة العنصر التركي على الانصهار مع العناصر السكانية الاخرى على شكل

وحدة قومية واحدة، مما اعطى للحكم العثماني لونا وكأنه اجنبي، فقد كانت تتكون من عدد كبير من القوميات المتباينة لغة ودينا وفكرا وثقافة وعادات وتقاليد، بحيث لم يكن من الممكن صهرها في بوتقة قومية واحدة، فظلت الدولة العثمانية تعاني من انعدام الوحدة الوطنية، وانعدام شعور الانتماء عند ابناء تلك القوميات، ولو ان العرب كانوا آخر القوميات التي اخذت تطالب بالاستقلال والانفصال عن الدولة العثمانية، مدفوعين الى ذلك بفعل الافكار القومية والتركية الطورانية التي راحت تعمل على تفوق العنصر التركي، واضطهاد القومية العربية، مما دفع ابناء العرب الى النضال من اجل استقلالهم في دولة قومية واحدة.

٨ - انه حكم مركزي مطلق بحيث كان السلاطين العثمانيين يرون في اللامركـزية تعويضا لاركان الدولة، وانفصال ولاياتها وزوالها. وقد كانت هذه القضية من أهم عوامل الصراع بين الاصلاحيين العثمانيين بما فيهم العرب وبين الحكومة العثمانية منذ عهد السلطان عبد الحميد الثاني وخاصة في عهد الاتحاديين.

السلطان عبد الحميد والجامعة الاسلامية

بدأ العالم الاسلامي يموج منذ اواخر القرن الثامن عشر ميلادي بحركات بعث واحياء دينية قوية جاءت كرد فعل لحركة الاستغراب في الشرق التي كانت تعني اتجاها علمانيا في حياة المجتمعات الاسلامية، او نتيجة لاعتداءات الدول الاوروبية على بعض اجزاء هذا العالم.

وكان من بين هذه الحركات حركة «الجامعة الاسلامية» التي كانت دون شك أكثرها ادراكا لمشكلات العالم الاسلامي، وكان زعيم هذه الحركة الشيخ جمال الدين الافغاني، الذي كانت افكاره تقوم على أساس إصلاح المسلمين دينيا واجتماعياً وسياسياً، واستمرت أفكاره في الانتشار والرجحان الى أن تطورت الى دعوة جامعة شاملة لكل المسلمين، واصبحت تعرف باسم «الجامعة الاسلامية». وكان المثل الاعلى لجمال الدين حالة المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين من حيث العقيدة، والصفات الخلقية، والنظام السياسي، فهو يرى انهم كانوا موحدين حقا، معتزين بدينهم، لا تفرقهم المذاهب والنحل، مترابطين برباط الاخوة، فيهم خلق الاباء والشمم، يبذلون أعز شيء في سبيل عقيدتهم وعزتهم، يعملون على نشر العلم، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

وكانت مبادىء الجامعة الاسلامية تتلخص فيما يلي:-

١ - بث الروح في الشرق حتى ينهض بثقافته وعلمه وتربيته وصفاء دينه ونقاء عقيدته.

٢ - العمل على قيام وحدة بين جميع البلاد الاسلامية، وتأسيس حكومة اسلامية واحدة، تهتم بالاسلام وتعاليمه، وكان يدرك عدم امكانية خضوعها لامير واحد، فاكتفى بالدعوة الى ان ترتبط اجزاؤها بروابط محكمة، وتحكمها حكومات إمامها القرآن، واساسها العدل والشورى.

٣ - مناهضة الاحتلال الاجنبي حتى تعود الاقطار الشرقية الى استقلالها. وقد شغل هذا المبدأ أكبر جزء من جريدته «العروة الوثقى». وقد شدد حملاته على الاستعمار الانجليزي الذي استولى على وطنه الافغان.

وقد فطن السلطان عبد الحميد الثاني الى اهمية هذه الحركة، وضرورة استغلالها لفائدته، فقرر اللجوء الى تأييدها، والمناداة بها، لكي يحقق اهدافا خاصة بعضها يتعلق بموقفها الداخلي، والآخر بموقفها الخارجي، فهي:

١ - تضمن التفاف العالم العربي حول الخلافة العثمانية باسم الاسلام.

٢ - تساعده على تأكيد استبداده بفعل ما سيكتسبه من قداسة، وبالتالي يضمن تأييد الاهالي له في مطاردته الحركة الوطنية الداخلية.

٣ - تساعد على تقوية موقف السلطان عبد الحميد أمام الدول الاوروبية التي تستعمر بلدانا اسلامية كالجزائر وتونس ودول افريقيا والهند وروسيا، فتكون هذه الشعوب وسائل ضغط على الدول الأوروبية المستعمرة لتقف الى جانب خليفة المسلمين، وعدم التعرض اليه، او الاعتداء على اراضي الخلافة الاسلامية.

ولقد شعرت الدول الاوروبية بخطر هذه السياسة على نفوذها، فقام بعض رجال السياسة الاستعمارية مثل خانوتو، واللورد كرومر واللورد غراي بمهاجمة الجامعة الاسلامية واعتبارها بؤرة للتعصب الديني، وأن هدفها ليس سوى تحدي قوات الدول المسيحية، ودعوا الامم الاوروبية الى مراقبتها مراقبة شديدة والحذر منها. فقام بعض رجال الدين العرب والترك يردون على هذه الاتهامات، وينفونها ويفندونها، فقد دافع الشيخ محمد عبده عن هذه الفكرة، ونفى عنها فكرة التعصب الديني، بل انه دافع عن السلطان عبد الحميد نفسه، بأن قال في رده على اللورد كرومر بأن دولة عبد الحميد اكبر دول الاسلام وان سلطانها افخم سلاطينهم. وكتب البرنس صباح الدين (احد رجال

الحركة الوطنية العثمانية) في جريدة التايمز اللندنية في ١٣ آب ١٩٠٦م ردا على خطاب اللورد غراي في مجلس العموم البريطاني، فقال: بأن الجامعة الاسلامية ليست اسطورة من الاساطير، ولكنها ـ حسب لغة علم الاجتماع ـ رد فعل الشرق ضد اعمال الغرب، هذه الاعمال التي لم تكن على الدوام تحمل الطابع السلمي. غير ان البرنس صباح الدين فضح استغلال السلطان عبد الحميد لهذه الفكرة ، فقال: ان حكومة عبد الحميد بعد أن رأت تحرك الشبيبة التركية واندفاعها نحو الاصلاح والمدنية الغربية بقدم ثابت، اضطرت للتستر بستار الدين لمحاولة المحافظة على الحكم الاستبدادي الذي بدأت دعائمه تهتز وتترنح، وان اتجاه الحكومة هذا لم يكن الا حقدا على الحركة التحررية، لا اخلاصا منها وعطفا على فكرة الجامعة الاسلامية وان الامبراطورية العثمانية التي تضم بين رعاياها عددا لا يستهان به من اتباع الديانات الاخرى ينبغي ان تكون ادارتها حيادية عادلة، وعلمانية دستورية، ولا تضحي بعلاقاتها مع الدول العظمى على مذبح الجامعة الاسلامية. والحقيقة هو ان السلطان عبد الحميد رأى او شعر بموجة الشعور الديني التي كانت تجتاح ارجاء العالم الاسلامي في اواخر القرن التاسع عشر كرد فعل للحركة الاستعمارية الاوروبية الطاغية، فاراد استغلال هذا الشعور في سبيل توطيد سيطرته في الداخل، وتعزيز مكانته الدولية في الخارج، فقام يبرهن على تعلقه بهذه الفكرة واخلاصه لها، كأن يستميل اليه الشخصيات الدينية ووجهاء العالم الاسلامي، ويغدق عليهم العطايا والنياشين، وانشأ مدرسة خاصة لتخريج الدعاة ونشرهم في مختلف العالم الاسلامي لترويج الدعاية لهذه الفكرية وله وهو نفسه كممثل وارع لها. كما تفتق ذهنه عن مشروع سكة حديد الحجاز ووصلها بسكة حديد بغداد التي كانت قيد التأسيس لتسهيل السفر الى الحج وخدمة المسلمين. وقد رمى من وراء هذا المشروع الى اغراض مختلفة، كلها تخدم نفوذه ومكانته في العالم الاسلامي وبين العرب، وتعزز سياسته القائمة على الحكم الفردي والمركزي، وهي اغراض دينية وسياسية وعسكرية واقتصادية، فهو اولا يسهل الحج بتقصير مدة الحج وبجعله في متناول الجميع، فيزداد الاختلاط والتعارف والتآلف بين المسلمين، ويؤمن نقل الجند بسرعة لقمع الثورات في حالة نشوبها، وللدفاع من اطراف المملكة، ويساعد على التبادل التجاري، وعلى نقل افكاره وانتشارها، وعلى تنمية الحياة الزراعية على طول خط سيره، وعلى توطيد سلطة الخليفة، والقضاء على دسائس الانجليز ومؤامراتهم في البحر الاحمر والجزيرة العربية. وعندما وافق السلطان نهائيا سنة ١٩٠٣م على منح الالمان امتياز مد هذا الخط، عارضت بريطانيا وفرنسا وروسيا هذا الاجراء، وبدأت تحارب تنفيذ المشروع، اذ رأت في هذا

العمل شبح الاخطبوط الألماني الذي لم تتورع الدول الاوروبية عن القول بأن الجامعة الاسلامية كانت مطية له، والذي بدأ يظهر كأخطر منافس للحكومة البريطانية في ميدان الاستعمار، واكبر خطر على مصالحها في البلاد العربية.

الدولة العثمانية وفلسطين:

ظهرت فكرة الصهيونية بوضوح في اواخر القرن الثامن عشر وبالذات في سنة ١٧٩٨م عندما ناشد أحد اليهود الفرنسيين جميع يهود العالم ليتجمعوا في باريس، ويكونوا مجلسا اعلى، وقدموا طلبا للحكومة الفرنيسية لارجاع جميع اليهود الى وطنهم، اما الصهيونية كحركة سياسية فظهرت في اواخر القرن التاسع عشر وكانت قد اشتدت فكرتها في اذهان بعض الزعماء اليهود الذين عملوا فيما بعد على تجسيد الفكرة الى حركة سياسية تعمل من اجل تحقيق تلك الفكرة الصهيونية. ومن المعروف أن الهدف الاساسي للصهيونية هو توطين جميع اليهود في العالم في فلسطين. بحجة انهم شعب الله المختار وان فلسطين هي أرض الميعاد.

وقد صادف نشاط الفكرة الصهيونية وظهور الحركة الصهيونية ارتقاء السلطان عبد الحميد عرش السلطنة العثمانية التي كانت فلسطين تؤلف جزءا منها يعرف بسنجق القدس. وبدأت محاولات من رجال الحركة الصهيونية للحصول على ترخيص من السلطان عبد الحميد لاقامة مستعمرات يهودية في فلسطين.

ذلك ان الخطوة الأولى في برنامج هرتزل لانشاء الدولة الصهيونية كانت الحصول على الارض الكافية، ولذلك صار يسعى حثيثا لتحقيق هذا الهدف، وكان يعد الحكام الذين يستطيعون مساعدته في الحصول على الارض اللازمة بان يساعدهم ماديا، فقال: فلو فرضنا بأن جلالة السلطان يمنحنا فلسطين لكان باستطاعتنا أن ننذر أنفسنا لقاء ذلك لتنظيم شؤون تركيا المالية بكاملها وضبطها. وهكذا فقد كانت جهود الصهيونيين الاولى ابان العهد العثماني موجهة لشراء الاراضي، وقد كانت المحاولة الأولى التي قام بها رئيس الحكومة البريطانية بالمرستون عندما بعث الى قنصله في استنبول ان يضغط على السلطان لاسكان اليهود في فلسطين ومحاولة اقناعه بانهم سيحولون دون خطر محمد علي في مصر الذي بدأ زعماء الصهيونية فعلا يحرضونه ضد الدولة العثمانية ليظهر خطره واضحا امام عين السلطان، وقد عبر رجال الحركة الصهيونية عن هذه الآراء بقولهم: سيكون الشعب اليهودي اذا عاد الى فلسطين في رضى السلطان وتحت حمايته سدا بوجه اي رغبات شريرة يفكر بها محمد علي او خليفته في المستقبل.

وقد استطاع الاميرال شفتسبرى الحصول على فرمان سنة ١٨٥٥م بشراء اراضي بين يافا والقدس واقامة مستعمرات جديدة فيها.

وفي عهد السلطان عبد الحميد قام عدد من كبار رجال اليهود بتقديم عريضة للسلطان عبد الحميد للسماح لهم بشراء اراضي جديدة واسكان اليهود والسماح لهم بالهجرة وبالتجنس بالجنسية العثمانية واعفائهم من الضرائب مدة سبع سنوات غير ان السلطان عبد الحميد رفض هذه المذكرة التي قام برفعها اليه السير روزبرى الا ان السلطان عبد الحميد اضطر تحت ضغط الدول الاوروبية وخاصة بريطانيا الى اصدار فرمان اي امر سلطاني سمح به لفوج من اليهود ان ينشئوا مستعمرتين زراعيتين في فلسطين التي كانت ولاية عثمانية، هما: الخضيرة وزمارين، اما كيف تمكن اليهود من اقناع السلطان فما يزال غامضا حتى الآن.

ويبدو ان الوسائل التي استعملها اليهود في اقناع السلطان عبد الحميد والتي قد لا تعدو وعده بالوقوف امام تهديدات بعض ولاته له، وتنظيم شؤون دولته المالية التي كانت تعاني من ازمة الديون آنذاك، بالاضافة الى تدخل الحكومة البريطانية لدى السلطان، استطاعت هذه الوسائل ان تجعل السلطان عبد الحميد يسمح لليهود باقامة هاتين المستعمرتين، بل انه كاد أن يصدر موافقته على منح اليهود غوربيسان لولا ان «مجلس المبعوثان» العثماني اقام ضجات كبيرة وعارض هذا الامر وحدثت مشاجرة دامية في قاعة اجتماع المجلس بين النواب المؤيدين والمعارضين لعبت فيها المسدسات دورا هاما، فاضطر السلطان للتراجع عن هذا القرار. وفي سنة ١٨٩١م ابرق جمع من زعماء القدس الى الصدر الاعظم يطالبونه باصدار فرمان يمنع اليهود دخول فلسطين وشراء الارض فيها، فاستجاب السلطان لهذا الطلب ومنع الهجرة ولكن ضغط الحكومة البريطانية جعل هذا المنع حبرا على ورق، واستمرت الهجرة على مسمع وتحت بصر السلطان، فاعاد العرب استنجادهم، فاضطر السلطان في سنة ١٨٩٢م الى اصدار قرار يمنع اليهود من شراء الارض ومنع السكان من بيع اراضيهم لليهود، فتدخلت بريطانيا فاستمر البيع، فاضطر السلطان في سنة ١٩٠١م الى منع اي يهودي من الدخول الى فلسطين الا اذا كان سيغادرها خلال ثلاثة شهور.

وقد اتصل هرتزل ـ بعد مؤتمر بال الصهيوني الذي تقرر فيه ضرورة العمل بجد ونشاط من اجل انشاء الدولة اليهودية ـ بالسلطان عبد الحميد سنة ١٩٠١م وعرض عليه مشروع الصهيونية واهدافها باقامة جمهورية يهودية في فلسطين، وحاول الحصول

على موافقته في اقامة هذه الجمهورية تحت ظل الحكم العثماني مقابل تقديم اعانات مالية ضخمة للسلطان، غير ان السلطان لم يستجب لهذا الطلب.

وعندما اعاد هرتزل الطلب على السلطان عبد الحميد اصر هذا الاخير على الرفض واصر على عدم هجرة اليهود الى فلسطين، وقال له بانه يسمح لجماعات صغيرة من اليهود ان تنزل اينما شاءت من اراضي الدولة العثمانية ما عدا فلسطين. ومما قاله هرتزل لمن سعوا لدى السلطان: «ان اليهود حلفاء طبيعيون ضد المسيحيين وان المال المقدم من اليهود سيسمح للدولة العثمانية بالتحدي والصمود امام الدول الاستعمارية الاوروبية» وعندما اراد هرتزل مقابلة السلطان شخصيا ليحدثه في الموضوع رفض السلطان مقابلته، ورفض قبول المعونة الصهيونية والسماح بالهجرة اليهودية. وكتب الى رئيس وزرائه (الصدر الاعظم) يقول: انصحوا الدكتور هرتزل بالا يتخذ اية خطوات اخرى في هذا الموضوع، ولا يسعني أن اسمح بتحويل شبر واحد من الارض لليهود، لأن هذه الارض ليست ملكا لي، انها لاهلها، وقد كافحوا وحاربوا من اجلها، ورووا ثراها بدمائهم، فليحتفظ اليهود بملايينهم، واذا مزقت امبراطوريتي فانهم قد يحصلون على فلسطين دون مقابل.

انهم لا يستطيعون اقتطاع شبر واحد من هذه الامبراطورية الا اذا تحولت الى جثة هامدة، اني لا استطيع الموافقة على تقطيع امبراطوريتي وهي حية.

وامام هذا الرفض من السلطان العثماني للهجرة اليهودية الى فلسطين، اتجه اليهود نحو سيناء وهي متاخمة لفلسطين، وذهبت بعثة صهيونية للبحث في امكانية الاقامة هناك، فرأت هذه البعثة بعد الاطلاع صلاحية ذلك على اساس ان تجلب المياه من نهر النيل، ولكن السير كرومر المندوب السامي البريطاني في مصر رفض هذا الطلب خوفا من غضب السلطان والخديوي، وكذلك فشلت فكرة مشروع كينيا واوغندا، فنقل اليهود نشاطهم الى قلب العاصمة العثمانية استمبول.

ولما كان السلطان عبد الحميد عقبة ترتفع في وجه مشاريعهم وآمالهم بفضل وجود بعض الاشخاص العرب في حاشيته، وبفضل حرصه على عدم اغضاب الرأي العام الاسلامي الذي بدأ يستميله ـ بتاييده لفكرة الجامعة الاسلامية ـ ضد الدول الاوروبية ـ ولو انه اصدر بعض الفرمانات لشراء الاراضي التي استغلها اليهود لاقامة مستعمرات اشرفت عليها جمعية الكارن كايمت التي تمكنت في مدى اربعين سنة (١٩٠٧ ـ ١٩٤٧) من شراء حوالي الف كيلو متر مربع (١٠٠٠٠٠ هكتار). وبسبب هذا الموقف المتعنت من

السلطان وحاشيته من العرب اسهم اليهود الى حد بعيد في الاعداد وتنفيذ عملية الانقلاب ضده سنة ١٩٠٨ وتنحيته عن العرش.

وعندما استولى زعماء جمعية الاتحاد والترقي على الحكم في الدولة العثمانية، سمحت الحكومة التركية لليهود في فلسطين باقامة جيش دفاعي عن المستعمرات، واصبح للصهيونيين بهذا الانقلاب نفوذ كبير، واسسوا مكاتب نشيطة داخل السلطنة، احدها: المكتب الفلسطيني تحت اشراف الدكتور راين، وآخر في استمبول كانت مهمته السعي للحصول على امتيازات جديدة من الاتراك، والتمهيد لعقد بيع صفقات بيع اراضي، ولكن رغم معارضة السلطان عبد الحميد للصهيونية، فانه من غير الممكن ان نصدر حكما دقيقا على حقيقة موقفه، اذ انه سواء كان موقفه سلبيا او ايجابيا، وسواء كان رجال جمعية الاتحاد والترقي هم المسؤولين عن ازدياد نشاط الصهيونية وشراء الارض وتهجير اليهود الى فلسطين، فإن الصهاينة استطاعوا ان يؤسسوا بضع مستعمرات حتى سنة ١٨٨٩م وان يؤسسوا ٣٤ مستعمرة جديدة بين عامي ١٨٨٣ ـ ١٩١١م وهي فترة حكم السلطان عبد الحميد وبداية عهد الحكم الرسمي لجمعية الاتحاد والترقي.

جمعية الاتحاد والترقي وقضايا الصراع مع العرب في العهد الدستوري

نشط الاحرار العثمانيون من مختلف القوميات في مقاومة سياسة السلطان عبد الحميد الثاني، ولجأووا الى تكوين الجمعيات السياسية داخل الدولة وخارجها، وقد كان دعاة الاصلاح هؤلاء مزيجا من ضباط الجيش والموظفين المدنيين والمفكرين المعتدلين، وكانت اول جمعية الفوها سنة ١٨٦٥ «الجمعية العثمانية الفتاة»، ولكن الخلافات الشخصية والعقائدية بين افرادها، والانتماءات الطبقية وبالتالي المصلحية المتضاربة سرعان ما اظهرت ضعف هذه التنظيم الذي دعا الى نوع من قومية عثمانية اسلامية، ولم يطالب بالاطاحة بالسلطان عبد الحميد، بل اكتفى بتقييد سلطة الحاكم بدستور وكان شعار هذه الجمعية: عدالة، حرية، وطن، وليس مساواة، لأن اعضاءها لم يقبلوا بمساواة غير المسلمين بهم. وكان اعلان دستور ١٧٧٦م تتويجا لطامحهم. ولذلك حل مكانهم تنظيم اكثر ثورية هو جمعية «تركيا الفتاة» سنة ١٨٨٩، اسسها اربعة طلاب من الكلية الطبية العسكرية برئاسة ابراهيم تمو، الا ان هذه الجمعية اتهمت سنة ١٨٩٦م بمحاولة القيام بانقلاب، فتم اضطهادهم وملاحقتهم، مما دفع ببعضهم للهروب الى اوروبا،

وتضاءل عنصر المدنيين فيها، حتى كادت تقتصر على العسكريين، واصبح مركزها سالونيك عاصمة مكدونيا الثائرة، التي كانت مرتعا خصبا لنشاط جمعية سرية باسم «عثمانلي حريت جمعيتي» أي الجمعية العثمانية الحرة، في سالونيك سنة ١٩٠٦م. وهي ذات صبغة تركية صرفة وكانت ادارتها مؤلفة من جمال باشا، ومدحت باشا، وطلعت بك، وفي نفس السنة تم تأسيس جمعية «الاتحاد العثماني» من قبل جماعة من الماسونيين، وكان وجود اليهود السفارديم (الاسبانيين) باعداد كبيرة في هذه المنطقة اثر اخراج الساميين من اسبانيا او اخر القرن الخامس عشر، وقيامهم بنشاط ماسوني وثوري، جعل بعضهم يبرز في الجمعيات السياسية، وفي سنة ١٩٠٦ ايضا قام اليوزباشي مصطفى كمال بتأسيس جمعية اخرى، وفي سنة ١٩٠٧م اتفقت هذه الجمعيات السياسية المختلفة وهي: «تركيا الفتاة» وعثمانلي حريت جمعيتي» و «الاتحاد العثماني» وجمعية مصطفى كمال، على الاتحاد في جمعية واحدة اطلق عليها اسم جمعية «الاتحاد والترقي» التي وقعت تحت سيطرة الثلاثي اليهودي الماسوني: نور باشا، وجمال باشا، وطلعت بك.

وبسبب موقف السلطان عبد الحميد المتشدد ضد رغبات اليهود في الاستيطان في فلسطين، اسهم اليهود الى حد بعيد في دفع جمعية الاتحاد والترقي للقيام بالحركة الانقلابية التي اطاحت بالسلطان عبد الحميد في العاشر من تموز ١٩٠٨م. ويذهب بعض المؤرخين الى ان الانقلاب انما هو انقلاب صهيوني بحت، اذ ان معظم اعضائه كانوا من اصل يهودي او على صلة بالصهيونية مثل انور باشا وطلعت باشا اللذين هما من يهود الدونمة الالبان، ويدعوان للتعاون مع الحركة الصهيونية، بدليل ان الحكومة الانقلابية امرت باغلاق الجرائد العربية التي كانت تنوه الى خطر الهجرة اليهودية الى فلسطين، ومطاردة رجال العرب الامراء، ومضايقة الحركة الوطنية العربية، وسمحت لليهود باقامة جيش دفاعي عن المستعمرات، واصبح للصهيونيين بهذا الانقلاب نفوذ كبير، واسسوا مكاتب نشيطة داخل السلطنة، احدها المكتب الفلسطيني، ومكتب اخر في الاستانة بهدف الحصول على امتيازات جديدة من الحكومة التركية.

وعملت جمعية «الاتحاد والترقي على تفكيك الرابطة العثمانية الاسلامية، وتبنت مبدأ القومية الطورانية المتزمتة التي تنكرت للرابطة الاسلامية التي تجمع الشعوب والقوميات المختلفة في الدولة العثمانية، وخاصة الشعوب العربية، وسرعان ما حل سوء التفاهم والارتياب بين العرب والترك محل الوفاق والوئام،وكانت اسباب هذا التحول

كثيرة، وكانت تتراكم رويدا رويدا، وكان يزيد من تردي العلاقات بين العنصرين: العربي والتركي اطلاق العهد الجديد لحرية الصحافة التي لم تكن تتحرج احيانا عن اثارة المشاكل العرقية، وقد يكون ما كتبه حسين جاهد في جريدة «طنين» منذ شهر تشرين الأول سنة ١٩٠٨م الشرارة التي انطلقت فاضـرمت نار الحقـد بين عنـاصر الدولة المختلفة، فقد كتب يقول: ان الامة التركية كانت وستظل هي الامة الحاكمة في السلطنة العثمانية، وان الترك يتمتعون بحقوق وامتيازات سامية بصفتهم فاتحين، فلا مجال اذن للاعتراف بحقوق مساوية للعناصر العرقية الاخرى، وان الدستور العثماني لا يمكن ان يكون في شكله النهائي سوى دستور تركي».

وكانت اهم العوامل التي اوقعت الخلاف بين العرب والترك هي:

١ ـ قضية اللغة العربية.

٢ ـ قضية الانتخابات.

٣ ـ قضية الحكم المركزي.

٤ ـ مشكلتا اليمن وطرابلس الغرب.

٥ ـ قضية شركة لينش الانجليزية.

١ ـ قضية اللغة العربية:

سارت حكومة الاتحاديين على فرض اللغة التركية على بقية عناصر الدولة للقضاء على لغاتها القومية، وخاصة في الولايات العربية، فقد جعلت اللغة التركية لغة التعليم، والقضـاء، والمراسـلات، ولغة الحـديث في مجلس المبعوثـان. فلما رأى زعمـاء العرب ومثقفوهم ماتعانيه لغتهم من اضطهاد، رأوا ضرورة المطالبـة باعـادة الاعتبار لهـا، ومطالبة الحكومة العثمانية بالاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية، ولغة التعليم في المدارس في الولايات العربية.

٢ ـ قضية الانتخابات في الدولة العثمانية:

كانت حكومة الاتحاديين تعمد الى ترشيح نواب اتراك في الولايات العربية، وكان القانون ينص على انه لا يجوز ترشيح من لم يكن عارفا للغة التركية، وهذا الشرط قلل من عدد المؤهلين العرب والحائزين على هذا الشرط، وكان مجموع عدد النواب ٢٧٥ نائبا قسموا مبدئيا: ٦٥ نائبا للولايات العربية، و٢٥ نائبا للالبان، و٢٣ نائبا لليونان، و١٢

للارمن و٤ للبلغار، و٥ لليهود، و٣ للسلاف وواحد للفلاخ، و١٣٧ للترك. ولو روعيت نسبة عدد السكان لوجب ان يكون للعرب مئة نائب وللاتراك ٧٥ نائبا وفي الواقع لم يكن سوى ٥٠ نائبا عربيا.

٣ ـ قضية المركزية:

منذ بداية الانقلاب الدستوري ١٩٠٨، استلم اعضاء جمعية الاتحاد والترقي السلطة الفعلية في الدولة، وفرضوا الرقابة الشديدة على السلطان والصدر الاعظم. واصبح هم الاتحاديين مزج عناصر الدولة وصهرها في بوتقة واحدة في عصر القوميات، وحكموا البلاد حكما مركزيا، وكانوا يرون في الحكم اللامركزي تفكيكا ودمارا للدولة، بينما كان العرب يرون فيه اساس قوة الدولة، لانه يهيء للسكان امكانية تطوير مناطقهم التي هم اعرف الناس باحتياجاتها المحلية. وظلت قضية المركزية واللامركزية مصدر خلافات كبيرة بين العرب والترك حتى نشوب الحرب العالمية الأولى.

٤ ـ مشكلتا اليمن وطرابلس الغرب:

انشغلت الدولة العثمانية في محاربة عرب اليمن لاخضاعهم والقضاء على ثوراتهم ضد استهتار الموظفين، وقد اضطرت الحكومة ان تسحب الحامية من طرابلس الغرب الى اليمن لقمع ثورته، بدلا من ان تبقيها هناك وتزيد من دعمها من اجل مقاومة الغزو الايطالي لطرابلس، ووقعت حكومة الاتحاديين مع حكومة ايطاليا في شهر تشرين الاول ١٩١٢ على على معاهدة اوشي تنازلت بموجبها عن ليبيا لايطاليا مما كان له اسوأ الاثر على نفوس النواب العرب، وسببا في توتر العلاقات العربية ـ التركية، وفقد العرب الثقة بنوايا حكومة الاتحاديين.

٥ ـ قضية شركة لينش الانجليزية:

كانت شركة الملاحة الانجليزية «لينش» تعمل في نهري دجلة والفرات دون الحصول على فرمان رسمي من السلطان العثماني، ورغم معارضة جميع الولاة الذين تعاقبوا على العراق. ولما استلمت جمعية الاتحاد والترقي السلطة في الدولة العثمانية وافقت على ضم البراخر العثمانية الى شركة لينش على شرط ان ترفع العلم العثماني بدلا من العلم الانجليزي، وأن يكون عملها احتكارا عليها، وان يكون رئيسها انجليزيا، وكانت الموافقة دون عرضها على مجلس المبعوثان، فأعلن العرب احتجاجهم على هذا الامتياز الذي يضر بالارض العربية ضررا فادحا، وكان لهذه الموافقة نتائج خطيرة على العلاقات

العربية التركية، حيث اتهم النواب العرب حكومة الاتحاديين بالتفريط في حقوق الولايات العربية ومصالحها السياسية، واستاء المواطنون العرب استياء شديداً، حيث حدث هيجان شديد ونظمت المظاهرات في مدن العراق، ووصل الحد الى بوادر ثورة وانهالت برقيات الاحتجاج على السلطان مطالبين بأن تكون الشركة وطنية بحتة. وظلت القضية مصدر خلاف عدم ثقة بين العرب والحكومة الاتحادية.

وهكذا فإنه رغم سير العرب في ركاب جمعية الاتحاد والترقي عند اعلانها الدستور واستلامها السلطة في الدولة، فإن الفريقين كانا مغرورين في امالهما ، فلا العرب لمسوا من الاتحاديين اخلاصا في العمل على تحقيق امانيهم، بل شعروا ان الاتحاديين يعملون على تحويل الدولة العثمانية لخدمة تسلط الجنس التركي، وتوجيهها في سبيل ترسيخ ودعم سيطرته كعنصر حاكم، ولا الاتحاديون لمسوا من عناصر الدولة الاخرى بما فيهم العرب تجاوبا مع سياستهم الرامية الى السيطرة والاضطهاد، فأخذوا في سياسة القمع والقوة لتنفيذ اهدافهم المرسومة منذ ما قبل الحركة الانقلابية الدستورية، وعملوا على تصعيد الخلاف مع العرب حول عوامل خلاف جديدة منها نفي الاسر العربية الكريمة الى الاناضول وغيرها، وحملتي الاعدام اللتين نظمها احمد جمال باشا قائد الجيش الرابع في سوريا. في حق زعماء العرب ومفكريهم، والحياد عن مباديء الدين الحنيف ومهاجمة الاسلام باعتباره دين العرب ودخول تركيا الحرب العالمية الأولى التي لاناقة لها فيها ولا جمل دون ان يكون لديها القوة والامكانيات الكفيلة بتحقيق النصر.

اسباب انحطاط وتدهور الدولة العثمانية

يتفق المؤرخون على ان انحطاط الدولة العثمانية بدأ بعد عهد السلطان سليمان القانوني، واستمرت فترة الانحطاط طيلة القرنين والنصف التي تلت عهده .

ويعزى هذا الانحطاط والتدهور الى عدة عوامل، اهمها:

١ ـ ضعف السلاطين بعد سليمان القانوني، وقيام ما يعرف بدولة النساء.٢ ـ انتشار الفساد في الادارة

٣ ـ تدهور نظام الانكشارية .

٤ ـ الفتن والثورات الداخلية.

٥ ـ الامتيازات الاجنبية.

٦ ـ الصراع المستمر وكثرة الحروب مع الدول الاوروبية.

اولا: ضعف السلاطيـــن:

جلس على عرش الدولة العثمانية عشرة سلاطين اقوياء منذ عهد عثمان الأول مؤسس الدولة حتى سليمان القانوني عملوا على بناء الدولة وحمايتها حتى وصلت الى ما وصلت اليه من القوة والعظمة. وبعد سليمان القانوني أعتلى عرش الامبراطورية خمسة وعشرون سلطانا حتى سقوط الدولة العثمانية وانهزامها امام الحلفاء سنة ١٩١٨م.

فبعد سليمان القانوني فقد السلاطين قوتهم، ولم تبق بأيديهم اية سلطة، وانما انتقلت الى ايدي نساء السلاطين فيما بين ١٥٩٥ ـ ١٦٨٧م، ثم انتقلت هذه السلطة الى الصدر الاعظم. وكان بداية ظهور سلطة النساء منذ عهد السلطان سليمان القانوني على يد زوجته روكسلان، الا ان قوته وعظمته وصرامته لم تسمح لها بالظهور أو فرض سلطتها، ولكنها ظهرت في عهد خليفته سليم الثاني، واصبحت سلطة النساء عادية منذ عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧١ ـ ١٥٩٥م). ثم في عهد محمد الثالث (١٥٩٥ ـ ١٦٠٣م)، واحمد الأول (١٦٠٣ ـ ١٦١٧م)، ومصطفى الاول (١٦١٨) الذي لم يدم في الحكم الا ثلاثة اشهر، وحتى محمد الرابع (١٦٤٩ ـ ١٦٨٧م)، أما السلاطين الذين تولوا العرش في فترة تسلط كبار الوزراء فهم: سليمان الثاني (١٦٨٧ ـ ١٦٩١م). واحمد الثاني، ومصطفى الثاني، واحمد الثالث، ومحمود الأول (١٧٣٠م).

أما السلاطين الذين استلموا الحكم في عهد تسلط الخصي والانكشارية، فهم: عثمان الثالث (١٧٥٤ ـ ١٧٥٧م)، ومصطفى الثالث، وعبد الحميد الأول، وسليم الثالث، ومصطفى الرابع.

وقد كان هؤلاء السلاطين علاوة على ضعف شخصياتهم ووقوعهم تحت سلطة النساء والوزراء والخصي والانكشارية لاهين عن امور الدولة، منصرفين الى اللهو والترف وحب البذخ والرفاهية، كثيري التبذير والاسراف لاموال الدولة من اجل اشباع رغباتهم وملذاتهم.

ثانيا: فساد الادارة:

بدأت الادارة في الدولة العثمانية تعاني من الفساد والفوضى منذ منتصف القرن السادس عشر، ولعل اهم نقط الضعف في الادارة العثمانية هي افتقار تصور العثمانيين الى احساس حقيقي بأن مهمة الدولة هي العمل على رفاهية المواطنين، لذلك فقد ترك

المجال واسعا لظهور المحسوبية والرشوة وبيع الوظائف الادارية بل حتى القضائية والدينية، مما ادى الى انهيار الدولة الاقتصادي والسياسي. حيث عجزت عن فرض القوانين اللازمة لتنظيم شؤونها، وادى الى ضعف الانتاج الوطني في الزراعة والصناعة والتجارة، والى ازدياد النفوذ الاجنبي الذي لم تعد الدولة قادرة على مقاومته والحد منه لضعفها وهزائمها المتكررة.

ثالثا: تدهور نظام الانكشارية:

الانكشارية هي اول جيش منظم دائم ينشأ في الدولة العثمانية في عهد السلطان اورخان عندما واجه مشكلة الاسرى الاعداء وكيفية معاملتهم والتصرف بهم. فرأى أن احسن وسيلة للتخلص من هذه المشكلة هي تربيتهم تربية اسلامية ويشبعهم بفكرة الجهاد منذ نعومة اظفارهم. ويذهب بعض المؤرخين الى ان الهدف الاساسي من انشاء هذا الجيش هو استخدامه للغزو والفتح، اي للعمل على بناء الدولة وتوسيع رقعتها.

وظلت الدولة لفترة طويلة تعتبر هذا الجيش وسيلتها الأولى في حكم الامبراطورية والدفاع عن نفسها، وعملت على اعداده اعدادا خاصا يمتاز بالصرامة والعنف والامتناع عن الملذات والملكية، وعدم الارتباط بأية جهة سوى السلطان مباشرة، فلم يكن يسمح لهم بالزواج ولا بممارسة الحياة المدنية. غير ان وضع الانكشارية قد تغير تغيرا اساسيا منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر حين سمح لهم بالزواج، واخذوا يميلون الى الاستقرار والارتباط بالارض والاعتناء بمحاصيلها، وبدأوا يتدخلون بالمشاكل الداخلية للدولة، واصبحوا يشكلون طبقة وراثية متميزة عن غيرها، كما بدأوا يفقدون روحهم العسكرية. ولقد بلغ بهم الترف والرخاء لدرجة انهم كانوا يقضون نهارهم مستلقين على ظهورهم فوق الحشائش وتحت اشعة الشمس اللطيفة، ودب الفساد فيهم وتضاءل ارتباطهم بثكناتهم، وصار الكثيرون منهم لا يذهبون الى ثكناتهم الا لتسلم المرتبات التي كانت تسمى «العلوفات»، وصار عدد كبير منهم لا يجتمعون الا لرفع صوت العصيان للمطالبة بزيادة العلوفات، وتعددت حوادث تعديهم على ارواح الناس واموالهم فأصبحوا موضع كراهية شديدة من الأهالي. ولم يعد هذا النوع من الجيوش يتلاءم مع روح العصر، واثبت فشله في الدفاع عن الدولة ومقاومة الاعتداءات الخارجية، واصبح يقف حجر عثرة في طريق الاصلاحات الهادفة الى رفع مستواه وكفاءته العسكرية، حيث كان افراده يعملون على عزل او قتل اي سلطان يحاول تطبيق المباديء الاصلاحية على هذا الجيش.

وقد كان لتدهور الانكشارية وضعفهم دور سلبي في حياة الدولة العثمانية اذ انهم عملوا على انهاك الدولة بكثرة الحوادث التي كانوا يخلقونها، وبتخلّيهم عن واجبهم الذي أنشؤوا من اجله، وميلهم نحو حياة الترف والانغماس في الملذات وحب الملكية، وعجزهم عن الصمود أمام جيوش الاعداء أو قوات الثوار في الولايات العثمانية. كل هذه الامور عملت على فقدان الدولة للقوة التي كانت تعتمد عليها في الدفاع عن نفسها والمحافظة عليها وبالتالي ساعد على انهيارها وانحطاطها.

رابعاً: الفتن والثورات الداخلية والحركات الانفصالية:

منذ اوائل القرن السابع عشر بدأ يظهر في اقاليم الدولة العثماهية المترامية الاطراف زعماء اقوياء يحكمون بعض الاقاليم، وبدأوا يطمحون الى تأسيس امارات أو دول تحت رئاستهم، ويحاولون الانفصال عن الدولة. ويلاحظ أن هذه الحركات الانفصالية ظهرت بشكل واضح في المناطق الجبلية كما في لبنان أو شمال فلسطين، وكذلك في المناطق النائية عن عاصمة الدولة كما في مصر والعراق واليمن وبلاد المغرب العربي.

١ ـ ففي لبنان أعلن فخر الدين المعني سنة ١٦٠٣م بالاشتراك مع جنبلاط الثورة على الباب العالي، وسمحت له الدولة بحكم البلاد مقابل دفعه الجزية، وسرعان ما أخذ يحارب العثمانيين لتوسيع ملكه وتثبيت حكمه، ولكنه اضطر الى الاستسلام، وتمكنت الدولة العثمانية من القضاء عليه.

٢ ـ وفي اليمن استمر النزاع بين العثمانيين والزيديين، حتى أن هؤلاء الأخيرين تمكنوا من أخراج العثمانيين من اليمن كله سنة ١٦٣٦م، والاستقلال باليمن.

٣ ـ وفي نجد ظهرت حركة محمد بن عبد الوهاب السلفية التي كانت تقوم على عدة مباديء أهمها:

أ ـ التاكيد على ان المعتقدات الاسلامية تبنى على ما جاء في القرآن وحده، ورفض كافة المعتقدات التي ادخلتها السنة.

ب ـ رفض السيطرة الروحية التي تدعيها الخلافة العثمانية، ورفض أي تقديس للرسول واشراف مكة (سلالة الرسول) واولياء الله.

وبدأ حركته في الدرعية قرب عيينة في نجد وكان اميرها محمد بن سعود، وقد وجد منه التأييد والدعم مما صبغها بالصبغة السياسية، واصبحت تشكل خطراً على سلطة الدولة العثمانية في شبه الجزيرة العربية، فاتجهت الدولة للقضاء على هذه الحركة،

فارسلت حملة عسكرية بقيادة طوسون بن محمد علي والي مصر سنة ١٨١١م باءت بالفشل، ثم ارسلت حملة ثانية سنة ١٨١٢م بقيادة محمد علي نفسه لم تحقق نجاحا هي الاخرى، ولم يتمكن محمد علي من القضاء على الحركة الوهابية الا سنة ١٨١٥م بقيادة ابنه ابراهيم باشا.

٤ ـ وفي مصر أعلن محمد علي استقلاله، وعمل على تثبيت اركان حكمه في مصر، ثم قضى على الحركة الوهابية في نجد، ثم استولى على السودان، ثم احتل سوريا سنة ١٨٣٢م، فاضطر السلطان الى ان يعقد معه اتفاقية كوتاهية في شباط سنة ١٨٣٣م، اعترف فيها السلطان لمحمد علي بالولاية على مصر والحجاز وكريت، وجعل ابراهيم باشا بن محمد علي واليا على سوريا وعكا ودمشق وطرابلس وحلب وحماة. ولم يحد من اطماع محمد علي سوى بريطانيا التي ارغمته على عقد اتفاقية مع السلطان العثماني سنة ١٨٣٩م اعترف بموجبها السلطان بولاية محمد علي الوراثية على مصر.

٥ ـ كذلك حدثت ثورات وحركات انفصالية في ولايات البلقان، واخذت هذه الولايات في الانفصال عن جسم الدولة العثمانية، حتى انها تمكنت كلها من الاستقلال سنة ١٩١٢م، ولم يبق للدولة العثمانية اية ولاية في تلك المنطقة.

ولقد كانت هذه الثورات والحركات الانفصالية تدل على ضعف الدولة العثمانية وضعف سلطتها في الوصول الى ولاياتها، وقد عملت هذه الثورات على انهاك قوة الدولة العسكرية، وتكليفها نفقات باهظة، مما كان له آثار سيئة على انهيارها وتفككها.

خامساً: الامتيازات الاجنبية:

تطلق كلمة الامتيازات على التسهيلات التي منحتها الدولة العثمانية لرعايا الدول الأجنبية في الدولة العثمانية، وقد قدمتها الدولة العثمانية من موقف القوة، واشترط لمنحها صداقة الدولة صاحبة الامتيازات للدولة العثمانية، ووجوب انتهاجها سياسة الود والتعاون. وكانت فرنسا أول دولة أوروبية تحصل على مثل هذه الامتيازات، ثم بدأ تنافس الدول الأوروبية وتسابقها على الحصول على مثل هذه الامتيازات، ولا سيما بريطانيا. وقد اصبحت هذه الامتيازات تعتبر حقوقا مكتسبة لتلك الدول، غير انها لم تكن تشكل خطراً على الدولة العثمانية وقت بلوغها اقصى مراحل قوتها، لكنها كانت من الطبيعي ان تصبح خطراً يهددها مع ضعف الدولة العثمانية وانحطاطها. وكثيراً ما حاول

السلطان العثماني الغاء هذه الامتيازات، غير انه لم يستطع تحقيق هدفه. وهكذا فإن هذه الامتيازات التي كانت رمزاً للقوة والصداقة العثمانية ـ الاوروبية اصبحت سبباً من اسباب تدهور الدولة العثمانية، وعرقلت كثيراً جهود التنظيم والتقدم في عهد التنظيمات العثمانية، وصارت موضوعا لشتى المساومات في عهد المشروطية، وافقدت السلطان العثماني مكانته وهيبته، وعملت على تقسيم المقيمين في الدولة العثمانية الى قسمين:

قسم الاجانب الذين يتمتعون بكل شيء، وقسم المواطنين الأهالي الذين لم يكن يسمح لهم الا ما يسمح به هؤلاء الأجانب الذين وضعوا ايديهم على كل ما يستطيعون من اقتصاد البلاد، مما سمح لهؤلاء الاجانب بمص دم الشعوب العثمانية، والمساس بشرف الدولة العثمانية، لتعارضها مع مبادىء السيادة القومية، ووقوفها حجر عثرة أمام تقدم وتطور الدولة، مما ساعد على انحطاطها وتدهورها.

سادساً: الصراع المستمر وكثرة الحروب مع الدول الاوروبية:

فقد بدأ هذا الصراع مع آل هبسبورغ في عهد السلطان سليمان واستمر اكثر من قرن ونصف، انتهى سنة ١٥٣٢م بمعاهدة كارلوفتز Karlowits التي اجبرت الدولة العثمانية على التنازل عن كثير من ممتلكاتها الاوروبية في تراتسفانيا، والمجر، وسلافونيا، وكروانيا، واجزاء من اكرانيا. كذلك استمر الصراع مع البنادقة انتهى بهزيمة العثمانيين في معركة ليبانتي الحاسمة في ١٥٧١م وتحطيم اسطولهم، وفقدانهم سيادتهم على البحر الأبيض المتوسط.

وما ان توقف الصراع مع الهبسبورغ والبندقية حتى بدأ مع دولة ناشئة، هي روسيا القيصرية، واشتبكت الدولتان في حرب دامية انتهت بمعاهدة كشك قينارجي Kainardji التي حصلت روسيا بموجبها على الأجزاء الشمالية الشرقية من البحر الاسود، وحق حماية المسيحيين الأرثوذكس في الدولة العثمانية. وما كادت الحرب مع روسيا تتوقف حتى بدأت فرنسا في عهد الثورة تطمع في أملاك الدولة العثمانية، فكانت حملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨م.

واستمر الصراع العثماني ـ الاوروبي، والحروب المتكررة من الدول الاوروبية ضد الدولة العثمانية، واثارة القلاقل والاضطرابات في ولاياتها الاوروبية، وتشجيع العناصر البلقانية على الثورة والانفصال، وكذلك استيلاء الدول الاوروبية على اجزاء من اراضي الدولة العثمانية بدءاً باحتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠م، فعمل ذلك كله على

انهاك الدولة العثمانية وانهيارها،ماديا وعسكريا ومعنويا، فكان ذلك عاملا أساسيا من عوامل ضعف الدولة العثمانية وانهيارها، ثم القضاء عليها نهائيا.

سابعاً: اتساع رقعة الدولة العثمانية:

فقد امتدت حدود الدولة العثمانية الى أرجاء نائية في اوروبا وآسيا وافريقيا، واصبحت ذات مساحة شاسعة، مترامية الأطراف، فأصبح من الصعوبة بمكان ان يبسط السلطان العثماني نفوذه، وان يفرض سيطرته على ولاته في تلك الولايات النائية، فكان ذلك حافزاً لهم للقيام بمحاولات للدفاع عن حدود الدولة المتباعدة، أمام الهجمات المتكررة والمستمرة من الدول الأوروبية التي أخذت تطمع في امتلاك أجزاء من الدولة العثمالية، ولا سيما في بلدان المغرب العربي، ومصر، ونجد، والولايات الاوروبية بما فيها ولايات البلقان التي أستطاعت سنة ١٩١٢ تكوين الحلف البلقاني والاستقلال عن الدولة العثمانية. وهكذا كانت سعة أرجاء الدولة الى الحد الذي عجزت فيه عن حمايتها عاملا أساسيا من عوامل تدهورها وانهيارها.

نهاية الدولة العثمانية والمؤامرة الغربية

اندلعت نيران الحرب العالمية الاولى بين دول الحلفاء (بريطانيا، فرنسا، وروسيا)، ودول المركز (المانيا وايطاليا)، وكان انور باشا في تلك الاثناء هو الحاكم الفعلي للدولة العثمانية، ولم يكن السلطان محمد رشاد يمارس أي سلطة فعلية، وقرر الثلاثي الاتحادي (انور، طلعت، جمال) دخول الحرب الى جانب المانيا ضد الحلفاء، فربطوا مقدرات الدولة العثمانية بمقدرات المانيا، معتمدين كلية على قوتها العسكرية، فدخلت تركيا الحرب في نهاية تشرين الاول سنة ١٩١٤م.

وبعد معارك دامية بين القوات الانجليزية والتركية على الجبهة الشرقية من الحرب، استطاع الانجليز احراز انتصارات هامة على الجيوش التركية، فبعد ان احتلوا العراق سنة ١٩١٤، نقلوا عملياتهم الحربية الحاسمة الى سوريا وفلسطين، واستطاعوا الحاق هزائم خطيرة بالقوات التركية في نابلس ما بين ٩ ـ ١١ آذار ١٩١٨ ثم في القدس في نهاية آذار ثم نيسان من نفس السنة.

وانتهت الحرب العالمية الاولى على اثر الهجوم الذي شنه الجنرال اللنبي على القوات التركية في فلسطين، بعد ٤ سنوات من القتال المستمر والمعارك الطاحنة التي أدت الى حدوث خسائر فادحة لكلا الطرفين في الارواح والعتاد والاموال وغيرها.

ووقعت تركيا معاهدة الهدنة في مدروس Mudros في ٣٠ تشرين الأول ١٩١٨، فخرجت من الحرب مكسورة الاجنحة، مقطوعة الأطراف، مريضة القلب، فقد فقدت ولاياتها العربية في الحرب، وكانت قد فقدت من قبل ولاياتها الاوروبية في البلقان، وأصبحت مهددة باقتسام اراضيها نفسها حول العاصمة القسطنطينية حيث أحتل الجنرال الانجليزي ميلن Milne العاصمة التركية في اول تشرين الثاني ١٩١٨م، واقتسم الحلفاء الارض التركية في الاناضول.

وكانت الدولة العثمانية تعاني من أزمات داخلية، فقد توفي السلطان محمد رشاد في ٣ تموز ١٩١٨م فخلفه أخوه فهد الدين وتلقب باسم محمد السادس، وانسحبت وزارة سعيد حليم وطلعت وانور في ١٣ تشرين الاول ١٩١٨، واستلم الداماد فريد رئاسة الوزارة وهو معروف بميوله للانجليز. واستغلت بريطانيا هذه الظروف لتعمل على ترسيخ نفوذها في منطقة الشرق، وحتى لا تثير معارضة فرنسا فقد لجأت الى اثارة اليونانيين لتأسيس دولة يونانية في آسيا واوروبا على انقاض الدولة العثمانية بمساعدة انجلترا. وبالفعل كانت اول خطوة لتحقيق هذا المشروع هي نزول القوات اليونانية في ١٥ ايار ١٩١٩ الى ازمير بدعم الحلفاء، وتسليح اليونانيين في القسطنطينية، بهدف تأسيس جمهورية يونانية.

وفي ١٩ ايار ١٩١٩م اي بعد أربعة أيام من دخول اليونانيين الى أزمير بدأ مصطفى كمال يقود حركة المقاومة المضادة ضد السلطان نفسه الموالي للانجليز، وضد اليونانيين. وفي ٢٩ تموز دعت «جمعية الدفاع عن حقوق المقاطعات الشرقية» الى عقد اجتماع عام في ارضروم تم فيه انتخاب مصطفى كمال رئيسا للجمهورية، واعلن مبدأ الوحدة والحرية التامة لتركيا ضمن حدودها الوطنية. ثم عقد ممثلوا المقاطعات العثمانية مؤتمراً وطنيا في سيفاس Sivas في أيلول ١٩١٩م تم فيه انتخاب مصطفى كمال رئيسا للجمهورية.

وفي ١٦ آذار ١٩٢٠ قام الانجليز ـ الذين كانوا يرقبون بعين قلقة هذه التنظيمات الوطنية ـ باحتلال القسطنطينية، وزادوا من نفوذهم في وزارات الحرب والبحرية والصناعة، واعتقلوا بعض الزعماء والنواب المعروفين بوطنيتهم ونفوهم الى مالطا.

الا ان هذه الاعمال لم تؤثر في عزيمة مصطفى كمال الذي قرر مواصلة النضال والمقاومة، ودعى في ٢٣ نيسان ١٩٢٠ الى عقد مؤتمر عام لمندوبي جميع السناجق فأعلن المؤتمر بداية المقاومة الشعبية وقيام الدولة التركية بدلاً من الدولة العثمانية.

وفي ١٠ آب ١٩٢٠ وقع السلطان محمد السادس مع الانجليز معاهدة سيفر التي عملت على تجزئة تركيا، ونقلت العاصمة الى أنقره وفي هذا فقدان لاستقلال تركيا الذي أعلنه المؤتمر الوطني، وفي هذه الاثناء كان اليونانيون يوالون احراز الانتصارات على الاتراك بحيث انهم استولوا على جل الاراضي التركية، ولم يبق بيد الاتراك سوى القسطنطينية، ونصت معاهدة سيفر على اقامة دولة أرمينية في ارضروم وقان وبتليس، وعلى الاستقلال الذاتي لكردستان. وكانت الاناضول تحت النفوذ الفرنسي والانجليزي.

واستطاع مصطفى كمال ان يحقق انتصاراً عظيماً على اليونانيين في معركة حاسمة في ٢٣ آب ١٩٢١، مما دفع الجمعية الوطنية التركية الى منح مصطفى كمال رتبة مشير ولقب غازي. ثم شن هجوماً عنيفاً في ٢٦ آب ١٩٢٢م ودارت معركة دوملوبونار الحاسمة في ٣٠ آب مع القوات اليونانية التي منيت بالهزيمة وبدأت بالانسحاب من تركيا بحيث لم يبق اي جندي يوناني في الأناضول، وعقدت معاهدة صلح بين الفريقين في مودانيا في ١١ تشرين الاول ١٩٢٢م، وقد كان لهذا الفشل اليوناني آثار سيئة على اليونان، اذ أعلن الجيش خلع الملك قسطنطين وتعيين ابنه جورج الثاني مكانه، ونفذ حكم الاعدام بخمسة وزراء، وتم الغاء معاهدة سيفر، وتقرر عقد مؤتمر دولي في لوزان Lausane الذي افتتح في ٢١ تشرين الثاني ١٩٢٢م تم فيه الاعتراف بانفصال الولايات العربية، وبتخلي تركيا نهائيا عن السواحل البلغارية واليونانية، وموافقة الدول الاوروبية على الغاء الامتيازات Capitulations، وحرية الملاحة والمرور لجميع البواخر التجارية وقت السلم والحرب، وتم تشكيل لجنة من جميع الدول الموقعة على معاهدة لوزان عرفت باسم «لجنة المضايق» مهمتها السهر على مراقبة المضايق ومنع السفن الحربية من المرور فيها، وقد ضمنت معاهدة لوزان «استقلال تركيا»، وبذلك تكون الدول الاوروبية قد نجحت في تنفيذ مؤامراتها على الدولة العثمانية، من تقطيع أوصالها الى اوربيتها وفصلها عن البلاد العربية والدين الاسلامي:

فقد كانت الجمعية الوطنية في أول تشرين الثاني ١٩٢٢م قد قررت سلب السلطان محمد السادس سلطته السياسية مع احتفاظه مؤقتا بالخلافة، فاضطر الى مغادرة البلاد والتخلي عن الخلافة ايضا، فعين مصطفى كمال الامير عبد المجيد ابن السلطان عبد العزيز خليفة للمسلمين وحصر مهماته بالنواحي الدينية فقط.

١ ـ إلا أنه سرعان ما أصدرت الجمعية الوطنية في ٤ آذار ١٩٢٣م قانونا يقضي بازالة الخلافة، ومنعت جميع افراد الاسرة الحاكمة من سلاطين آل عثمان الاقامة داخل

الاراضي التركية. وفي ٢٩ تشرين ١٩٢٣م تم أعلان الجمهورية التركية وانتخاب مصطفى كمال رئيسا لها.

٢ ـ معلنا بذلك انهاء وجود الامبراطورية العثمانية، واحلال الجمهورية التركية محلها. وجاءت هذه الدولة التركية دولة تركية وطنية ذات ميول واتجاهات اوروبية. فيكون مصطفى كمال قد عمل على ازالة السلطنة، وازالة الخلافة، واعلان الجمهورية، واصبحت الجمعية الوطنية هي السلطة الوحيدة في الدولة حيث لم يشاركها المسؤولية لا مجلس شيوخ ولا رئيس دولة ولا وزارة اذ هي التي كانت تنتخب رئيس الدولة لاربع سنوات. وبعد هذه الاجراءات السياسية اتجه نحو اعادة تنظيم الدولة معنويا وماديا، وقد واصل اصلاحاته على مراحل مغتنما الفرص المناسبة لكل تغيير أو تجديد.

٣ ـ ففي المظاهر الخارجية التي خضعت للاوربة فقد منع وضع الطربوش على الرأس سنة ١٩٢٥م وحلت محله القبعة او الكسكيت، وكانت هذه العملية تعني ازالة احد الفوارق الخارجية بين مختلف الاديان، ومنع الدراويش من ممارسة طقوسهم الدينية وامر بإغلاق الزوايا.

٤ ـ وتعتبر سنة ١٩٢٦م سنة حاسمة في تاريخ حركة التتريك والاوربة، ففيها أدخل الحروف اللاتينية بدلا من الحروف العربية للغة التركية.

٥ ـ والف لجنة رسمية لاصلاح اللغة التركية التي اظهرت تعصبا شديداً ضد الكلمات العربية والفارسية بحيث انها صارت ترجح استعمال الكلمات الافرنجية بدلا من الكلمات العربية والفارسية التي كانت مستعملة سابقا، وذلك امعانا منها في الابتعاد عن الاسلام.

٦ ـ وفي ٥ نيسان ١٩٢٨م أكد قانون فصل الدين عن الدولة، فأصبحت دولة علمانية (لا دينية).

٧ ـ وحذفت مادة التربية الدينية من البرامج المدرسية، والغيت جميع القوانين التي جعلت الاسلام دين الدولة.

٨ ـ وفي سنة ١٩٣٤ دعت الحكومة التركية الى ازالة الحجاب، وضرورة الاخذ بالسفور وكشف بعض اجزاء جسم المرأة مثل المرأة الاوروبية المتمدنة. وكانت الحكومة تقول ان المرأة التركية كانت ذات مكانة رفيعة في المجتمع التركي القديم، اما

الحجاب وما يتبعه من أسباب انحطاط النساء فقد جاءنا من العرب بعد دخولنا الاسلام، فلا يجوز ان نبقى متمسكين بهذا النظام الدخيل على مجتمعنا. وقال مصطفى كمال انه يجب الأخذ بالتقاليد الغربية التي تحرر المرأة، والتي لا تختلف عن عادات الاتراك القدماء في مساواة المرأة بالرجل وعدم استعمال الحجاب، وتشجيع الاختلاط.

٩ - وتابع مصطفى كمال حركته التجديدية على الطريقة الاوروبية، ففي سنة ١٩٣٥م قام بأكبر عمل اعتبره بعض المؤرخين ذا أهمية كبرى على طريق التتريك وهو «أصلاح الاسماء التركية»، حيث لم يكن هناك اسماء عائلات، ففرض قانونا يوجب على كل شخص تركي ان يختار لنفسه اسم عائلة، وكان عصمت باشا رئيس الحكومة أول من اتخذ لنفسه اسم «انونو» (اسم بلدة انونو قرب اسكي شهر احرز فيها انتصارين على اليونانيين)، واتخذ مصطفى كمال اسم «أتاتورك» أي ابو الترك.

١٠ - وفي نفس السنة انشأ كلية للآداب والتاريخ في انقره مستخدما العلماء اليهود لتنظيمها وفتح برامجها ومناهجها. وقد اوضح مصطفى كمال نفسه لاعضاء هيئة التدريس ضرورة اعتبار التاريخ العثماني قصة أو جزءاً من التاريخ التركي الذي يجب ان يفهم على انه أكثر اتساعاً وأقدم من التاريخ العثماني. وضرورة تمجيد القادة العظماء الذين حاربوا الاسلام أمثال جنكيز خان. وظهر تيار آخر ينادي بتوسيع مفهوم الترك والاتراك بحيث يعتبر الاتراك والتتار والمغول كلهم أمة واحدة. واعتبار رجال هذه الشعوب اجداداً للاتراك وأسلافا.

وهكذا فقد عمل مصطفى أتاتورك في جميع المجالات على ايجاد حياة ثقافية وفكرية تتجه في اتجاهين مختلفين، أولهما: الاتجاه نحو حضارة أوروبا الغربية ومحاولة اوربة الثقافة التركية، وثانيهما: الرجوع الى العصر التركي الاول قبل الاسلام. وذلك بهدف قطع الصلة او العلاقة التي طالما ظلت تربط الاتراك العثمانيين بالدين الاسلامي الذي يعتبره الاتراك دين العرب كما كان يقول اقطاب حركة العنصرية الطورانية.

وفي مجال السياسة الداخلية فقد عمل مصطفى أتاتورك على تطبيق نظام الحزب الواحد، وكان الحزب الذي يراسه يدعى «حزب الشعب الجمهوري» وقد عبّر عن مباديء حزبه في ست نقط رمز اليها بستة اسهم على العلم (الراية) الاحمر الذي اتخذه رمزاً للوطن، وهي:

١ ـ العلمانية: حيث عمل على فصل الدين عن الدولة.

٢ ـ الديمقراطية: حيث اعلن المساواة بين جميع المواطنين.

٣ ـ الوطنية: وقد بدأ بالفعل عملية التتريك.

٤ ـ سلطة الدولة: وهذا يعني اشراف الدولة على اقتصاد البلاد مع السماح ببعض الحريات الاقتصادية الخاصة.

٥ ـ الثورية: وذلك للحيلولة دون ظهور أي نوع من أنواع الرجعية.

٦ ـ الجمهورية: ويعني الدفاع عن الحكم الجمهوري للدولة.

وقد كانت هذه المباديء الستة هي التي دفعت الحكومة التركية للقضاء على السلطنة، والخلافة الاسلامية، والتخلص من كل المظاهر والقوانين الدينية. وقد كان ذلك نتيجة فهم الزعماء الاتراك الخاطيء لفكرة الدين، وتنكرهم للدور العظيم الذي لعبه الاسلام في بناء الدولة العثمانية في مرحلة البناء والفتوح، وفي المحافظة على تماسك الدولة وبقائها مدة طويلة، بتأجيل انفصال الولايات الاسلامية عنها الى ما بعد انفصال الولايات المسيحية بفترة ليست قصيرة، ولم يكن هذا التأخر بالانفصال الا بفضل الرابطة الاسلامية التي كانت تفرض على جميع المسلمين غير الاتراك الخضوع للخليفة، والاخلاص للخلافة الاسلامية، وأن هذا الانفصال لم يتحقق الا بعد ان ظهر التيار التركي المتعصب الذي اخذ يدعو للتخلي عن الرابطة الاسلامية، والمناداة بالرابطة العرقية الطورانية.

وقد عملت الدولة التركية الحديثة على اقامة علاقات سياسية ودية مع البلاد العربية، وعلى تحسين علاقاتها مع الدول الاوروبية، حيث عملت على عقد معاهدات صداقة وود مع كل من روسيا، وبريطانيا، وفرنسا وايطاليا والمجر. ثم عملت على انشاء الحلف البلقاني بين تركيا واليونان ورومانيا ويوغسلافيا بهدف مقاومة الاطماع البلغارية، والوقوف أمام أي هجوم مفاجيء تقوم به دولة كبرى ضد احدى دول الحلف. ورغم فشل جميع المحاولات المبذولة لادخال بلغاريا في الحلف، فيبدو ان التوتر بين دول الحلف البلقاني وبلغاريا قد بدأت تخف حدته منذ سنة ١٩٣٤م.

وقد توفي مصطفى كمال أتاتورك في ١٠ تشرين الثاني ١٩٣٨م فخلفه مساعده عصمت انونو الذي سار على نهج سلفه وظل وفيا مخلصا لمباديء مؤسس الجمهورية التركية.

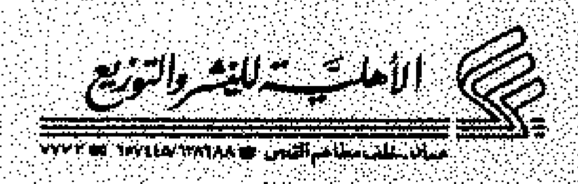
الفهرس

مختصر التاريخ الإسلامي

يدرك معظم المفكرين والفلاسفة مدى أهمية عودة الشعوب إلى تراثها والمحافظة عليه، والانطلاق منه للاطلاع على منجزات الحضارة الإنسانية، والأخذ منها بما يناسب هذا التراث لبناء المستقبل الحضاري المشرق. وهذا هو أساس عدم الانغلاق التام، بمعنى غلق جميع الأبواب والنوافذ فنختنق، والانفتاح التام بمعنى فتح جميع الأبواب والنوافذ فنكون عرضة لهبوب الرياح، بل يجب التفاعل مع بقية الأمم والشعوب مع المحافظة على الأصالة، ومن هذا المنطلق فقد وضعنا كتابنا هذا في التاريخ الإسلامي، لطلبتنا من أبنائنا طلاب وطالبات ولا سيما دارسي الجامعات وكليات المجتمع في تخصص الشريعة الإسلامية والإفتاء لزيادة ثقافتهم، والاطلاع على تراثهم. ويهدف الكتاب إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- تعريف الدارس بالقضايا التاريخية الإسلامية وتنمية معلوماته التاريخية.
- توضيح خصائص التاريخ الإسلامي وميزاته.
- بلورة مفهوم الحضارة الإسلامية ومدى علوها عبر العصور.
- بلورة مفهوم الشورى والجهاد وتحرير الإنسان والعدل من خلال أحداث التاريخ.
- إبراز الدور الحضاري الذي أحدثه المسلمون خلال التاريخ.
- رد الشبهات التي تثار حول الأحداث الكبرى في التاريخ الإسلامي.

وقد قسمنا الكتاب إلى خمس وحدات، عالجت الوحدة الأولى تاريخ الخلفاء الراشدين، وخصصت الوحدة الثانية لتاريخ الدولة الأموية، في حين درسنا تاريخ الدولة العباسية في الوحدة الثالثة، وفي الوحدة الرابعة ركزنا على العصر الفاطمي في مصر والشام، أما في الوحدة الخامسة فقد تحدثنا عن الدولة العثمانية، وأنهينا الكتاب بالمراجع التي قد يفيد منها القارئ.



الشركة الجديدة للطباعة والتجليد